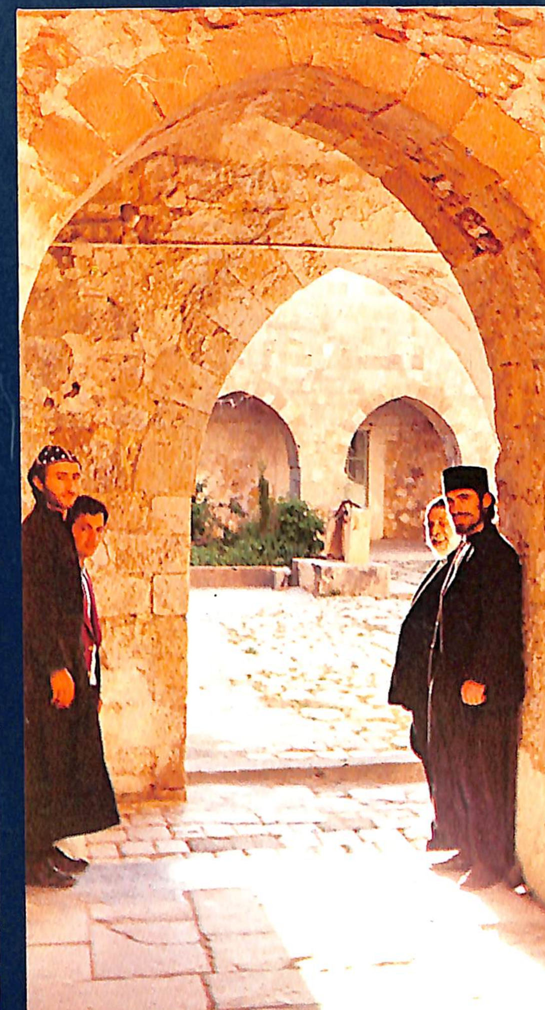
نصوص ودروس

المجموعة التاريخية



الدّيارات النّصرانيّة في الإسْلام

بقلم

حبيب زيّات



دار المشرق
بيروت

منشورات :
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب: ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ١١٠٠ ٢١٥٠ لبنان

التوزيع :
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ بيروت، لبنان


ISBN 2-7214-8137-1


الدّيارات النّصرانيّة
في الإسلام

صورة الغلاف:

دير الزعفران قرب ماردين
في طور عابدين - جنوب شرق تركيا

الدِّيارات النَّصْرانيّة في الإِسْلام

تأليف

حَبيبُ زيّات

طبعة رابعة



دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-8137-1

التوزيع: المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢ (٠١)
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

كلمة الناشر

يحتلّ العلّامة حبيب الزيّات (١٨٧١-١٩٥٤) مكانةً رفيعة، بل رفيعة جدًّا، بين المؤرّخين العرب المعاصرين، إذ إنّ هذا الدمشقيّ المحتد والمولد، الذي عاش مدّةً من الزمن في الإسكندريّة وعمل فيها تاجرًا ناجحًا، انقطع أخيرًا، في مدينة نيس الفرنسيّة حيث استقرّ، إلى البحث والتأليف والتنقيب في المخطوطات. وركّز دراساته بنوع خاصّ على تاريخ الحضارة العربيّة وإسهام المسيحيّين فيها.

وقد عُرف الزيّات بسعة اطّلاعه ووفرة معلوماته ودقّة ملاحظاته وصرامة نقده، فلا يأتي بخبر إلّا ويشفعه بالمصادر الموثوق بها، وما أكثر ما كان عددها، فأضحت مؤلّفاته، التي نشر معظمها في مجلّتَيْ المسرّة والمشرق، مراجع لا بدّ لكلّ باحث من اللجوء إليها والغرف من معينها الثرّ. أضف إلى ذلك فصاحة لغته ونصاعة بيانه.

وممّا نشره هذا العالم المجتهد: **خزائن الكتب في دمشق وضواحيها** (١٩٠٢)، **وخبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا** (١٩٣٢)، **والروم الملكيّون في الإسلام** (١٩٥٣)، **والديارات النصرانيّة في الإسلام** (١٩٣٨). صدر الكتاب الأخير هذا أوّلًا في مجلّة المشرق، العام ١٩٣٨، ثمّ طُبع على حدة في السنة نفسها، وسرعان ما نفد من المكتبات. وقد أحببنا أن نعيد نشره اليوم لجزيل نفعه، ملحقينه بسلسلة مقالات صدرت في المشرق أيضًا، بين العامَيْن ١٩٤٨ و١٩٤٩ بعنوان «أديار دمشق وبرّها في الإسلام»، فيكمّل القسم الثاني الخاصّ هذا ما جاء سابقًا في القسم الأوّل الذي

عُني بشؤون الأديار عامّة وشجونها.

فالأمل وطيد أن يُبرز هذا المصنَّف الفريد، لأبناء جيلنا، مآثرَ الرهبان وأديارهم في عمليّة بناء صرح الحضارة العربيّة منذ غابر الأيّام. وجميعنا يعرف أنّ الرهبان تابعوا في العصور المتأخّرة إنجازات السلف، وكانوا في النهضة الأخيرة من روّاد الانبعاث. ولا شكّ في أنّهم سيظلّون على المسيرة نفسها سائرين، بالتقوى والعلم والانفتاح.

القسم الأوّل

وصف الأديار عامّةً
شؤونها وشجونها

مقدمة

من الغريب انه ليس في المصنفات التي وضعها كتّاب العرب ، وبلغتنا اسماؤها ، تاريخ لاحد النصارى في ذكر البيع والديارات ووصفها ، في الاسلام. وغاية ما انتهى الينا في الكلام على طائفة منها المجموع الــذي عُني بكتابته الشيخ المؤتمن سعدالله بن جرجس بن مسعود ، من اقباط القرن السادس للهجرة. وهو في مجلدين . طُبع احدهما منحولًا للشيخ ابي صالح الارمني ، مع ترجمته الى الانكليزية ، عن الاصل المحفوظ في خزانة باريس.[1] وبقي الآخر مخطوطاً مخبوءاً في حوزة احد كتبة القبط . ورثه من بعض انسبائه من رجال الكنيسة وهو شديد الضنّ به على العلم والعلماء. لا يطيب قلباً بنشره. ولكن الاديار المذكورة في هذين المجلدين هي برض من عِدّ مما كان قديماً منها في الديار الاسلامية . وحسبك ان مدينة الرها وحدها كان فيها وحولها ، فيما رواه الاصطخري ، « زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة. »[2] وابلغها ابن الفقيه الى « ثلاثمائة وستين ديراً. »[3] على بعض مبالغة دون شك في الروايتين. فما ظنك بما كان منها في سائر البلدان والجبال والقفار.

ومما فات الشيخ سعدالله التنبه له انه لم يتفق له مرّة ، ولو عرضاً ، ان

---

1) B. T. A. Evetts, *The Churches, monasteries of Egypt*. Oxford, 1895

٢) مسالك الممالك ، ص ٧٦

٣) كتاب البلدان ، ص ١٢٤

يصف كيفية بناء دير واحد من الاديار التي عدّدها ؛ او ان يشير الى شيء من خططها ورسومها ، وهندسة قلاليّها ومعابدها ومرافقها ؛ وما كان يحفّ بها ويُضاف اليها من البساتين ، والمعاصر ، والحانات ، ودور الضّيافة ، والمتنزّهات. واغفل ايضاً وصف كلّ ما كان واقفاً عليه في زمانه من احوال الرهبان ؛ وما كان شائعاً معروفاً من طرائق معيشتهم وسُنَنهم ومصطلحاتهم في اللباس والزيّ ؛ واساليب كل فئة منهم في الزهد والانقطاع ، والانفراد والاجتماع . شأنَ كل المؤرّخين في الشرق في قلّة التوسّع والاستيفاء ، وعدم الاكتراث والاحتفال بمثل هذه الشروح والاوصاف الخطيرة . فلا ندري اليوم كيف كانت حياة الاديار النصرانية بعد الهجرة. ولا نعلم من امرها سوى ما شاء فريق من كتبة الاسلام حكايته لنا من مجالس اللهو والقصف التي كانت تُعقد في ملحقاتها وحاناتها. وما كان يرتكب فيها من المنكرات حسبما نظمه في وصفها بعض الشعراء والخلعاء المتطرّحين فيها ، على رضى او كراهة من اهلها. وهذه الحكايات والاوصاف هي اليوم المصدر الاوحد والمرجع الفرد للباحث عندنا المتشوّف الى استطلاع شيء من انباء الرهبان والمتبتّلين ؛ ومعرفة ما آلت اليه خلواتهم ومتعبداتهم من الابتذال والانتهاك في عهد الخلفاء والملوك والولاة ، منذ القرن السابع للميلاد الى انقراض الخلافة العباسية في القرن السادس عشر.

وقد الّف غير واحد من الائمة وفحول الشعراء في هذه الديارات والحانات. وجمعوا الاشعار المقولة فيها. وما كان يحدث فيها ويجري بين جدرانها من شجون ومجون ، وزهد وعبادة. ووصفوا بعض مواقعها وخصائصها ؛ وما كان يرتفع منها من الخمور ، والاثمار ، والنباتات ، والتجارات ؛ ويحمل اليها من النذور ؛ ويُستشفى فيها من الادواء والعاهات. ونبّهوا على ما كان مشتهرًا خاصة بنزول الملوك والكبراء فيها ؛ وانقطاع بعض الشعراء والمجّان اليها. وقد بحثنا عنها طويلًا في تضاعيف الكتب المصنفة في الفهارس والتراجم والوفيات . ووقفنا منها على تعداد ما يأتي:

١ كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات لهشام بن محمد الكلبي(١) . وهو مفقود .

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٢٥٢

والأرجح انه هو نفس المصنّف المشار اليه في كتاب مسالك الابصار للشهاب العمري في الكلام على دير الاسكون (١ : ٣١١)

٢ كتاب الديارات لابي الفرج الاصبهاني ، صاحب كتاب الاغاني(١. نُكب الادب بخسارته. وبقيت نقول منه في معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكري، ومسالك الابصار للعمري ، وروايات شتى عنه في كتب الادب.

٣ كتاب الدِّيرة للسريّ الرفّاء الموصلي الشاعر، المتوفى في بغداد سنة ٣٦٢ للهجرة(٢ (٣/٩٧٢ م) . وقد ضاع بين سمع الارض وبصرها. ولا نعلم لاحد رواية عنه.

٤ كتاب الديارات لابي الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب ، المتوفى سنة ٣٨٨(٩٩٨م) ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والجزيرة والشام والديارات المصرية. وهو على اسلوب الديارات للخالديَّين وابي الفرج الاصبهاني(٣ . كان منه نسخة ثمينة مزوَّقة illustrée وقف عليها شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي في القرن العاشر للهجرة (٤. ولا يخفى ما فاتنا بفقدها من الفائدة الجلّى لامكان دلالة ما فيها من الصور والاشكال على رسوم الديارات وضروب ابنيتها. وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخرومة في خزانة برلين. سقط منها جانب من ديارات العراق ، وكل ديارات الشام، ما خلا دير البخت. وفي دار الكتب المصرية نسخة عنها خطية قليلة الضبط . واخرى مصورة في الخزانة التيمورية . وعنها صورة في خزانتنا. وفيها كل طريف ومستمع . وقد توسع كثيرًا في اخبار الشعراء والامراء الذين نظموا في الديارات واتصلوا بها. وذكر بعض من زارها من الخلفاء . وهو ذخر للمؤرخ وغنية لكل اديب ، وحقيق بالخدمة والطبع.

٥) كتاب الديارات للاخوين الشاعرين الخالديَّين(٥ ابي بكر وابي عثمان المتوفيَين في اواخر القرن الرابع للهجرة. وقد اتهمهما السريّ كثيرًا بالإغارة على اشعاره وبنات افكاره. فلعلّهما قلّداه ايضاً او زاحماه في هذا الباب. وفي ياقوت والعمري مآخذ عنهما.

٦ كتاب الديارات لابي الحسن علي بن محمد العدوي السُّمَيْساطي. قال محمد بن اسحق النديم: « وهو يحيا في عصرنا في سنة ٣٧٧ (٨/٩٨٧ م) له كتاب الديارات كبير.»(٦ وفي جزء من تاريخ بغداد لابن النجار « انه كان شاعرًا يمدح الملوك . اصله من الموصل . سكن

١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٤٢٦
٢) ارشاد الاريب لياقوت ٤ : ٣٢٧
٣) وفيات الاعيان ، ص ٤٢٦
٤) ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الحنفي ، رقم ١٤٢٢ من الخزانة التيمورية.
٥) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٢٥٢
٦) ارشاد الاريب ٥ : ٢٧٥-٢٧٦

بغداد ودخل واسط في سنة اربع وتسعين وثلثائة (٤/١٣٠٣ م) .» (١ وفي بغية الطالب في تاريخ حلب لابن العديم عدة مطالعات فيه وروايات عنه لم نجدها في غيره من كتب الديارات فلا شكّ انه كان اوسع اشتمالًا واغزر فوائد منها كلها . ولذلك وصفه صاحب الفهرست بالكبير. ولعل هذا التوسع ، مع قلّة اقبال النساخ على كتابة غير مصنفات الحديث واللغة ، كان سبب اهماله وندرة نُسخه . فعزّ طلّابها وصارت الى من لا يعرف لها قدرًا ولا قيمة وقُطعت اوراقها وبيعت على العطار والاسكافي ،

فهي إمّا مزاود للغا قير، واما بطائن للخفافِ

٧ كتاب الدِّيرة لمحمد بن الحسن بن رمضان النحوي (٢ . ويظهر انه هو الذي اشار اليه ياقوت في استدراكه عليه ما ذكره عن دير الرصافة.

٨ اوصاف الاديار في معجم البلدان لياقوت الرومي (٢ : ٦٣٩-٧١٠ من طبعة ليبسيك) نقل مرارًا كثيرًا منها بالحرف الواحد عن تقدمه من مؤلفي الديارات. وسمّى منهم ابا الفرج الاصبهاني والخالديَّين. وفيها ، على ما يشوبها من اغلاط النسخ والطبع ، غناء وعزاء عما تلف او فات مما كان باقيًا في زمانه ولم يتهِ الينا من كتب الديارات.

٩ نعوت ثمانية وثلاثين ديرًا من الاديار اوردها البكري ببعض اختصار في كتابه معجم ما استعجم طبعة وستنفلد سنة ١٨٧٧ (١ : ٣٥٩-٣٨١) ولم يأتِ فيها بغريب . ولم يسمِّ ممن نقل عنه غير ابي الفرج الاصبهاني من مؤلفي كتب الديارات.

١٠ باب الديارات في كتاب مسالك الابصار وممالك الامصار لشهاب الدين العمري في المجلد الاول منه المطبوع بمصر سنة ١٩٢٤ (ص ٢٥٤-٣٨٦) وفي طبع المتن بعض اوهام وتحريفات استدركناها في مقالة لنا طويلة نشرتها مجلة لغة العرب في بغداد (٦ [١٩٢٨] ٣٢٣-٣٤٣) وقد نقل المؤلف كثيرًا عن ابي الفرج الاصبهاني ، والخالدي ، والسُّمَيْساطي ، وربما نقل عن الخالدي الصفحة والصفحتين والثلاث. وفيه زيادات على ياقوت تبلغ نيفًا وعشرين ديرًا.

١١ مجموع في خزانة بريتيش موزيوم في لوندرة رقم Add. 19408 بعنوان « الدرّ الملتقط من كل بحر وسفط » لمحمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي. أنجزه في شهور سنة ثلاث وخمسين وسبع مائة (١٣٥٢ م) وقال في مقدمته : « بوَّبته سبعة ابواب من ثلثين بابًا ، واودعته حكمًا وادابًا » ولكن لم نجد فيه الا بعض الابواب فقط. ومنها قسم ناقص. وفيه تقديم وتأخير. وفي اسماء الابواب بعض التشويش والاختلاط منها الباب السابع والعشرون ذكر عنوانه « البدور المسفرة في نعت الكنائس والاديرة » وليس به . ولكن في الصفحات ١١٧-١٢٤ اوصاف لتسعة عشر من الاديار. اولها دير الروم وآخرها دير مرَّان بظاهر دمشق، تلقّطها جامعها من كتب شتى. وفي سياقتها نقص واقتضاب. ويظهر انه لم يستمدها من الخالديَّين

١) جزء من تاريخ بغداد لابن النجار ، رقم ٢١٣١ خزانة باريس ، ص ٣٤

٢) ارشاد الاريب ٦ : ٤٩٥

ولا من الشابشتي . ولا يبعد ان تكون طائفة منها مأخوذة من ديارات ابي الفرج الاصبهاني . فهي ، على كل حال ، تصلح للنشر . واقتصر ، في كلامه على دير مرّان ، على تكرار ما جاء عنه في كتاب بدائع البدائه لابن ظافر من حكاية الشاعر الببغاء التي تقدمت للثعالبي في يتيمته . وفي مقابلة هذه الفصول على ما جاء في معجم ياقوت فضل وزيادة في البيان والتعريف . وهذه اسماء الاديرة الموصوفة فيها :

دير الروم (ص١١٧–١١٩) نقل فيه حكاية مدرك بن علي الشيباني ومزدوجته في عمرو بن يوحنا النسطوري .
دير الزندورد . والثعالب (ص ١١٩)
دير سمالو . والثعالب (مكرر) . دير الجاثليق (ص ١٢٠)
دير اشمونى (ص ١٢٠–١٢١)
دير جرجس (ص ١٢١)
دير العذارى (ص ١٢١–١٢٢)
دير مرمار (مار ماري) ص ١٢٢
دير هند (ص ١٢٣)
دير يونس . وقوطا . والشياطين (ص ١٢٤)
دير الزعفران (ص ١٢٥)
دير القُصير (ص ١٢٥–١٢٦)
دير البركة ويعرف بدير المافر(ص ١٢٦)
دير باب الفراديس بدمشق . زاره المتوكل على الله الخليفة العباسي (ص ١٢٦–١٢٧)
قصيدة في دير الزعفران السابق الذكر (ص ١٢٨–١٢٩)
خبر عن دير زكّى ظاهر الرقة (ص ١٢٩)
دير مرّان (ص ١٢٩–١٣٤)

١٢ « ذكر ديارات النصارى » في كتاب الخطط للمقريزي . اقتصر فيه على تعداد اديرة الديار المصرية ، وتعريف منشئيها واحوالها . ونقل عن الشابشتي وياقوت الرومي اخبار ما كان مقصودًا منها في الاسلام للقصف واللهو . ولم يأتِ فيها بمزيد يجدر بالتنويه .

وقد تفرغنا لمطالعة كل ما وقع الينا من هذه المؤلفات والاوراق وراجعنا ما تهيّأ معها من كتب الادب ودواوين الشعرآء . وقيّدنا منها كل ما استشفّ لنا من خلال الفاظه وابياته بعض التصريح او التلويح الى شيء من اوصاف الاديار والتعريف باحوال المقيمين فيها . وقارنّا بين كل منها ، ونبهنا على اصولها بغاية الضبط . وربما اضطررنا مكرهين الى الاستشهاد احيانًا ببعض الابيات والاقوال على ما فيها من الرفث والسقط ، بعد ان استبدلنا بما انقاد لنا من الفاظها

المنكرة وهذبنا ما استطعنا من حوشتها. ولا حاجة الى القول اننا كنا نودّ تجنب رواية مثلها لو خُيّرنا فيها . ولكن الحقيقة ضالّة المؤرخ ينشدها في كل واد. ويقدح في البحث عنها وارتيادها بكل زناد . وغاية هذا الكتاب تصوير حالة الديارات في الاسلام كما كانت حقاً بما فيها من حسن او قبح. فلا بد ان يكون كالمرآة تصف كل وجه بمثاله. ورائد الحق ، كما قيل ، لا يكذب اهله.

وقد اقتصرنا في كل ما تناولناه من المباحث والفصول على شرح ما تمثل لنا من دلائل الآثار الاسلامية وحدها كما نبهنا عليه في العنوان . ولذلك لا يجد الناظر في هذه الصفحات الّا جانباً فقط من تاريخ المعاهد النصرانية بعد الهجرة الى سقوط دولة المماليك في القرن السادس عشر ، كما تمثلت لنا في الاصول التي درسناها . وقد استعنّا بانوار هذه الآثار الضئيلة لإضاءة بعض الظلمات المكتنفة ماضي الديارات في الاسلام ، على غير اهتداء بمثال سابق ، او احتذاء لاحد ممن تقدمنا من الكتبة والمؤرخين. ونرجو ان نكون ، في كل ما حاولنا جلاءه من غوامض العاديات المسيحية في العراق ومصر والشام ، قد رُزقنا فيه حظ المقاربة في الحكم. وكُفينا بعون الله وتوفيقه شطط الخطإ والوهم.

الدير والعُمْر

اكثر ما كانت تكون الاديار في ضواحي المدن بين الرياض والحدائق. وفي قمم الجبال والروابي المطلّة على الاودية والسهول الفسيحة . وفي المواضع المنقطعة عن الناس. ولذلك قال ياقوت في تعريفها: «الدير بيت يتعبد فيه الرهبان. ولا يكاد يكون في المصر الاعظم. انما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال. فان كان في المصر كان كنيسة او بيعة.»[1] ولا يخفى ما في هذا الاستدراك الاخير من الخطإ والقصور. واصوب منه قول المقريزي «الدير عند النصارى يختصّ بالنسّاك المقيمين به. والكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة.»[2]

وفي الشعر اشارات الى الاديار القديمة القائمة فوق الهضاب والقلل، وفي سفوح الاطواد وذرى المستشرفات. ولربيعة بن مقروم الضبيّ في وصف احدى الحسان:

لو انها عرضت لاشمط راهب، في رأس مشرفة الذرى متبتّلِ؛
جآر ساعات النيام لربّه حتى تخدّد لحمه، متشمّلِ،
لَصبا لبهجتها وحسن حديثها، ولهمّ من ناقوسه بتنزّلِ.[3]

ومن الديارات التي اشتهرت بعلوها وارتفاعها وسمّيت لذلك به دير بالموصل في اعلى جبل مطلّ على دجلة . كان يُضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المُستشرَف. وقيل له لهذا السبب الدير الاعلى.» وله درجة منقورة في الجبل تفضي الى دجلة نحو المائة مرقاة . وعليها يستقى الماء من دجلة.»[4]

واحسن وصف حُفظ لهذه الاديار المناطحة السحاب قول الشهاب العمري الدمشقي في دير السيق، قبلي البيت المقدس :

ارى حسن دير السيق يزداد، كلما نظرت اليه والفضاء به نضرُ،
بنوه على نجد على النور مشرف، كتخت مليك تحته بُسُط خضرُ،
واشرق في سُود الغمام، كأنما تشقّق ليلًا عن جلابيبه الفجرُ،

---

١) معجم البلدان، طبعة اوربة، ٢: ٦٣٩
٢) الخطط، مطبعة النيل، ٣: ٤٠٩
٣) الاغاني، مطبعة بولاق، ١٩: ٩٣
٤) مسالك الأبصار للعمري ١: ٢٤٠–٢٤١

وقام على طود عليّ ، كأنما مصابيحه،تحت الدجى،الانجم الزهر .
وزُفّت اليه الشمس من جنب خدرها ، وناغاه جنح الليل في أُفقهِ البدر ؛
وألقت اليه الريح فضل عنانها ، واحنى عليها لا تُبلّ له عذر .
ولو كان كالنسرَين ، هان ارتقاؤه ؛ ولكنه قد حُطّ من دونه النسر ،
علا ضر ريحا ، والمجرّة فوقه ، فمن فوقه ضر ومن تحته ضر .[1]

ومن اغرب ما جاء في تفسيرِ كلمة الدير قول ابن سيده في المحكم « الدير خان النصارى .»[2] وقد فاته انه كان ايضاً للمسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين :

كالخان تنزله وترحل غادياً ويحلّ بعدك فيه من لا تعلم

ويقال للراهب الساكن في الدير المنتسب اليه « ديّار وديراني .»[3] وللراهبة ديريّة وديرانية . قال احد بني تغلب في خبر دير العذارى فيما زعموا « خَلَونا بعشرين ديرية .»[4] وقال اسحق الموصلي :« دخلت دير القائم اطوف فيه . فرأيت ديرانية حين نهد ثدياها . عليها المسوح . ما رأيت احسن من وجهها وجسمها .»[5] وللعمري في الدير الابيض بمصر :

وبالدير ديرانية برزت لنا فتمّ لنا فيها حديث واسمار[6]

ومن جموع الدير التي لم ترد في معاجم اللغة الديَرة . ومنه كتاب الديَرة للسريّ الرفاء . ومثله لمحمد بن رمضان النحوي . وقد استجاز حسام الدين الحاجري جمعه على ديور في قوله :

واستَجلِها عذراء مشمولة ، أُم الرهابين وبنت الديور[7]

ويسمّى الدير ايضاً العُمْر وجمعه اعمار . قال الحسن بن هانئ ، وقيل انه للحسين بن الضحاك :

---

١) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٤٠-٢٤١
٢) لسان العرب ٥ : ٣٦٧
٣) اساس البلاغة ١ : ٢٩١
٤) مسالك الابصار ١ : ٢٦٠
٥) مسالك الابصار ١ : ٢٦٩
٦) مسالك الابصار ١ : ٢٨٣
٧) حديقة الافراح لإزالة الاتراح للشرواني ، ص ١٤٩

آذنك الناقوس بالفجرِ وغرّد الراهب بالعُمْرِ (١

وللخالدي في دير مار ميخايل باعلى الموصل:

يا صاحبيَّ ، هو العمر الذي جُمعت فيه المُنى فاغدوًا بالدير او روحا (٢

وقد اشتهر بهذه التسمية خصوصاً عمر كسكر او واسط . وعمر الزعفران بنصيبين . وعمر احويشا باسعرد من ديار بكر . وعمر مار يونان بالانبار . وعمر الزرنوق على فرسخين من جزيرة ابن عمر . والى جانبه دير آخر يعرف بالعمر الصغير . وعمر نصر بسامرا . وفيه يقول الحسين بن الضحاك :

يا عمر نصر ، لقد هيجت ساكنةً هاجت بلابل صبٍّ بعد إقصار (٣

ويقال لصاحبه عمَّار . وفي ديوان ابي نواس :

اذا الندامى ارادوا ، ما باعهم خمَّار
حمرآء فيها اصفرار ، وعندهم عمَّار (٤

وفي تاج العروس : « العُمر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة . سميت باسم المصدر لانه يُعمر فيها اي يعبد . »(٥ وقد بحثنا كثيرًا فلم نعثر على شاهد واحد يثبت استعمال العُمْر بمعنى المسجد . ولا ندري ما الفرق في هذا التحديد بين البيعة والكنيسة ، إلا اذا اراد ان يعني بالكنيسة معبد اليهود . وعلى ذلك يكون ، على رأيه ، معنى العمر بيت العبادة بالاطلاق لاهل الكتاب على السواء . وليس في اقوال الكتاب والشعرآء قديماً وحديثاً ما يؤيده . قال ياقوت في تفسير العُمْر :

« ذكر ابو حنيفة الدينوري في كتاب النبات ان العمر الذي للنصارى انما سمّي بذلك لان العمر في لغة العرب نوع من النخل . وهو المعروف بالسكر خاصة . وكان النصارى بالعراق يبنون ديرتهم عنده فسمّي الدير به . وهذا قول لا ارتضيه . لان العمر قد يكون في مواضع لا نخل بها البتة كنحو نصيبين والجزيرة وغيرهما . والذي عندي فيه انه من قولهم عمرت ربي اي عبدته . وفلان عامر لربه اي عابد وتركت فلاناً يعمر ربه اي يعبده . فيجوز ان يكون

١) كتاب الديارات للشابشتي ، ص ١١٣-١١٢

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٣

٣) معجم البلدان ٣ : ٧٣٥

٤) ديوانه ، رواية الاصبهاني . باريس رقم ٤٨٣٠ ، ص ٤٢٥

٥) تاج العروس ٣ : ٤٢٠

الموضع الذي يُتعبَّد فيه يسمى العمر . ويجوز ان يكون مأخوذًا من الاعتمار والعمرة وهي الزيارة. وان يراد انه الموضع الذي يُزار. ويقال: جاءنا فلان معتمرًا اي زائرًا. ومنه قوله: ورا كبٌ جاءَ من تثليث معتمر[1]. ويقال: عمرت ربي وحججته اي خدمته. فيجوز ان يكون العمر الموضع الذي يخدم فيه الرب.»[2]

وفي مراصد الاطلاع ان الدير يسمى عمرًا اذا كان مجاورًا للاماكن المعمورة وهو قوله : «ما كان من مواضع المتعبدات التي فيها مساكن الرهبان بقرب العمران فانه يسمى العُمر.»[3]

وفي هذه الاقوال كلها ما لا يخفى من التمحّل والتحكم كدأب اكثر ارباب اللغة والمفسرين في انكار اعجمية كل ما يمرّ بهم من الالفاظ الدخيلة . واحتيالهم لاستنباط اصل لها عربي ، ولو بطريق التكلف والتمحّل والشعوذة . والصحيح ان الكلمة من اصل ارامي ܥܘܡܪܐ بمعنى البيت والمنزل.

---

١) هذا عجز بيت لاعشى باهلة ، صدره :
فجاشت النفس لما جاءَ جمعهمُ

٢) معجم البلدان ٣ : ٧٢٤

٣) مراصد الاطلاع ١ : ٤٢١

تخطيط الاديار

وتقدير ابنيتها وزينتها

لم يتفق لاحد من الكتبة والمؤرخين الإلماع الى شيء من اوصاف ابنية الديارات ، وتقدير مساكنها وملحقاتها. فلا نعرف منها سوى انها كانت تشتمل فيما عدا الكنيسة والهياكل ، على القلاليّ ، وبيوت المائدة ، والمخادع للمستودعات ، ودور الضيافة وما يلحق بها ويضاف اليها من الصهاريج ، والحدائق ، والبساتين ، والحانات. ولا شكّ ان رسومها وخططها كانت تختلف باختلاف الامصار والسكان. وربما اقتعدت احياناً غارب الجبال ، ونُقرت في الصخر الاصمّ. واعجب ما عرف منها دير متى شرقي الموصل « واكثر بيوته منقورة في الصخر. وفيه نحو مائة راهب لا يأكلون الطعام الا جميعاً في بيت الشتاء او بيت الصيف. وهما منقوران في صخرة . كل بيت منهما يسع جميع الرهبان . وفي كل بيت عشرون مائدة منقورة في الصخر. وفي ظهر كل واحدة منهنّ قبالة[1] برفوف وباب يغلق عليها . وفي كل قبالة آلة المائدة التي تقابلها من غضارة وطوفرية وسُكُرّجة.[2] لا تختلط آلة هذه بآلة هذه. ولرأس ديرهم مائدة لطيفة على دكان لطيف في صدر البيت يجلس عليها وحده . وجميعها حجر ملصق بالارض . وهذا عجيب ان يكون بيت واحد يسع مائة رجل . وهو وموائده حجر واحد.»[3] وكان لهذا الدير « عدة ابواب مفرطة في الكبر. وكلها من حديد مُصمَت. وبه صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر . عمقه اثنا عشر ذراعاً . لكل شهر ذراع من

١) لم ترد هذه اللفظة في معاجم اللغة ولا في تكملة دوزي . ويُراد بها هنا بيت صغير كالخزانة يكون في جُدُر المنازل. وهو المعروف اليوم عند العامة بالخرستان. وفي كتاب آثار البلاد للقزويني في كلامه على دير متى لفظة « بويت» (كذا) تصغير بيت. في موضع «قبالة».

٢) الطوفرية نوع من الصحاف . ويقال احياناً طيفورية كأنها نسبة الى طيفور ، لعلّه اول من اقترح صنعها . والسكرّجة لفظة فارسية ، ومعناها مقرِّب الخل vinaigrier (شفاء الغليل للخفاجي ، ص ١١٩)

٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٤

الماء ويفتح هذا الصهريج من موضعين في اعلاه واسفله. فيخرج ماؤه من اسدين من صُفر.»[١]

ومن الاديار التي عُلِقت في الجبال بمصر دير مغارة شقلقيل، تجاه منفلوط. «وهو نقر في الحجر على صخرة تحتها عقبة. لا يتوصل اليه من اعلاه ولا من اسفله. ولا سُلّم له. وانما جعلت له نقور في الجبل. فاذا اراد احد ان يصعد اليه. أُرخيت له سَلَبة فامسكها بيده. وجعل رجليه في تلك النقور وصعد. ودير الطير قبالة سملوط وله سلالم منحوتة في الجبل.»[٢] ودير السبعة الجبال باخميم، وهو دير عال بين جبال شاخة. ولا تشرق عليه الشمس الا بعد ساعتين من الشروق لعلوّ الجبل الذي هو في لحفهِ. واذا بقي للغروب نحو ساعتين خُيّل لمن فيه ان الشمس قد غابت واقبل الليل فيشعلون حينئذٍ الضوء فيه. ومن داخل هذا الدير دير القرقس وهو في اعلى جبل قد نقر فيه. ولا يعلم له طريق بل يصعد اليه في نقور في الجبل. ولا يتوصل اليه الا كذلك.[٣]

وكثيرًا ما كانت الاديار تُحصَّن بالاسوار الشاهقة وابواب الحديد، خوفًا من اللصوص والدُعّار، كدير الاسكون بالحيرة.[٤] وعمر مار يونان بالانبار.[٥] وربما ارتفعت جدرانها مئة ذراع، فيما قيل، كدير باعربا بين الموصل والحديثة على شاطئ دجلة[٦]. ودونها السور المحيط بدير الزعفران في لحف جبل نصيبين. وقلّ ان تتخذ ابوابها من الحجر الصلب كدير طورسينا. كان له ثلاثة ابواب حديد. وفي غربيّه باب لطيف. وقدامه حجر اذا ارادوا رفعه رفعوه. واذا قصدهم قاصد ارسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب[٧]. وكدير باطا بالسنّ بين الموصل وتكريت وهيت. زعموا ان بابه الحجري كان يفتحه الواحد والاثنان.

١) مسالك الابصار ١: ٢٩٩
٢) خطط المقريزي، مطبعة النيل، ٤: ٤١٣
٣) خطط المقريزي، مطبعة النيل، ٤: ٤١٢
٤) معجم البلدان ٢: ٦٤٣
٥) مسالك الابصار ١: ٢٨٦-٢٨٧
٦) معجم البلدان ٢: ٦٤٥
٧) معجم البلدان ٢: ٦٧٦

فان تجاوزوا السبعة لم يقدروا على فتحه البتة[١] (كذا)

على ان كل هذه الابواب الحديدية والحجرية وكل هذه الاسوار الشاهقة المتوقلة في الجبال لم تكن تحمي الرهبان ، على كثرتهم احياناً ، من عوادي اللصوص وفتكات الاعراب والاكراد واشباههم من قطّاع الطريق . وليس هنا محلّ تعدادها . ويكفي شاهدًا واحدًا عليها ما رواه صاحب مرآة الزمان في حوادث سنة ٤٤٩ (١٠٥٧ م) قال :

« فيها صعد عشرون رجلًا من الغز الى دير النصارى في ميافارقين . فيه اربعمائة راهب . فذبحوا منهم مائة وعشرين واشترى الباقون نفوسهم بست مكاكي ذهب وفضة . »[٢]

وكانت القباب بشكلها البيزنطي تعلو بعض الاديار وتستوقف طرف الناظر اليها . ولا سيما اذا كان البناء زاهياً مشرقاً بلون الحمرة كقباب دير يوسف بالموصل . وقد تشوّق اليها السري الرفآء مرتين في شعره . فقال في احد اسفاره :

يا دير يوسف ، لا عدتك تحية ... للمزن بين رواعد وبوارق ،
غرآء ضاحكة اليها ثغورها ، ... ضحكَ الحبيب الى المحب الوامق .
سقياً لتلك منازلًا معمورة ... من كل مطروق الفناء ، وطارق !
حمر القواعد والقباب ، كأنما ... أُشربن رقراق الخلوق الرائق . (٣

وله ايضاً من قصيدة قالها ، وهو بحلب ، يتشوّق بها للموصل ودير يوسف :

اعلّ صبوتنا دعآء مشوق ... يرتاح منك الى الهوى الموموق ،
هل اطرقنّ العمر بين عصابة ... سلكوا الى اللذات كل طريق ؟
ام هل ارى القصر المنيف معمّماً ... بردآء غيم كالردآء رقيق ،
وقلاليَ الدير التي ، لولا النوى ، ... لم أرمها بقلًى ولا بعقوق ،
محمرّة الجدران ينفح طيبها ... فكأنما مبنيّة بخلوق ! (٤

واكثر ما ذكرت هذه القباب في الحيرة والعراق . وهي من الابنية القديمة . عُرفت منها في الحيرة قبة الشُنَيق . وقبة غُصَين الى جانب دير الحريق في الحيرة .

---

١) معجم البلدان ٢ : ٦٤٦

٢) مرآة الزمان . خزانة بريتيش موزيوم Or. 4619, f° 241ª

٣) ديوانه . خزانة باريس ٣٠٩٨ ، ص ١٤٧

٤) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ، ١ : ٤٨٨

زعم العمري انهما راهبان نُسبتا اليهما . قال وهما بديعتا البناء[١]. وبازائهما قباب اخرى يقال لها الشكورة (او السكورة) ذكرها احد الشعراء فقال يصف خروج نساء النصارى منها الى قبة السنّيق:

والنصارى مشدّدين الزنانـــير عليهنَّ كل حلي وثيق
يتمشَّين من قباب الشا نين الى صحن قبة السنّيق[٢].

ولبعض الديارات سمعة طائرة بنفاسة البناء ، واحكام الصنعة ، وبلوغ النهاية في الزينة والبهاء. منها دير الرصافة رصافة هشام. قال ياقوت: « رأيته وهو من عجائب الدنيا حسناً وعمارة »[٣] وكانت هياكلها وقلاليّها وارضها مؤزّرة مفروشة بانواع المرمر وضروب الرخام المجزّع. مزوّقة الجدران والسقوف باشكال النقوش والفصوص المذهبة . ومن الغريب انه لم يتفق لاحد الشعراء او مؤلّفي الديارات وصف شيء من افانين الفسيفساء على كثرتها وشيوعها في الشام ومصر والعراق. قال ياقوت: « وكان اهل ثلاث بيوتات يتبارون في البيع وزينتها . اهل المنذر بالحيرة. وغسان بالشام. وبنو الحارث بن كعب بنجران. وبنوا دياراتهم في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران . ويجعلون في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور. »[٤]

ومنها دير نجران « بناه بنو عبد المدان بن الديّان . بنوه مربعاً مستوي الاضلاع والاقطار . مرتفعاً عن الارض. يصعد اليه بدرجة على مثال بناء الكعبة. فكانوا يحجّونه هم وطوائف من العرب. ولذلك سماه الاعشى كعبة نجران بقوله يخاطب ناقته ، مشيرًا الى بني عبد المدان:

وكعبة نجران حتمٌ عليـــك حتى تناخي بابوابها[٤]

وليس لدينا اقلّ اشارة الى ما كان في كنائس الاديار من المصاحف الثمينة وطرائف الآنية والزينة . وغاية ما روي في هذا الباب ان الدير الاعلى فوق الموصل لم يكن للنصارى دير مثله « لما فيه من اناجيلهم ومتعبداتهم . »[٥] ولكن

١) مسالك الابصار ١ : ٣١٥
٢) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٠٥–١٠٦
٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٠–٦٦١
٤) معجم البلدان ٢ : ٧٠٣
٥) معجم البلدان ٢ : ٦٤٤

اذا تذكرنا ان معظم هـذه الديارات كان مبنياً قبـل الاسلام في عهد الرومانيين والبيزنطيين ، تيسّر لنا تصوّر ما كان مجتمعاً فيها مصوناً في خزائنها من الذخائر والاعلاق النفيسة ، ومصوغات الذهب والفضة. ولا سيما ان طائفة منها كانت من بناء القياصرة والملوك . وقد رووا عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة انه ، لما بنى دير هند الصغرى ، « كان يصلّي به ويتقرّب فيه . وانه علّق في هيكله خمس مئة قنديل من ذهب وفضة. وكانت ادهانها في اعياده من زنبق وبان وما شاكلهما من الادهان. ويوقد فيه من العود الهندي والعنبر شيء يجلّ عن الوصف».[1] وكانت بيعة ابا هور في دير سرياقوس بمصر «مُثرية بفضة قناديلها وذهب صلبانها.»[2] ولها نظائر كثيرة في جميع ديارات الشام ومصر والعراق لا سبيل الى تعدادها.

وقد ولع الشعراء منذ الجاهلية بذكر الدُمى والصور في البيع والاديار وتشبيه الحسان بها . وهي كانت اماً محفورة منقوشة بانواع الاصبغة والادهان . واما مرسومة بازهى الالوان. ذكروا ان دير باعنتل من جوسية من اعمال حمص كان فيه عجائب « منها آزج ابواب فيها صور الانبياء محفورة منقوشة فيها. وهيكل مفروش بالمرمر لا تستقر عليه القدم. وصورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينك اليها.»[3] واشتهرت ايضاً في دير القُصَير في ذروة جبل شهران في ضاحية مصر « صورة مريم في حجرها المسيح في غاية اتقان الصنعة . وكان خمارويه بن احمد بن طولون يكثر غشيانه وتعجبه تلك الصورة ويشرب عليها.»[4] وقد وصفها محمد بن عاصم بقوله:

صورة من مصوّر فيه نالت   فتنة للقلوب والابصار ،
اطربتنا بغير شدو ، فاغنت   عن سماع العيدان والمزمار ،
بفتر الجسم ، حين ترميه حسناً   بفنون من طرفها السحّار ،
واشاراتها الى من رآها   بخضوع وذلّة وانكسار.
لا وحسن العينين ، والشفة اللميـاء منها ، وخدها الجلناري ،

١) مسالك الابصار ، ص ٣٢٢   ٢) مسالك الابصار ، ص ٣٦٠
٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨٥
٤) الديارات للشابشتي ١٢٦

لا تخلفتُ عن مزاري لدير هي فيه ، ولو نأى بي مزاري(١

ولعل صورة دير مار سرجس كانت ايضاً تمثل العذرآء. « حكى عبدالله الربيعي قال: دخلت انا وابو النصر البصري مولى بني جمح بيعة مار سرجس وقد ركبنا مع المعتصم نتصيّد. فوقفت انظر الى جارية كنت اهواها. وجعل هو ينظر الى صورة في البيعة استحسنها حتى طال ذلك. ثم قال ابو النصر:

فتنتنا صورة في بيعةٍ فتن الله الذي صوَّرها !
زادها الناقش في تحسينها فضل حسن انه نضّرها ؛
وجهها ، لا شك عندي ، فتنة وكذا هي عند من ابصرها ،
انا للقس عليها حاسد ؛ ليت غيري عبثاً كسَّرها ! (٢

وفي هذا التمني الاخير ، بعد الاعجاب الاول ، موضع استغراب واعتبار .

ومن نفائس الصور التي اشتهرت بقدمها وصبرها على عوادي الزمن ، وجمالها واتقانها ، وزهاء الوانها ، صورة دير الباعوث على شاطىء الفرات. كانت في هيكله « دقيقة الصنعة عجيبة الحسن. يقال ان لها مئين من السنين لم تتغير اصباغها ولا حالت الوانها. »[٣]

وذكروا ان بدير ابا يوسف ، فوق الموصل ، عجائب من بدائع التصوير[٤]. وروى الخالدي انه كان في هيكل دير مرَّان بدمشق صورة عجيبة دقيقة المعاني[٥]. ونقل ياقوت مثل ذلك في دير مار ماعوث على شاطىء الفرات وقال: في صدره صورة حسنة عجيبة[٦]. ولما زار العمري دير المصلّبة بظاهر القدس ، رأى فيها صوراً يونانية في غاية من محاسن التصوير[٧].

وبالاجمال لم يكن دير من الاديار يخلو من امثال هذه الصور اليونانية البيزنطية « فتنة للقلوب والابصار » كما تقدم من وصف محمد بن عاصم لها. ولا يخفى ما اصاب تاريخ الفنون الشرقية بضياعها ، وفقدها ، واحراقها في الفتن والمظالم ، من الخسارة الشديدة التي يُناح عليها ويُبكى.

١) الديارات للشابشتي ، ١٢٦
٢) مسالك الابصار ، ٢٧٤
٣) مسالك الابصار ، ٢٦٣
٤) مسالك الابصار ، ٣٠٢
٥) معجم البلدان ٢ : ٦٩٩
٦) معجم البلدان ٢ : ٧٠٠
٧) مسالك الابصار ، ٣٣٩

القلاليّ والأُكَيْراح

في تاج العروس ان القلّية بالكسر وشدّ اللام شبه الصومعة . ومنه كتاب عمر (رضه) لنصارى الشام لما صالحهم ان لا يحدثوا كنيسة ولا قلّية. وهي القلّاية عند النصارى معرّب كلّاذة (كذا)[١]. والصواب انها مأخوذة من اللفظة اليونانية κέλλιον

وتجمع القلّية على قلاليّ بالتشديد مثل علّية وعلاليّ. وقد تخفّف الياء. ومنه قول العمري في كلامه على دير الكلب « وقلاليه مبنيّة بعضها فوق بعض. »[٢] ونظيره بيت ابي بكر الخالدي:

منادماً في قلاليه رهابنةً راحت خلائقهم اصفى من الراح[٣]

وللسريّ الرفّاء في دير سعيد ، بالجانب الغربي من الموصل ، ابيات قال فيها:

ام هل ارى القصر المنيف معمّماً بـرداء غيم كالرداء رقيق
وقلاليّ الدير الذي ، لولا النوى ، لم أرعها بقلًى ولا بعقوق[٤]

وربما تُجوِّز بحذف الياء والاستعاضة عنها بالتنوين. ومنه قول صاحب مسالك الابصار في دير سعيد « حوله قلالٍ كثيرة. »[٥] ولاحد الشعراء في دير ابّون:

سقى الله ذاك الدير غيثاً لاهله وما قد حواه من قلالٍ ورهبان[٦]

وقد غلب في الاستعمال لفظ قلّاية على ضعفه . وورد كثيراً في الشابشتي والعمري وسائر كتب الديارات. واشتهر في الحيرة بناء كالدير عُرِف بقلاية القس وفيها يقول الثرواني:

خليليّ من تيم وعجل ، هديتما ! أضيفا بحثّ الكاس يومي الى امسي
وان انتما حيّيتماني بتحيّة ، فلا تعدُوا ريحان قلّاية القسّ[٧]

---

١) تاج العروس ٨ : ٨٦
٢) مسالك الابصار ، ٢٥٤
٣) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ، ١ : ٥١٢
٤) مسالك الابصار ، ٢٩٣
٥) مسالك الابصار ، ٢٨٩
٦) معجم البلدان ٢ : ٦٤٠
٧) معجم البلدان ٤ : ١٥٦

وفي ضبط لفظ القلاية خلاف بين الشعراء. فرواها التعاويذي بكسر القاف وتخفيف اللام في بيت له في صفة الخمر قال فيه:

من عَتاد الرهبان لم يخلُ عصـــر الدهر منها قِلاية الجاثليق(١

وحكى البكري فتح القاف وتخفيف اللام وتشديدها ايضاً في البيت المعروف:

قلاية القسّ، مالي عنك مصطبرُ ومن الى من لحاه فيك يعتذر(٢

وروى الخفاجي انه في زمانه (القرن الحادي عشر للهجرة والسابع عشر للمسيح) كان يقال للقلّية قلة غلطاً. قال: «ومعابد النصارى ومساكن الرهبان منها كنائس وهي ما يعدّونه للعبادة. وهي معروفة الآن. ومنها دير وقلية وصومعة. فما كان خارج البلدان والقرى ان كان فيه حجرات ومرافق فهو دير. واما القلاية وجمعها قلايا فهي بناء مرتفع كالمنارة تكون لراهب ينفرد فيها. وقد لا يكون لها باب ظاهر. والصومعة دونها وهي معروفة. كذا في كتاب الكنائس.»[٣]

وقد فاته ان ينبه على مؤلف هذا الكتاب. ولم نجد له ذكرًا في كشف الظنون. فلا ندري من اي عصر شهادته. ولا شك ان القلالي كانت تكون ايضاً داخل الديارات تطلق على الحجرات فيها وغرف الرهبان، كما تعرف بها اليوم. وقد تقدّم من كلام ياقوت الرومي ان الاديار كانت اكثر ما ترى في ظواهر البلاد. ولكن لدينا شواهد كثيرة على وجود جانب منها غير قليل في داخل المدن. وفيها القلالي كما في الزمن الحاضر.

وكانت القلالي التي في الضواحي تُقــام قديماً في جوار الاديار. ولكل راهب من المنتسبين اليها قلّية خاصة يفصلها عن الدير وعما جاورها بستان فيه اصناف الاشجار والثمار والبقول والرياحين. يهتمّ الراهب بزراعتها والقيام عليها، ويرتزق ببيع غلّتها. واشتهر بهذا الوضع دير قُنّى قريباً من بغداد. كان فيه مئة قلية لرهبانه والمتبتلين فيه. وعمر كسكر اسفل من واسط. كان حوله قلّيات

١) ديوانه، ص ٣٠٨

٢) معجم ما استعجم للبكري، ٣٦٩

٣) شفاء الغليل، ١٨٩–١٩٠

كبيرة قد انفرد كل راهب بواحدة منها. ويحيط بالموضع بساتين كثيرة[١]. وكان الرهبان يتبايعون هذه القلالي بينهم من الف دينار الى مائتي دينار الى خمسين دينارًا[٢] . ولا ريب ان الاثمان كانت تختلف باختلاف المواقع ، واتقان البناء ، واتساع البساتين ، وارتفاع الغلال. واهمها غلة النخل والزيتون والكرم. وكانت هذه الغلّة وقتئذٍ تباع من مائتي دينار الى خمسين دينارًا.[٣]

ومن الديارات التي عُرفت بكثرة قلاليها دير الزعفران بنصيبين[٤] . ودير سعيد بجانب الموصل[٥]. ودير مر يحنا الى جانب تكريت على دجلة[٦] وعمر يونان بالانبار[٧] . وامتاز دير الكلبَ قرب معلثايا من نواحي الموصل ببناء قلاليه بعضها فوق بعض في صعود الجبل. فمنظرها احسن منظر[٨]. ومثلها قلالي دير الزعفران . كان بناؤها متراصفاً باحسن وصف واملح تكوين. وله سور يحيط به[٩].

وكان بعض هذه القلالي لا يخلو من النفاسة والتأنق والزخرفة كالقلية التي زارها ابو الفرج الببغاء في دير مرّان بدمشق وشاهد في صحنها « بيتاً فضيّ الحيطان رخاميّ الاركان يضم طارمة خيش مفروشة بحصير مستعمل.»[١٠] وهذا غاية ما وقفنا عليه من وصف بنائها وتعريف ما كانت تشتمل عليه. وهو ما يدل على انها لم تكن مقتصرة على حجرة واحدة. وكان اكثرها مرتفعاً يُشرف على ما حوله من الجنان والرياض والغدران. ولذلك كان عشّاق الصهباء من المسلمين يؤثرون الشرب على سطحها للتمتع بجمال مُطلّها . ونضارة ما تتناوله العيون من

---

١) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٢٠
٢ و٣) كتاب الديارات للشابشتي ، ١١٥-١١٦
٤) مسالك الابصار ، ٢٥٥
٥) مسالك الابصار ، ٢٨٩
٦) مسالك الابصار ، ٣٠٩
٧) مسالك الابصار ، ٢٨٦
٨) مسالك الابصار ، ٢٥٤
٩) مسالك الابصار ، ٢٥٥
١٠) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر ، ١ : ٢٠٤ وفي المتن المطبوع : « طارقة خيش » ، وهو تصحيف .

نِطاقها[1]. ومن قعدت به الحال عن تحصيل قلّية منها او ابتياعها كان يتخذ له بيتاً ضيقاً يقال له الكِرح.

والكِرح بالكسر بيت الراهب والجمع أكراح[2]. ولم يفسّرها في اللسان. ومن الغريب ان الجمع لم يأتِ الا بصيغة التصغير «أُكَيْراح» قال: وهي بيوت ومواضع تخرج اليها النصارى في بعض اعيادهم وهو معروف[3]. وروى الخالدي ان «الأُكَيْراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلاليّ لهم. يقال لواحدها كِرح.»[4] والصحيح ان اللفظة سريانية ܟܘܚܐ ومعناها الكوخ الصغير.

واشتهر بمثل هذه الأُكَيْراح دير حنة، بظاهر الكوفة، في بقعة كثيرة البساتين والرياض. وفيه يقول ابو نواس مشيرًا الى راهباته الحِسان:

يا دير حنة من ذات الأُكَيْراح ، من يصحُ عنك،فاني لست بالصاحي !
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بالباب وارواح[5]

وله ايضاً فيه

دع البساتين من آسٍ وتفاح ، واعدل ،هُديت الى دير الأُكَيْراح[6]

والظاهر ان هذه البيوت والأكواخ كانت مختصّة بديارات الحيرة والعراق وحدها، لاننا لم نجد لها ذكرًا آخر في ديارات مصر والشام.

١) مسالك الابصار، ٢١٥ و٢١٦ و٢١٨
٢) تاج العروس ٢: ٢١١
٣) لسان العرب ٣: ٤٠٥
٤) معجم البلدان ١: ٢٤٥
٥) ديوان ابي نواس. باريس ١٨٣٩، ١: ١٩٠
٦) ديوان ابي نواس. الفاتيكان ١٥٦، ص ١٠٠، وهذا البيت منسوب ايضا لبكر ابن خارجة باختلاف قليل في العجز (معجم ما استعجم البكري، ص ٣٧٢-٣٧٣)

القائم في الديارات

وردت هذه اللفظة في كتب الديارات ولم تُشر اليها معاجم اللغة . ذكرها ابو الفرج الاصبهاني في تعريفه دير حنة بظاهر الكوفة . قال: «وهو دير قديم بناه حيّ من تنوخ يقال لهم بنو ساطع . تحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمّى القائم.»[1] والى هذا القائم اشار الثرواني بقوله:

يا دير حنة ، عند القائم الساقي ، الى الخورنق من دير ابن برّاق[2]

وربما اشتهر الدير بقائمه ، كدير القائم الاقصى على شاطئ الفرات ، من الجانب الغربي ، في طريق الرقة من بغداد . قال ابو الفرج ايضاً : «وقد رأيته . وانما قيل له القائم لان عنده مرقباً عالياً كان بين الروم والفرس . يُرقب عليه على طرف الحدّ بين المملكتين شبه تل عقرقوف ببغداد . واصبع خفّان بظاهر الكوفة[3] . . . وبهذا الدير مرّ اسحق الموصلي لما خرج مع الرشيد وطاف به . ورأى فيه راهبة حسناء عليها المسوح فقال فيها :

بدير القائم الاقصى ، غزال شادن احوى[4]

فالقائم على ذلك هو المرقب كان يُقام بين الروم والفرس . ولكن هنالك اديارًا اخرى في الاسلام للملكانية واليعقوبية كانت معروفة ايضاً بقائمها ، وليس فيها صفة المرقب . منها دير القيّارة لليعقوبية على اربعة فراسخ من الموصل في الجانب الغربي من اعمال الحديثة . قال الشابشتي : « وكل دير لليعقوبية والملكانية فعنده قائم . وديارات النسطورية لا قائم لها . »[5] فالقائم اذن لم يكن مرقباً فقط . ولعلّ اوجه ما يقال فيه انه كان شبه صومعة كانت تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى احد النساك المعتزلين فيها كالصومعة التي اقامها على باب دير مر يحنا ، الى جانب تكريت ، عبدون الراهب وهو رجل من الملكية ونزلها ، فصارت تعرف به[6] .

---

١) معجم ما استعجم للبكري ، ٣٧٣ ٢) معجم البلدان ٢ : ٣٤٥

٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨٤ ٤) مسالك الابصار ، ٢٦٩-٢٧٠

٥) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٣٢

٦) كتاب الديارات للشابشتي ، ٧٣

اديار النساء

لم يُعنَ احد ممن تكلم على الديارات بتعداد ما كان منها للنسوة المتبتلات والجواري الرواهب . وانما اشاروا الى قسم منها عَرَضاً وفي شجون الحديث . وليس بين اسمائها الّا ديران فقط تدلّ تسميتهما صريحاً على جنسهما ونسبتهما . وهما دير الخُوات ، ودير العذارى. وقد استقرينا كل الاخبار والاشعار المرويّة ولم نجد بينها الا تسعة عشر فقط يصحّ اثباتها وافرازها للاناث وهي:

١ دير الخُوات بعكبرا . « وهو دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه . »[1] ولفظة الخوات تحريف الأَخوات. وفي هذا الدير كانت تكون، فيما زعم بعض السفهاء المتقوّلين ، ليلة الماشوش . وسنفرد للاشارة اليها وتزييف تهمتها فصلًا نثبت فيه بطلان هذه المقالة الشنعاء بشهادة بعض كتبة الاسلام.

٢ دير العذارى بين سرّ من رأى وبغداد . قال الخالدي: وشاهدته . وبه نسوة عذارى[2]. وروى العمري انه « كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزّهات . لا يعدم من دخله ان يرى من رواهبه جواري حسان الوجوه والقدود والالحاظ والالفاظ . »[3]

٣ دير العذارى في قطيعة النصارى ببغداد[4] .

٤ دير العذارى بالحيرة[4] .

٥ دير القائم بالرقة . كان فيه ، فيما يظهر ، مساكن للعذارى . حكى اسحق ابن ابرهيم الموصلي قال:

« خرجنا مع الرشيد نريد الرقة . فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه . فابعد في طلب الصيد . ولاح لي دير فقصدته . . . فنزل صاحبه ففتح الباب . . . وعرض علي الطعام فأجبته . فقدم لي طعاماً من طعام

---

١) كتاب الديارات للشابشتي ، ٣٨

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٩

٣) مسالك الابصار ، ٢٥٨

٤) معجم البلدان ٢ : ٦٨٠

الديارات نظيفاً طيباً. فاكلت منه. واتاني بشراب وريحان فشربت منه. ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم ارَ احسن منها ولا اشكل. فشربت حتى سكرت. ونمت وانتبهت عشاء. فقلت في ذلك:

بدير القائم الاقصى، غزال شادن احوى،
برى حبي له جسمي، ولا يعلم ما القى؛
واكتم حبه جهدي ولا، والله، ما يخفى.

وركبت فلحقت بالمعسكر. والرشيد قد جلس للشرب وطلبني فلم أُوجد. وأُخبرت بذلك. فغنيت بالابيات ودخلت اليه. فقال لي اين كنت ويحك. فاخبرته الخبر وغنيته الصوت. فطرب وشرب عليه حتى سكر. وأَخّر الرحيل في غد. ومضينا الى الدير ونزله. فرأى الشيخ واستنطقه. ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالامس فدعا بطعام خفيف فاصاب منه. ودعا بالشراب وامر الجارية التي كانت بالامس تخدمني ان تتولى خدمته وسقيه ففعلت. وشرب حتى طابت نفسه. ثم امر للدير بالف دينار وامر باحتمال خراجه له سبع سنين.»[1]

٦ دير الفَلْث على شاطئ دجلة من الجانب الشرقي. وقد صرّح جحظة البرمكي في شعر قاله فيه انه كان فيه عذارى لابسات المسوح. وهذه ابياته:

ايها الحاذقان بالله، جُدّا وأصلحا لي الشراع والسكانا...
واحطا لي الشراع بالدير، بالعلث، لعلّي اعاشر الرهبانا،
وظباء يتلون سفرًا من الا نجيل، باكرن، سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثيابًا جعل الله تحتها اغصانا
خَفِرات، حتى اذا دارت الكا س، كشفن النحور والصلبانا[2]

٧ دير مارت مروثا. في سفح جبل جوشن مطلّ على مدينة حلب. قال الخالدي: هو صغير وفيه مسكنان احدهما للنساء. والآخر للرجال. ولذلك سمي بالبيعتين. وقلّما مرّ به سيف الدولة الا نزل به[3]. وكان في زمان ياقوت قد خرب ودرست آثاره.

١) الاغاني، طبعة بولاق، ٥: ١٢٢–١٢٤
٢) معجم البلدان ٢: ٦٨١
٣) مسالك الابصار، ٢٤٩–٢٥٠

٨ دير صليبا بدمشق مطلّ على الغوطة. يُعرف بدير السائمة. والى جانبه دير للنساء. وهما في الارجح الديران اللذان ارادهما جرير بقوله:

اذا تذكرت بالديرين ، أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس(١

٩ دير مرّان في سفح جبل قاسيون بدمشق. يظهر انه كان فيه مساكن للرواهب في جوار مساكن الرهبان. وهو ما يؤخذ من قصيدة لعون الدين بن العجمي (٦٠٦–٦٥٦ للهجرة = ١٢٠٩/١٠–١٢٥٨) قالها يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين. ومنها هذه الابيات :

يا سائقاً يقطع البيداء ، معتسفاً ، بضامرٍ لم يكن في سيره واني ،
ان جزت بالشام ، شِم تلك البروق ، ولا تعدل ، بلغت المنى ، عن دير مرّان .
واقصد اعالي قلاليه تلاقِ بها ما تشتهي النفس من حور وولدان ،
من كل بيضاء هيفاء القوام ، اذا ماست ، فيا خجلة المرّان والبان !
وكل اسمر قد دان الجمال له وكمّل الحسن فيه فرط احسان(٢

١٠ دير هند الصغرى بالحيرة. وهي هند بنت الملك النعمان بن المنذر «ترهّبت فيه وسكنته وعاشت دهرًا طويلًا. ثم عميت. وهذا الدير من اعظم ديارات الحيرة واعمرها. وفيه زارها الحجاج المشهور. وقبله سعد بن وقّاص حين فتح العراق. والمغيرة لما ولاه معاوية الكوفة وخطبها المغيرة حباً بالتشرف بها فاجابته: اي فخر في اجتماع اعور وعمياء..»[٣]

١١ دير هند الكبرى بالحيرة ايضاً. بنته هند ام عمرو بن هند. وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي. وكان في صدره مكتوباً: «بَنَت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك. وام الملك عمرو بن المنذر. أَمَة المسيح وام عبده وبنت عبيده. في مُلك مَلِك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف. فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها. ويُقبل بها وبقومها الى امانة الحق. ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر.»[٤]

١) مسالك الابصار ، ٢٤٩–٢٥٠
٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ : ٢٢٥–٢٢٦
٣) ديارات الشابشتي ، ١٠٦–١٠٧ ٤) معجم البلدان ٢ : ٧٠٩

١٢ دير مارت مريم بالحيرة . مرّ به اسحق بن ابرهيم الموصلي لما خرج الى النجف مع الواثق. فقال فيه :

نعم المحلّ لمن يسعى للذّته دير لمريم ، فوق الظهر ، معمور.
ظلٌّ ظليل ، وماء غير ذي اسن ، وقاصرات كامثال الدمى حور.[1]

وقد روى ياقوت هذين البيتين وذكر غلطاً ان الدير بنواحي الشام[2].

١٣ دير النساء الى جانب كنيسة مريم بدمشق . وهو الذي نهبه ثُوّار المسلمين في نصف رجب سنة ٣١٢ (١٧ ت ١ ٩٢٤) حين هدموا كنيسة مريم[3]

١٤ دير حنة بظاهر الكوفة . يؤخذ من ابيات فيه لابي نواس انه كان فيه عذارى مترهبات ، وهو قوله يخاطبه مشيرًا الى من فيه من الجواري المتبتلات :

رأيت فيكَ ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وارواح[4]

١٥ دير يوسف بالموصل وصف السريّ الرفّاء راهباته وكنى عنهنّ بالدُمى النواطق قال :

كم دِمْنة خرساء فيه ودُمية فَضَلت عليها باللسان الناطقِ[5]

١٦ دير البنات مشرف على ارض طرابلس. زاره الشاعر الطيبيّ » ورأى فيه كل عذراء تُدهش المتحيّر وتُحيّر المتخيّر.«[6]

١٧ دير الراهبات بحارة زويلة من القاهرة.

١٨ دير البنات بحارة الروم بالقاهرة.

١٩ دُير المعلقة بمدينة مصر. وكان اشهر ديارات النساء.

وهذه الاديار الثلاثة الاخيرة كانت في زمان المقريزي (١٣٦٥—١٤٤١ م) عامرة بالنساء المترهبات[7].

ولا شك انه كان هنالك اديرة اخرى للراهبات لا سبيل لنا اليوم لتعيينها لعدم الاشارة اليها صريحاً في الاصول التي لدينا.

---

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٥ : ١٣٨ ٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٣
٣) تاريخ ابن بطريق ٢ : ٨٣ ٤) ديوان ابي نواس. باريس ٣٨٢٩، ١٩٠ : ١٩٠
٥) ديوانه باريس ٣٠٩٨ ، ص ١٤٧
٦) مسالك الابصار ، ٣٢٤
٧) الخطط ، مطبعة النيل ، ٤ : ٤٢١

الاديار التي كان ينزلها الخلفاء والملوك والامراء

ووجوه الدولة

من اقدمها ذكرًا واعظمها مصرًا دير مُرَّان بدمشق. كان يزيد بن معاوية ثاني الخلفاء الامويين قد اتخذه وطناً له ومتنزَّهاً. وفيه قال، وهو وليّ العهد، بيتَيه المشهورَين لما سيّر معاوية جيشاً كثيفاً الى بلاد الروم للغزاة. وامر ابنه بالمسير معهم. فتثاقل واعتلّ. واصاب الناسَ في غزاتهم جوع ومرض شديد فانشأ يزيد يقول:

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم بالغذقدونة من حمّى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقاً بدير مرَّان عندي ام كلثوم[1]

ونزله ايضاً بعده جماعة من الخلفاء من الامويين والعباسيين[2]. ومثله دير صليبا مقابل باب الفراديس بدمشق كان الوليد بن يزيد كثير المقام به يخرج اليه ومعه حُرَمه استحساناً له[3]. ودير بُوَنَّا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق اقام الوليد بن يزيد فيه اياماً في تخرُّق ومجون[4]. ودير الرصافة رصافة هشام بن عبد الملك وفيه قيل:

ليالي هشام بالرصافة قاطن وفيك ابنه، يا دير، وهو امير[5]

ودير السوسي على شاطىء دجلة. ولابن المعتز فيه:

يا لياليَّ بالمطيرة والكرخ ودير السوسيّ بالله عودي[6]

---

١) قال ياقوت: الغذقدونة هو اسم جامع للثغر الذي منه المصيّصة وطرسوس وغيرهما ويقال له خذقدونة (معجم البلدان ٣: ٧٧٧) والاظهر انه خلقدونة Chalcédoine وروى البكري في معجم ما استعجم (ص ٢٧٦) هذين البيتين في دير سمعان وان يزيدًا اقام به ووجّه الجيوش لغزو الروم. وهي غزاة الطوانة Teane ولذلك روى عجز البيت الاول «يوم الطوانة من حمى ومن موم» والاصح ما ذكرناه بدير مران.

٢) مسالك الابصار ٣٥٥

٣) مسالك الابصار ٣٤٩

٤) مسالك الابصار ٣٥١

٥) مسالك الابصار ٣٣٦

٦) ديارات الشابشتي ٦٤

ودير عبدون . وفيه لابن المعتز ايضاً :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطّالٌ من المطرِ
يا طالما نبّهتني الصبوح به في ظلمة الليل والعصفور لم يَطِرِ
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نعّارين في السحرِ[١]

ودير مرمار (مار ماري) بسرّ من رأى . قال الفضل بن العباس بن المأمون «كنت مع المعتز في الصيد فانقطعنا عن الموكب . هو وانا ويونس بن بُغا . ونظرنا الى دير فيه ديرانيّ يعرفني واعرفه . مليح ظريف . فشكا المعتز العطش . فقلت ههنا ديراني ظريف مليح . فقال مُرّ بنا . فجئنا فخرج الينا واخرج الينا ماء باردًا . وسألني عن المعتز ويونس . فقلت فتَيان من ابناء الجند . فقال لي تأكلون شيئاً . فقلنا نعم . فاخرج لنا الطف شيء في الدنيا وأكلنا اطيب أكل . وجاءنا باطيب أشنان واحسن آلة . فاستظرفه المعتز وقال لي قل له بينك وبينه : من تحب ان يكون معك من هذين لا يفارقك . فقلت له . فقال كلاهما وعرّا . فضحك المعتز حتى مال على الحائط . فقلت للديراني لا بد ان تختار . فقال الاختيار والله في هذا دمار ما خلق الله عقلاً يميز بين هذين . ولحقنا الموكب فارتاع الديراني . فقال له المعتز بحياتي لا تنقطع عما كنا فيه . وفرحنا ساعة . ثم امر لهُ بخمس مائة الف درهم . فقال لا والله . لا قبلتها الا على شريطة . قال ما هي . قال يجيب امير المؤمنين دعوتي مع من اراد . فقال ذلك لك . فوعدناه ليوم وجئناه فانفق علينا المال كله . فوصله المعتز بمثله وانصرفنا .»[٢]

ومن دواعي الاسف ان لا يكون انتهى الينا وصف هذه الدعوة بالكمال والتفصيل لنعلم كيف كانت تكون مثل هذه الولائم الخليفية في مثل الاديار النصرانية .

ومن اديار الملوك ايضاً دير زكّى بارقة « كانت الملوك اذا اجتازت به نزلته

---

١) ديوان ابن المعتز . باريس ٣٠٧٨ ، ص ١٠٥ وفي معجم البلدان لياقوت : سقى المطيرة بدلًا من الجزيرة

٢) جزء من تاريخ بغداد للخطيب . باريس ٢١٣١ ، ص ١٤١ ، والاغاني ٨ : ١٨٥

واقامت فيه لانه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارته ونفاسة ابنيته وطيب المواضع به.»[١]

ومنها عمر مرتومان (مار يونان) بالانبار. كان «من اجتاز بالانبار من الخلفاء. ومن دونهم ينزله مدة مقامه.»[٢]

ومنها دير مار مروثا في سفح جبل جوشن مطلّ على مدينة حلب. قال الخالدي: وقلما مرّ به سيف الدولة الا نزل به. وكان يقول كانت والدتي محسنة الى اهله وتوصيني به[٣]. ومثله دير باعربا بين الموصل والحديثة. نزل سيف الدولة فيه[٤].

ومنها دير الاعلى بالموصل «من اجتاز بالموصل من الولاة نزله».[٥]

واهم ديارات مصر التي كانت مألفاً للملوك والامراء ووجوه العمال والولاة وابناء الخلفاء. دير القُصَير اعظم اديار الروم الملكيين واجلها مُستشرفاً وموقعاً في قنة الجبل المطلّ على قرية شهران من قرى مصر البائدة. وكان احمد بن طولون امير مصر كثيراً ما يطرقه ويخلو في بعض قلاليه[٦]. وجرى على أثره ابنه ابو الجيش خمارويه. وكان شديد الاعجاب بصورة فيه بالفسيفساء للعذراء. فكان يكثر غشيان الدير للشرب على وجهها. وبنى له فيه غرفة لها اربع طاقات يجلس فيها[٧].

ومن الامراء الشعراء، الذين كانوا لا يفارقون الدير للقصف فيه والتنزه، الامير تميم بن المعز لدين الله الخليفة الفاطمي. وله فيه قصائد ومقطعات قال في بعضها:

ومن كان محبوساً على حب لذّةٍ   فاني على دير القُصَير حبيس[٨]

---

١) ديارات الشابشتي ٦٥ و٩٨

٢) ديارات الشابشتي ١١٣

٣) معجم البلدان، طبعة مصر ١٩٠٦، ٤ : ١٦٨

٤) مسالك الابصار ٢٠١

٥) ديارات الشابشتي ٧٥

٦) سيرة احمد بن طولون للبلوي، رقم ٣٤٢ من مخطوطات دار الكتب الاهلية الظاهرية بدمشق، الورقة ٢٤

٧) ديارات الشابشتي ١٢٥

٨) ديوانه. خزانة ليدن Arabe 2038

واشتهر في دولة المماليك الامير سيباي العلائي الاشرفي بكثرة الخروج للصيد والاقامة من اجله في بعض الاديار . قال السخاوي : «كانت عليه رواتب لبعض ديور النصارى محتجاً بقصد من يرد عليهم من المسلمين خصوصاً . وهو يكثر الخروج للصيد ويقيم عندهم فيها . ولم يزل في نموّ الى ان قتل في ليلة الجمعة ثالث رجب سنة خمس وثمانين (وثمانمائة) = (١٤٥٤ م) بخيمه على شاطىء النيل قريباً من طما من اعمال اسيوط . »[1]

وندر ان يكون دير في الاسلام من الديارات المشهورة لم يعرّج عليه الخلفاء والملوك في غزواتهم وتنقلاتهم ، ولا سيما في اسفارهم الى الشام ورجوعهم منه الى العراق .

١) الثاني من الضوء اللامع . الخزانة التيمورية ص ٥٢٩

مزروعات الاديار والقلالي

تقدم ان مساكن الرهبان كانت دائماً محفوفة بالبساتين والرياض. فلم تكن قلية تخلو، الّا فيما شذّ وندر، من حديقة او جُنينة يقضي الراهب فيها قسماً من نهاره بين اشجاره وازهاره. وكانت المزروعات تتنوّع تنوّع الامصار والاتربة. وتكثر او تقلّ حسب مستغلّها ورواج مبيعه في حاجات الدير. فكانت الكروم من ثم اوفرها انتشارًا واوسعها بقاعاً للصيت الطائر الذي كان لخمور الاديار في الاسلام. وشدة الرغبة فيها والاتجار بها في كل البلدان. لحذق خمّاري النصارى باعتصارها. وتميّزهم بنظافة الآنية وحسن الملبس والاجادة في اختيار انواع الاشربة وتعتيقها. وغلب في الحيرة والعراق النخل مع الكروم. ولا يبعد ان يكون الرهبان فيها تعودوا ايضاً اتخاذ نبيذ التمر وهو الدوشاب والفضيخ. ويظهر ان الزيتون ايضاً كان غير قليل فيها وفي جهات نصيبين.[1] واشتهر دير الزعفران على رأس الجبل المطلّ على نصيبين، في ما عدا زعفرانه وريحانه، بجنات فيه مملوءة بشجر البندق والفستق واللوز الفرك والزيتون والبطم.[2] وعُرف دير الكلب في سفح جبل بقرب معلتايا بوفرة الزيتون فيه والرمان والآس والكرم والزعفران والنرجس.[3] واختص دير الزندورد وناحيتهُ بالجانب الشرقي من بغداد بالفواكه والاترج والعناب. وكان عنبها من اجود ما يُعتصر هناك.[4] ونظيره في كثرة الفواكه والاعناب دير قُنّى بالقرب من بغداد ودير قوطا بالبَرَدان على شاطىء دجلة. وعمر احويشا باسعرد من ديار بكر. وكان لدير كفتون ببلاد طرابلس حوض كبير مملوء من شجر النارنج يُحمل الى طرابلس ويباع فيها ويرتفق بثمنه الرهبان.[5]

---

١) الديارات للشابشتي ص ١١٦، ومسالك الابصار للعمري ص ٣٠٥
٢) مسالك الابصار ص ٣٠٥
٣ و٤) مسالك الابصار ص ٣٥٤
٥) مسالك الابصار ص ٣٢٥

وامتاز رهبان عمر الزعفران بعنايتهم بتربية النحل واشتيار العسل. ومنه ومن الزعفران اكثر يسارهم[1]. وغلبت زراعة النرجس والبنفسج والزعفران على دير مار مرونا بظاهر حلب. واشتهر دير مرّان في جبل قاسيون بدمشق برياضه الحسان. واشرافه على مزارع الزعفران. وحكى الخالدي انه اجتاز بدير العذارى بجانب العلث بين سرّ من رأى وبغداد وشاهد في جُنَينات لرواهبه جماعة يلقطن زهر العصفر. قال ولا يماثل حمرة خدودهن.[2] وكثرت في دير المصلبة بظاهر القدس اشجار الزيتون والكروم وشجر التين.[3]

وكان في دير إتراعيل ، على اقل من ميل من كفر عزّى من قرى اربل ، صنوف الزهر في الربيع وانواع الاقاحي والشقائق. وفي قلاليّ رهبانه جُنينات حسان فيها آس مصر وشجر مريم وغير ذلك.[4] ونظيره دير ابا يوسف فوق الموصل « وموضعه حسن معمور بالزيتون والسرو والآس والرياحين مفروس الربى بالنرجس. »[5]

وجملة القول ان الاديار كانت تشتمل خصوصاً في ما خلا الفواكه والبقول على الكروم لعصر الخمر. وعلى الرياحين والازهار للتحايا في الحانات ومجالس الشراب. وعلى الزعفران للتجارة. وسنفرد الكلام على كل منها بالتفصيل لما في التنبيه عليها من الفائدة والجِدّة والطرافة.

---

١) مسالك الابصار ص ٣٠٥

٢) مسالك الابصار ص ٢٥٨-٢٥٩

٣) مسالك الابصار ص ٣٢٩

٤) مسالك الابصار ص ٢٨٨

٥) مسالك الابصار ص ٣٠٢

الخمر النصرانية

لم ينفرد النصارى بعصر الخمر وبيعها في الاسلام، بل سبقهم الى الاتجار بها اليهود في الجاهلية. ولذلك قال عديّ بن زيد في وصفها:

صاغها التاجر اليهوديّ حولَين واذكى من ريحها التعتيقُ[١]

ووصف عبيد بن الابرص احدَ معتقيها من اليهود بصهبة الشارب فقال في غزله:

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت صهباء صافية بالمسك مختومه
مما يغالي بها البيّاع، عتّقها ذو شارب اصهب يُغلي بها السيمه[٢]

وللحسين بن الضحاك من ابيات يذكر خمّارًا يهوديًا:

دسّسْتُ حمرآء كالشهاب له من كفّ خمّار حانةٍ أفِك
يحلف عن طبخها بخالقه، وربّ موسى، ومنشئ الفلك[٣]

ومن بعض اوصاف الخمور التي كانوا يبيعونها في حاناتهم ما عُرف بالجودة والقِدَم. ولذلك كان يقال لها معتّقة اليهود. قال جحظة البرمكي لجليسين له كانا يستطيبان عشرته وغناءه «اجلسا عندي حتى... اطعمكما طباهجة بكبود. واسقيكما معتقة اليهود.»[٤] ومن المواضع التي اشتهر اليهود بتعتيق الخمر فيها سورا من ارض بابل بالعراق ولابي جفنة القرشي فيها:

ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رأيت لسانه مكسورا
مما تخيّرت التجار ببابلٍ او ما تعتقه اليهود بسورا[٥]

وفي ديوان ابي نواس ابيات اشار فيها الى خمّاري اليهود. واجتاز مرة بحمص فشرب عند واحد منهم يقال له لاوي واستطاب شرابه وفضّله على شراب قطربل.[٦]

---

١) التذكرة الحمدونية. باريس ٣٣٢٤، ص ١٠٢
٢) ديوانه، طبعة ليال، ص ٦١
٣) رسالة الغفران لابي العلاء، ص ١١٨
٤) نشوار المحاضرة للتنوخي ١: ٢٠٥
٥) معجم البلدان ٣: ١٨٤-١٨٥
٦) ديوان ابي نواس. خزانة الفاتيكان ٤٥٦، ٢: ١٩٦-١٩٧

وكان المجوس من الفرس يشاركون اليهود ايضاً في الاتجار بالخمور وعقد الحانات . وفي احدى بناتهم يقول ابن المعتز :

وخمّارة من بنات المجو س ترى الزقّ في بيتها شائلا
وزنّا لها ذهباً جامدًا فكالت لنا ذهباً سائلا [١]

ونظيره قول عبدالله النُميري العراقي :

وخمّارة من بنات المجو س لا تطعم النوم الا غرارا
طرقت على عجل ، والنجو م في الجوّ معترضات حيارى [٢]

ولكن الخمور النصرانية ولا سيما معتقات الاديار كانت هي « المشهورة في الآفاق . المعروفة في مغارسها بكرم الاعراق » . [٣] لما امتازت به معاصرها من النظافة وحسن الصنعة والتأنق في الآلة . واختُصّ به باعتها وسقاتها من اللباقة والملاحة في الحانات والملابس . وطهارة الدنان والمبازل والكؤوس . ولذلك لما اراد الواثق بالله الخليفة العباسي ان يعقد حانتين له ولبطانته احداهما في دار الحُرَم ، والاخرى على شط دجلة ، « امر ان يُختار له خمار نظيف جميل المنظر حاذق بامر الشراب . ولا يكون الا نصرانياً من اهل قطربُل . فأُتي بنصراني لـه ابنان مليحان وابنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواثق في الحانتين . وضمّ اليهم خدماً وغلماناً وجواري رومية . واخدم النساء حانة الحرم . والرجال حانة الشط » . [٤] وكذلك فعل الوزير المهلبي لما زاره الصاحب بن عباد ووصف اجتماعه به في كتاب كتبه لابن العميد وقال في جملة مُلَحه واخباره « وعلى ذكر عُكبرا حضرنا مع الاستاذ ابي محمد (المهلبي) ايده الله تعالى بها . فاستدعى دنًّا للوقت . وخمارًا للدير . وريحاناً من الحانة . واقترح غناء من الماخور واخذنا في فنّ من الانخلاع عجيب . » [٥]

ولهذه الاسباب اتّهم الخليفة عمر بن عبد العزيز النصارى خاصة باضلال المسلمين واغرائهم بالشرب في كتاب انفذه الى عـامله على مصر أيوب بن

---

١) تباشير الشراب لابن المعتز . باريس ٣٢٩٩ ، ص ٣٦

٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٢ : ٢٥٠

٣) مـسالك الابصار . خزانة باريس ٢٣٢٥ ، ص ٢٠٨

٤) مـسالك الابصار . طبعة مصر ، ١ : ٢٩٣

٥) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ، ٢ : ١٣

شرحبيل واهل مصر في النهي عن الخمر فحُرِّمت وكُسرت آلاتها وعُطِّلت حاناتها.[١] وكان الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين يشربون الطِّلاء. وهو العصير المطبوخ الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. قيل سمي بذلك لانه شبيه بطلاء الابل في ثخنه وسواده. وحجتهم في ذلك ما رُوي من ان عمر بن الخطاب كتب الى بعض عمّاله ان أرزقِ المسلمين من الطلاء. ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. وحكي ان ابا موسى الاشعري وابا الدرداء كانا يشربان من الطلاء. ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه.[٢] وكذلك كان يفعل زيد بن سهل الانصاري، ومعاذ بن جبل الانصاري، وابو عبيدة ابن الجراح.[٣] قال ابو العلاء: «والمطبوخ وان اسكر فهو جارٍ مجرى الخمر. على ان كثيرًا من الفقهاء قد شربوا الجمهوري والبختج والمنصَّف.»[٤] وهذه الانواع من عصير العنب المطبوخ. وقيل للاول منها الجمهوري لان جمهور الناس اي اكثرهم يستعملونه.

ومع ان عمر بن عبد العزيز كان ممن رخَّص قبلًا في مثل هذا الطلاء،[٥] كتب الى ايوب بن شرحبيل يقول:

«يقولون ان الطلاء لا بأس علينا في شربه. ولعمري ان ما قرب الى الخمر في مطعم او شرب او غير ذلك ليُتَّقى. وما يشرب اولئك شرابهم الذي يستحلُّون الّا من تحت ايدي النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين في دينهم. ودخولهم في ما لا يحل لهم. مع الذي يجمع نفاق سِلَعهم ويسارة المؤونة عليهم.»[٦]

ومن الثابت المحقَّق اليوم ان عمر بن عبد العزيز هو اول خليفة في الاسلام نظر شزرًا الى المسيحيين وابتدع، قبل المتوكل على الله، اول خطة لاذلالهم وحرمانهم وعسفهم.[٧] خلافاً للرأي الشائع منذ القرن الخامس للهجرة بنسبة مجموع

١) تاريخ مصر وولاتها للكندي، ص ٦٨
٢) نهاية الارب للنويري ٤: ٨٢
٣) تهذيب ابن عساكر ٦: ٤
٤) رسالة الغفران، ص ١٧٦
٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص ١٠٣
٦) نهاية الارب للنويري ٤: ٨٣
٧) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٠٣

هذه المظالم المعروفة بالشروط العمرية لعمر بن الخطاب. فلا بدع من ثم اذا اراد تأثيم النصارى لإيثار المسلمين شرب خمورهم واستطابتهم لها. وقد شهد حين كان عامل المدينة تهتك بعض اولاد الخلفاء الراشدين والانصار والاشراف بالسكر في المنازل والاندية وحانات اليهود والمسلمين. حتى اشتهر حب الانصار للمسطار وهي الخمرة الصارعة لشاربها. ولذلك وصفهم الاخطل بقوله:

قوم اذا هدر العصير رأيتهم حُمرًا عيونهم من المسطار[١]

وكان عمر لا يجهل ايضاً ان اول مولع بها، مدافع عن حِلّها، ومثيب على حسن اختيارها، هم اهل بيته واكثر بطانته. وانهم كانوا لا يرون اقل حرج في تناولها وانتجاع حوانيتها. ولا يتكتمون في المنادمة عليها ولسان حالهم ينشد لجليسهم قول الحسن بن هانئ:

خذها على دين المسيح، اذا نهى عن شربها دين النبي محمد

وقد قصد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الحيرة من اجلها في طلب خمار في دير حنة وُصف له بجودة الشراب ونظافة الآنية وملاحة الحانة. واستسقاه اربعة ارطال وهبه عليها اربعمائة دينار.[٢] وقد اشار الجاحظ الى ولع الخلفاء الامويين والعباسيين بالشرب. وعيّن الايام التي كان كل واحد منهم يخصصها للهوه وسكره. وعدَّ منهم يزيد بن معاوية. وعبد الملك بن مروان. والوليد وسليمان وهشام ابناء عبد الملك. ويزيد بن الوليد. والوليد بن يزيد. ومروان بن محمد من الامويين. وابا العباس السفاح. والمهدي. والهادي. والرشيد. والمأمون. والمعتصم. والواثق من العباسيين في ايامه. ولما ذكر عبد الملك بن مروان قال انه كان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل أفي السماء هو او في الارض[٣]. وقال ان المأمون كان في اول ايامه يشرب الثلاثاء والجمعة. ثم ادمن الشرب عند خروجه الى الشام في

١) الاغاني، طبعة بولاق، ١٣: ١٤٨

٢) مسالك الابصار ١: ٣٢١

٣) في متن الجاحظ المطبوع « أفي السماء هو او في الماء » والاصح ما اثبتناه. وقد اشار الى هذا المعنى ابن عُنين بقوله في صفة الخمر:

كُميتٌ اذا ما نلت منها ثلثة رأيت السما كالارض والارض كالسما

سنة خمس عشرة ومائتين (٨٣٠ م) الى ان توفي.[1]

فهل كان كل هؤلاء الخلفاء يشربون تحت ايدي النصارى . ام هل كان النصارى مسؤولين عن شهوات ملوكهم

عِنب وخمر في الاناء وشارب فمن الملوم أعاصرٌ ام حاسٍ[2]

وناهيك ان النصارى لم يكونوا منفردين ببيع الاشربة والمسكرات في الاسلام. بل كان، فيما خلا اليهود والمجوس، قوم من المسلمين ايضاً لا يتورعون من بيعها في الحانات . اشتهر منهم ابن بجرة بالطائف وهو الذي قال فيه ابو ذؤيب الهذلي:

ولو ان ما عند ابن بجرة عندها من الخمر لم تبلل لهاتي بناطل[3]

ومن النكت التي يجدر ايرادها هنا ما رواه الشابشتي قال: « ذكر ابو الشبل البرجمي قال: صرت انا ومحمود الى قطربل فدعونا خماراً فقلنا : ائتنا ببنت عشر قد انضجها الهجير. فجاءنا بها. فقلنا اسقنا. فسقانا. فقلنا اشرب واسقنا . فقال انا مسلم . وكان يهودياً قد اسلم. فقال لي محمود: قوم يكون الخمار عندهم مسلماً متحرّجاً. وهم عند الخمار كفار. ترى لله فيهم حاجة. »[4] ومن البديهي ان اليهودي بعد اسلامه لم يبقَ خماراً ولم يستجز بيع الشراب الا لمعرفته ان في الحانات نظراء له من المسلمين لا بأس عليه في الاحتذاء بهم. ولذلك لم يبعد الامام ابو حنيفة في النظر والاجتهاد حين اجاز بعد ذلك شرب المثلّث والمربّع في عصر كان الخلفاء العباسيون انفسهم، وهم الائمة الذين بهم يُهتدى وبسيرتهم يُقتدى، يجهرون بشرب الخمور والانبذة في مجالس حافلة بوجوه الدولة واشرافها وعلمائها. ويعقدون من اجلها الحانات حتى في دار حُرَم الخلافة كما تقدم من اخبار الواثق بالله. خلافاً لدعوى ابن خلدون في تبرئتهم من معاقرة الخمر والاقتصار بهم على شرب نبيذ التمر.[5] وقد صرّح المؤرخون والادباء غير مرة بان الشراب الذي كان

١) كتاب التاج ، ص ١٥١-١٥٢
٢) لزوميات ابي العلاء ، ص ٣٠٢
٣) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٦ : ٦٠
٤) الديارات للشابشتي ، ص ٢٠-٢١
٥) المقدمة ، طبعة بولاق ، ص ١٥-١٦

يتناوله الخلفاء في بعض مجالسهم ولا سيا في اسفارهم وزياراتهم الاديار النصرانية كان عصير الكرم. وسماه ابن المعتز في شعر له سيمرّ بنا قريباً « شراب القربان» وهو لا يحتمل اقل تأويل . ولا يخفى على احد محل ابن المعتز في بيت الخلافة فهو ادرى من ابن خلدون بما كان يشربه اهل بيته . وروى المسعودي عن ابي الحسن العروضي ، مؤدب اولاد الخليفة الراضي بالله ، انه دخل على الراضي يوماً فوجده خالياً بنفسه مغموماً . فجعل يسلّيه . ثم قال له: يتمتع الله امير المؤمنين ان يكون كالمأمون في هذا الوقت حيث يقول:

صِلِ الندمان يوم المهرجان بصافٍ من معتَّقة الدنان
بكأس خسروانيّ عتيق فان العيد عيد خسرواني
وجنّبني الزبيبيّين طرّا فشأن ذوي الزبيب خلاف شاني
فاشربها وازعمها حراماً وارجو عفو رب ذي امتنان
ويشربها ويزعمها حلالاً وتلك على الشقيّ خطيئتان (١

وحسبنا ان نشير هنا الى ما اخبر به ابن حمدون من زيارة المتوكل على الله لدير صليبا بدمشق ومنادمته لشعانين ابنة قس الدير. قال: ثم جاء ابوها بشراب من بيت القربان ذكر المتوكل انه لم يرَ مثله قط فشرب وشربت معه[٢]. ومعلوم ان خمر القربان لا تكون حتماً الا من العنب .

ولبعض الشعراء ابيات في حِلّ الاخذ من كل ملاذّ الحياة وشهواتها . والاحتجاج لها بمذهب من مذاهب الائمة الاربعة قال فيها:

الشافعي من الائمة قائل اللعب بالشطرنج غير حرام
وابو حنيفة قال ، وهو مصدَّق في كل ما يروي من الاحكام ،
شرب المثلَّث والمربَّع جائز فاشرب على امنٍ من الآثام

وقد اشتهر ابو حنيفة بمذهبه هذا حتى بلغت شهرته في هذا الباب اقاصي المغرب والاندلس ، وصحّ معها لابن عبد ربّه الاندلسي ان يقول مشيرًا اليه:

ديننا في السماع دين مدينـيّ وفي شربنا الشرابَ عراقي (٣

وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي:

١) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٤١٨
٢) الخزانة الشرقية ٢ : ١٥ ، والمشرق ٣٥ [١٩٣٧] ٣٧
٣) يتيمة الدهر للثعالبي ٢ : ٨

اباح العراقيُّ النبيذَ وشربه ... وقال حرامان المدامة والسكر
وقال الحجازيّ الشرابان واحد ... فحلّت لنا ما بين قولهما الخمر

ولو شئنا ان نروي كل ما قيل في الاسلام في إطراء الخمور النصرانية ومشتّقات الديارات اطال بنا سياق الابيات . ومن اغربها ما قالهُ فيها احد غُلاة الشعراء ، وهو تاج الدين محمد بن حواري من قصيدة مدح بها الملك الناصر سنة ٦٤٦ (١٢٤٨/٩ م).

هــذي المدام التي كانت معتقةً ... من قبل ما سُمّت الارض السماوات
صلّوا لها . فلقد صلّت لها أُمم ... اضحوا عكوفًا عليها مثل ما باتوا(١

واحسن منه قول الشهاب التلعفري وفيه نظر الى خمر القربان:

عُج حيث تسمع اصوات النواقيس ... من جانب الدير تحت الليل بالعيس
مستخبرًا عن كميت اللون صافية ... قــد عتّقتها اناس في النواويس
مرّ الزمان عليها فهو يخبر عن ... ما كان من آدم قدمًا وابليس
ترى الرهابين صرعى من مهابتها ... اذا بدت بين شماس وقسيس
تُتلى الاناجيل تعظيمًا اذا حضرت ... لهـا باشرف تسبيح وتقديس
لها احاديث تروجها اذا مُزجت ... في كأسها عن سليمان وبلقيس
لو ذاق منها غزال السرب مضمضةً ... لخاف مُرَّ سطاه ضيغم الخيس
يسعى بها من نصارى الدير بدر دجى ... يميس في فتية مثل الطواويس
فاصرف لها صرف خطب الدهر مقتنصًا ... ونادم الشمس مع تلك الشماميس(٢

وقد وصف الشعراء في خمريّاتهم رهبان النصارى وقسيسيهم باعتصار بنت الكروم والهينمة حول دَنّها بالصلوات وتلاوة المزامير. وهو قول عبد الصمد بن بابك في « عيسويّة » الخمر وتعليل الكؤوس « المزنّرة »:

هينَمَ القس حولها وتغنّى ... بمزامير دَنّها المزمار
ثم لما انتمت الى دين عيسى ... شُدَّ في حقو كأسها زنار(٣

وفي ضد ذلك احتج الاديب علي بن محمد المعروف بالاعمى الدمشقي الاصل . المصري المولد . الخراساني الدار . بعبَث القسيس بدنّ الخمر في ما زعمه من

١) عيون التواريخ للكتبي ٢٠ : ٢٢٧–٢٢٨ ، الخزانة التيمورية .
٢) ديوان التلعفري . الفاتيكان رقم ٣٦٠ ، ولهذه الابيات رواية اخرى محرفة وردت في المشرق (٥/٣/١٩٠٣ ص ٤٥٦) منسوبة غلطًا لبعض النصارى .
٣) ديوان عبدالله بن المعتز ، رواية الصولي ، باريس ٣٠٨٧ ، ص ١١٧

تفضيل الحشيشة عليها وقال:

وفيها معانٍ ليس في الخمر مثلها فلا تستمع فيها مقال مفنّد
هي البكر لم تُنكح بماء سحابة ولا عُصرت يوماً برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوماً بدنّها ولا قرّبوا من حانها كل ملحد(١

ومن طرائف الصفات النصرانية التي تفننوا باطلاقهـا على خمر الديارات « شراب القربان ». قال عبدالله بن المعتز:

اسكنوها في الدنّ من عهد نوحٍ كظلام فيه نهـار حبيسُ...
من شراب القربان يوصي بها الشما سُ خزّانَ بيتها والقسوسُ(٢

ومنها « بنت المذابح والقسوس ». قال عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجنّ:

تسقيك كأس مدامة من كفها ممزوجة بمدامة من ثغرها
بنت المذابح والقسوس كريمة لا يُستحى يوم الحساب بوزرها(٣

ومنها « ام الرهابين وبنت الديور » في قول حسام الدين الحاجري:

واستجلها عذراء مشمولة ام الرهابين وبنت الديور(٤

ومنها « ديريّة. وراهبية ». قال الببغاء من ابيات في دير الزعفران:

ولما دجا الليل استعاد سنا الضحى براحٍ نأت بالليل عن ظلماته
نصيبيّة ديريّة كاد كرمـها بجوهرها ينهلُّ قبـل نباته(٥

وقال الثرواني من ابيات في قلاية القس:

فن قهوة حـيريّة راهبيّة عتيقة خمس او تزيد على خمسِ(٦

ومنها «بنت قسيس». قال علي بن اسماعيل من شعراء الخريدة من قصيدة:

قم قبل تأذين النواقيسِ واجل علينـا بنت قسيسِ(٧

ومنها « ابنة المطران » في قول صدر الدين بن الوكيل:

ودارت علينا الخمر حتى تملكت عقول رجـال مثلها ليس يُملَك

---

١) راحة الارواح في الحشيش والراح لتقي الدين البدري ، باريس ٣٥٤٤ ، ص ١١٧
٢) ديوان عبدالله بن المعتز المذكور اعلاه ، ص ١٠٩
٣) تباشير الشراب لابن المعتز . باريس ٣٢٩٩ ، ص ١٣
٤) حديقة الافراح للثرواني ص ١٤٩
٥) عيون التواريخ للكتبي . الخزانة التيمورية ، ص ٣٠٢
٦) مسالك الابصار ، ص ٣١٩
٧) خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٨ ، ص ١٣٥

فلما رأيت القوم بالكأس صُرّعوا   وان ابنة المطران بالقوم تفتك
أرَقتُ دم الراووق حِلًّا لانني   رأيت صليبًا فوقه فهو مشرك(١

وسمّاها سبط ابن التعاويذي مرة « بنت الشمامس والاساقف » في قصيدة مدح بها الخليفة المستضيء بامر الله وقال منها:

قم يا نديمي ملبّيًا   داعي الصبوح ولا تخالف
فاستَجْلِها كرخيّةً   بنت الشمامس والاساقف

وقال فيها مرة اخرى:

حمرآء تجلو ظُلم الاغباس   «ربيبة القسيس والشماس» (٢

ودعاها شرف الدين بن المستوفي الاربلي المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة « ذخيرة شماس وقسيس » بقوله:

قم فاسقنيها على صوت النواقيس   خمرًا ذخيرة شماس وقسيس(٣

وهلمّ جرًّا من امثال هذه النعوت النصرانية.

ومن الديارات التي اشتهرت خصوصاً بجودة خمرها . وكانت مقصدًا للتجار ومحطًّا للقوافل تنقل منها زقاق الشراب الى كل الانحاء والاقطار. دير ابا يوسف قريباً من بَلَد — مدينة قديمة فوق الموصل — كانت القوافل كل يوم « تحطّ عنده لتأخذ خمرًا . والمجّان تقصده للتنزه فيه بطنابيرهم وعيدانهم وسائر ملاهيهم». (٤ ومنها عمر الزعفران «شرابه معروف يُحمل الى نصيبين وغيرها». (٥ ومنها عمر احويشا وهو «في نهاية العمارة وحسن المواقع وكثرة الفواكه والخمور. ويحمل منه الى اسعرت وارزن». (٦ ومنها دير العذارى بجانب الملث بين سامرّا وبغداد. ودير سابُر في الجانب الغربي من دجلة. ودير جرجس بالمزرفة على شاطئ دجلة ودير سرجيس بطيرناباذ بين الكوفة والقادسية. ودير زرارة بين الكوفة وحمام

١) النهج السديد المفضل بن ابي الفضائل. باريس ٤٥٢٥ ، ص ١٨٣
٢) ديوانه ، ص ٢٨٣ و٤٨٥
٣) جزء من تاريخ في المكتبة الاحمدية بحلب منسوب للصلاح الصفدي
٤) مسالك الابصار ، ص ٣٠٢
٥) الديارات للشابشتي ، ص ٨٣
٦) الديارات للشابشتي ، ص ٨٦

اعين . ودير اشموني بقطربُل . ودير قوطا بالبردان على شاطىء دجلة.[1] ودير الطور ما بين طبرية واللجون. «وحوله كروم يعتصرونها فالشراب عندهم كثير».[2]

ويُناسب الى دير اكمُن او اكمل على راس جبل بالقرب من الجودي الخمر الموصوف. فهو النهاية في الجودة. وقيل انه لا يورث الخمار.[3] وهو من اغرب المزاعم التي اطرأت شهرة الخمور النصرانية.

وبالاجمال ندر ان يكون دير من الاديار غير مختص بنوع من الاشربة يُتَّجر بها. ومنها في الغالب كان اكثر انتفاع الرهبان، في ما خلا الاثمار والرياحين والازهار .

---

١) مسالك الابصار، ص ٢٥٨ ؛ وديارات الشابشتي ، ص ٢١ ، و٢٧، و١٠٣ ، و١٠٧ و١٨-١٩

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٥

٣) معجم البلدان ، طبعة مصر ١٩٠٦ ، ٤ : ١٢٤

التحايا

التحايا جمع تحية بمعنى التحفة والطرفة . وهي على هذا الوجه غير واردة في معاجم اللغة . وفي الشابشتي في كلامه على دير درمالس (رومانس) « حضر من احداث الموضع من كان يقضي لنا الحاجة ويجيئنا بالطرفة والتحية .»[1] واكثر ما تطلق على الطاقة من الازهار والرياحين التي يُحيا بها الندماء . وتُزيَّن بها مجالس الشراب . ومنها بيت الثرواني :

وان اتتا حيَّيتاني تحية فلا تعدُوَا ريحان قلَّاية القسّ[2]

ونظيره قول ابي الفرج البَّبغاء في النرجس :

ونرجس لم يعدُ مبيضُه الكأ س ، ولا اصفره الراحا
كأنما تُهدي التحايا به لطفًا الى الارواح ارواحا[3]

وفي هذا المعنى لابي اسحق الصابئ يصف مجلس أنس شبَّهه بالمعركة :

كأن رجوم تحايامُ سهامٌ على الجيش منها نثار[4]

وفي الاغاني لابي الفرج الاصبهاني: « قالت ريّق كنت يوماً بين يدي الرشيد وعنده اخوه منصور وهما يشربان. فدخلت اليه خلوب جارية لعليَّة (اخت الرشيد) ومعها كأسان مملوءتان وتحيَّتان. ومع خادم يتبعها عود فغنتها قائمة. والكأسان في ايديها. والتحيتان بين ايديهما .»[5]

ولمحمد بن بشير يهجو يوسف بن جعفر بن سليمان :

ريحانه بدم الشباب ملطَّخ وتحيَّة الندمان لطم العين[6]

ولما خرج المأمون ونزل الدير الاعلى بالموصل وجاء عيد الشعانين « زُيِّن الدير في ذلك اليوم باحسن زيّ . وخرج رهبانه وقسأنه الى المذبح وحولهم فتيانهم

١) الديارات للشابشتي ، ص ٢
٢) معجم البلدان ٤: ١٥٦
٣) اليتيمة للثعالبي ، طبعة مصر ، ١: ٢٢٨
٤) اليتيمة للثعالبي ، طبعة مصر ، ٢: ٢٢٧
٥) الاغاني ٩: ٨٧-٨٨
٦) الاغاني ١٢: ١٣٤

بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة. فرأى المأمون ذلك فاستحسنه. ثم انصرف القوم الى قلاليّهم وقربانهم. وعطف الى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وقتهم. وبايدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب. فادناهم وجعل يأخذ من هذا ومن هذه تحية وقد شغف بما رآه منهم.»[1]

ومن شواهد اطلاق التحايا على هدايا الفواكه والتفاح قول ابي خالد الكاتب وقد اجتاز بدير مِحلّى ومعه ابو زرعة الدمشقي الشاعر: «ثم اتانا الرهبان بتحايا الورود والياسمين والتفاح واخرجوا الينا شراباً عتيقاً في نهاية الصفاء والرقة.»[2] ومثله ما رواه ابن عبد ربّه عن الفضل بن يحيى ان طفيلياً من اهل المدينة دخل عليه وبيد الفضل بن يحيى تفاحة «فالقاها اليه وقال: حيّاك الله يا مدنيّ. فكزمها واكلها. فقال له: شؤم عليك يا مدني. أتأ كل التحيات.»[3]

وكان في الحيرة غلمان يرتزقون من حمل الفاكهة وبيع التحيات. منهم حُنين ابن بلّوع المغني المشهور «قيل كان لطيفاً في عمل التحيات فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه استحلوه واقام عندهم وخفّ لهم.»[4]

وقد يراد بالتحية مجرّد الهدية من الطرائف والنفائس: «حدّث سعيد بن يوسف قال: كنت اتقلد خزائن الكسوة. وكان اذا امر المعتز ليونس (بن بُغا) بشيء اخذت له اجلّ ما في الخزائن واحسنه... فقلت له يوماً: يا سيدي انا عبدك وموفر لمالك. وانت تشرّف مسروراً المعتصمي بالتحية الحسنة مما يكون بين يدي امير المؤمنين. وانا فلا تشرفني بمثل ذلك. فقال الليلة نوبتك.»[5]

---

١) الديارات للشابشتي، ص ٧٦
٢) مسالك الابصار، ص ٢٢١
٣) العقد الفريد. المطبعة الازهرية. مصر سنة ١٣٢١، ٣: ٢٧٦
٤) الاغاني، طبعة الدار، ٢: ٣٤٥
٥) الديارات للشابشتي، ص ٧٣

وكان يقال قديماً لمثل هـذه التحيات التي يُزيَّن بها مجالس الشراب العِمارة والعمار. وفسروا بها في احد الوجهين قول الاعشى:

فلما اتانا بُعَيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا[١]

قال ابن منظور: «العمار هنا الريحان يُزيَّن به مجلس الشراب وتسميه الفرس ميوران. فاذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه بايديهم وحيَّوه به.»[٢] ومن هنا يُعلم ان عادة اتخاذ الورود والرياحين للشرب عليها والتحية بها كانت في الجاهلية وسبقت الاسلام. ومنها قول النابغة الذبياني في مدح آل جفنة النصارى:

رقاق النعال طيّبٌ حُجزاتهم يُحيّون بالريحان يوم السباسب

اي يوم الشعانين. ولاعشى قيس في قصيدتهِ «وَدِّع هريرة ان الركب مرتحل» ابيات ذكر فيها غدوه الى الحانوت اي بيت الخمار:

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

واتبعها بقوله:

نازعتهم قُضُب الريحان متكئاً وقهوة مزّة راووقها خَضِل[٣]

وله ايضاً يصف مجلس الشراب:

وشاهدنا الورد والياسمين والمسمعات بقصّابها[٤]

وفي حديث حسّان بن ثابت ان جبلة بن الايهم كان «اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والورد والياسمين واصناف الرياحين.»[٥]

ولابن سيحان من شعراء الاغاني:

أُمسي أُعاطيه كأساً لذّ مشربها كالمسك حُفَّت بنسرين وريحان[٦]

ولم يكن مثل هذا التجمّل بالرياحين والازهار وطرحها على بساط المدام نصيب الاغنياء والمترفين فقط. بل اصبح في الاسلام رسماً للفتوّة لا يخلّ به اشقى الفقراء والمعدمين. روى ابو الفرج الاصبهاني قال: «دعا الاخطلَ شاب من

١) نكت الهميان للصفدي، ص ٧
٢) لسان العرب ٦: ٢٨٣
٣) الاغاني ٨: ٩٩
٤) التذكرة الحمدونية. باريس رقم ٣٣٢٦، ص ١٠٥
٥) التذكرة الحمدونية. باريس رقم ٣٣٢٦، ص ١٠٧
٦) الاغاني، طبعة الدار، ٢: ٢٦٠

شباب اهل الكوفة الى منزلهِ فقال له: يا ابن اخي انت لا تحتمل المؤونة وليس عندك معتمد. فلم يزل به حتى انتجعه فاتى الباب فقال يا شقراء . فخرجت اليه امرأة. فقال لامه: هذا ابو مالك قد اتاني. فباعت غزلًا لها واشترت له لحماً ونبيذًا وريحاناً. فدخل خصاً لها فأكل معه وشرب. وقال في ذلك شعرًا.»[1]

وفي حديث علي بن امية قال: دخلت يوماً على عمر الميداني. وكان له بقال على باب داره ينادمه ولا يفارقه ويقارضه اذا اعسر . . . فقال لنا عمر: معي اربعة دراهم تعطوني منها لعليق حماري درهماً والثلاثة لكم فكلوا بها ما احببتم وعندي نبيذ وانا اغنيكم. والبقال يحضرنا من الابقال اليابسة في حانوته. فوجهنا بالبقال فاشترى لنا بدرهم فاكهة وريحاناً. وجاءنا من حانوته بجوانح السكباج ونقل.»[2]

وقد بلغت عادة التحيات في الاسلام الغاية من البذخ والترف فكان الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة يتفننون في تزيين مجالس شرابهم باطايب الفواكه ونوادر الرياحين والورود. ويغالون في الانفاق والتبذير، كما حكاه ابو جعفر بن حمدون وهو شاهد عياني، قال:

«كنا نشرب مع الراضي بالله يوماً في مجلس مغنى بالفاكهة الحسنة الفاخرة. فعرض بالجلوس فقال : افرشوا لنا المجلس الفلاني واطرحوا فيه ريحاناً ونيلوفرًا فقط. طرحاً فوق الحصر بلا اطباق ولا تعبية في مشامّ كما تفعل العامّة. وعجلوا ذلك الساعة لننتقل اليه . قال فلم تكن الا لحظة حتى قالوا له قد فرغنا من ذلك. فقال لنا قوموا. فقمنا معه. فلما رأى المجلس قال للشرابيّة: غيّروا لون هذا الريحان بشيء من الكافور يُسحق ويُطرح فوق. فليس هو مليح هكذا . قال فاقبلوا يجيئون بصواني الذهب فيها الكافور الرباحي المسحوق ارطالًا ويطرح فوق الريحان وهو يستزيدهم الى ان صار الريحان كالمغطّى ببياض الكافور. وكأنه ثوب اخضر قد نُدف عليه قطن رقيق. او روضة سقط عليها ضرائب الثلج. فقال حينئذٍ: حسبكم. قال فقدرت ما استعمل من الكافور كان اكثر من الف مثقال بشيء كثير. فشربنا عليه. فلما قام امر بنهبه. فاخذ غلماني منه مثاقيل كثيرة لانهم

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٧ : ١٨٥

٢) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٢٠ : ٦٦

كانوا في جملة الخدم والفراشين والغلمان الذين نهبوا ذلك.»[1]

وروى القاضي ابو علي التنوخي قال: «شاهدنا نحن ابا محمد المهلبي في وزارته وقد اشترى في ثلاثة ايام متتابعة وردًا بالف دينار فطرحت في بركة عظيمة كانت له في دار كبيرة تعرف بدار البركة. وشرب عليه ونُهب. وكان في البركة فوّارة حسنة فطرح الورد فيها وفرشه في مجالسه. وكان لذلك شرح طويل. وشرب ابو القاسم بن ابي عبدالله البريدي بالبصرة على ورد بعشرين الف درهم في يوم واحد على رخصه هناك واسترخاص السلطان لما يشتهيه.»[2]

ومن اغرب ما كان يُتخذ من الرياحين والازهار في مجالس الشراب والحانات قُضُب كانت تجعل خلف آذان السقاة والشاربين. او تُعقد منها اكاليل توضع فوق رؤوسهم. ولذلك قال ابو دلف العجلي مفتخرًا:

يومًا تراني على طمرٍّ   ترهبني الأجبلُ الرواسي
ويوم لهوٍ احثّ كأسًا   وخلف اذني قضيب آس[3]

ومثله قول ابن المعتز في وصف ساقٍ:

وطاف بها ساقٍ اديب بمثزل   كخنجر عيّار صناعته الفتك
وحمّل آذريونة فوق اذنه   ككأس عقيق في قرارتها مسك[4]

وله ايضاً في الساقي المكلّل بالآس المرصّع بصنوف الريحان:

عليه اكليل آسٍ فوق مفرقهِ   قد رصّعوه بانواع الرياحين[5]

وقد جمع ابو نواس بين «تحيّات الندامى» و«أكاليل الرياحين» فقال:

الـذّ واشهى من قراع الكتائب   مصافحة الطاسات من كل جانب
واخذ تحيّات الندامى وردّها   بترحيب انس من حبيب وصاحب
ولبس اكاليل الرياحين معهم   وإنصات آذان الى شدوِ ضارب[6]

وله ايضاً في الاكليل او التاج:

---

١) نشوار المحاضرة للتنوخي، ص ١٤٤–١٤٥

٢) نشوار المحاضرة للتنوخي، ص ١٤٧

٣) مروج الذهب، جامش نفح الطيب، ٣: ٢٠٤

٤) ديوانه. باريس رقم ٣٠٨٧، ص ١١٢

٥) ديوانه. باريس رقم ٣٠٨٧، ص ١١٧

٦) ديوانه. باريس رقم ٤٨٣١، ص ١٠٥

كأنَّ اكليله تاج ابن مارية اذ راح متعصباً بالورد والآس(١

ومثله قوله في وصف ساق.

يدور بها ظبيٌ غريرٌ متوَّجٌ بتاج من الريحان ملك القراطق(٢

وله في ريحانة الاذن:

احسن عندي من انكبابك بالفهــر مُلِحًّا به على وتـد
وقوف ريحانة على أُذُن وسير كأس الى فمٍ بيد(٣

ونظيره قوله في ورد الآذريون:

بيدَيْ ساقٍ عليه حلة من ياسمين
وعلى الاذنين منه وردتــا آذريون(٤

ولابي بكر الصنوبري من ابيات:

لا اشرب الكأس الا من يدي رشإٍ مهفهف كقضيب البان ميَّاس
مورَّد الخد في قُمص مورَّدة له من الآس أكليل على الراس(٥

ومن اصدق تشبيهات التحيَّات في «اكاليل الرياحين» قول ابي عثمان الخالدي في وصف مجلس انس حضره:

والخمر تُجلى على خطَّابها فترى عرائس الكرم قد زُفَّت لازواج
وكلنا من اكاليل البهار على رؤوسنا، كانوشروان في التاج(٦

وفي لسان العرب ان مثل هذه الاكاليل التي اتخذها العرب عن العجم كانت تسمى العمار[٧].

وقد اشتهر الواثق بالله بحب المواخير وعقده حانتين احداهما في دار الحُرَم والاخرى على الشط. فلما فرغ منهما امر باحضار المغنّين والجلساء. والدنان « وكان يوضع على رأس الحضور اكاليل الآس وما اشبه من الرياحين. »[٨]

ومما تقدم تتبين حاجة الرهبان الى الإكثار من زراعة الورد والريحان والفواكه لبيعها في التحايا واصناف النقول في الحانات اللاحقة بالديارات.

١) ديوانه، طبعة مصر سنة ١٨٩٨، ص ٣٩٧
٢) ديوانه، طبعة مصر سنة ١٨٩٨، ص ٣٠٧
٣) خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦، ص ١٠٥ ٤) ديوانه، طبعة مصر، ص ٣٣٩
٥) معجم البلدان ١: ٦٦٨ ٦) يتيمة الدهر، طبعة مصر، ٢: ١٨٦
٧) لسان العرب ٣: ٤٣٠ ٨) مسالك الابصار، ص ٣٤٩

الزعفران

هو النبات المعروف . وزهره احمر الى الصفرة ، ذكي الرائحة . وكان يُتخذ للصبغ والدواء والطيب . وله في الشعر والحديث ودواوين اللغة عدة اسماء ومرادفات ، بينها المأنوس والوحشيّ :

١ الجاديّ والجاديا . قال الزمخشري : « نُسب الى الجادِيَة ، وهي من اعمال البلقاء . سمعت من يقول ارض البلقاء تلد الزعفران . »[١] قال بشار

باكرنَ عطر لطيمةٍ وغُمسن في الجاديّ غمساً[٢]

٢ الجَسَد والجِساد . يقال ثوب مُجسَد ومُجسَّد مصبوغ بالزعفران .[٣] ومنه لا تخرجن الى المساجد في المجاسد .[٤]

٣ الرادِن . يقال احمر رادنيّ اذا خالطت حمرته صفرة كالورس .

٤ الرَّدْع . او هو لطخ من الزعفران . وفي حديث عائشة : كُفّن ابو بكر في ثلاث اثواب . احد ثيابه ردع من زعفران ، اي لطخ لم يعمّه كله . ويقال قميص رادع ومردوع ومردَّع : فيه اثر طيب او زعفران .[٥]

٥ الرَّيهُقان . والرِقان والرقون . قال :

ومُسمعة اذا ما شئت غنَّت مضمَّخة الترائب بالرقان[٦]

٦ الزَّرْنَب . وفي حديث ام زرع : المسّ مسّ ارنب . والريح ريح زرنب . قال ابن الاثير في تفسيره هو الزعفران[٧]

٧ الحُصّ ومنه في احد القولين بيت عمرو بن كلثوم في الخمرة :

مشعشعة كأن الحصّ فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

---

١) اساس البلاغة ، طبعة الدار ، ١ : ١٦٢

٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ٣ : ١٦٩

٣) التاج ٢ : ٣٢٠

٤) اساس البلاغة ١ : ١٢٤

٥) التاج ٥ : ٣٥٢-٣٥٣

٦) التاج ٩ : ٢١٨

٧) التاج ١ : ٢٨٧

ومثله قول الاعشى في التشبيه: كأنه « يُطلّى بجصٍّ او يغشّى بعظلمِ »[1]

٨ العبير. قيل هو اخلاط من الطيب تُجمع بالزعفران . وقيل هو الزعفران وحده. قال الاعشى:

وتبرد بردَ رداء العروس ، في الصيف ، رقرقت فيه العبيرا

ولابي ذؤيب:

وسربٍ تطلّى بالعبير ، كأنه دماء ظباء بالنحور ذبيح[2]

ويظهر ان اول من صبغ ثوبه بالزعفران من العرب عامر بن جُشَم بن حبيب فلُقّب به وقيل له: ذر المجاسد.[3] واقتدى به سائر العرب. وعمّ صبغ الثياب واللحى بالصفرة. روى اسمعيل بن عبدالله بن جعفر عن ابيه قال: رأيت النبي وعليه ثوبان مصبوغان بالزعفران رداء وعمامة[4]. وعن زيد بن اسلم ان ابن عمر كان يصبغ لحيته بالصفرة حتى تمتلئ ثيابه من الصفرة . فقيل له لِمَ تصبغ بالصفرة فقال اني رأيت رسول الله (صلعم) يصبغ بها. ولم يكن شيء احب اليه منها. وقد كان يصبغ بها ثيابه كلها حتى عمامته[5]. وفي كتاب نوادر الإشراق في مكارم الاخلاق عن ابي عبدالله قال: ما من شيء احسن على الكعبة من الرياط السابريّ المصبوغ بالزعفران.[6]

وكان يُعَدّ مثل هذا الصبغ من التأنق والطيب ولذلك نهي في الحديث ان يتزعفر الرجل. وقال لا تلبسوا شيئاً من الثياب مسّه الزعفران ولا وَرْس[7]. وفي روايات الشيعة عن عمران الحلبي عن ابي عبد الله انه سُئل عن المُحرِم يكون به الجرح يتداوى بدواء فيه زعفران فقال: «ان كان الزعفران غالباً على الدواء فلا. وان كانت الادوية غالبة عليه فلا بأس». ورووا عن الصادق ، وهو لقب ابي

١) التاج ٢ : ٢٢٠

٢) لسان العرب ٦ : ٢٠٥

٣) التاج ٢ : ٢٢٠

٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ : ٢٨٥

٥) سنن ابي داود ٢ : ١١٤

٦) من مخطوطات الخزانة الملوفية ، رقم ١٦٩٣ ، ص ١٤٣

٧) صحيح البخاري ، بولاق ، ٧ : ٣٦ و٤٥

جعفر محمد بن علي بن الحسين ، انه قال : يُكرَه من الطيب اربعة اشيآء للمحرم: المسك . والعنبر . والزعفران . والورس[1] .

وانما رغبوا هذه الرغبة في الزعفران لذكاء رائحته . وحمرة لونه المائلة الى الصفرة . وكانت الصفرة احب شيء الى رجالهم ونسائهم . ولاعرابي في عجوز :

وما غرّني الّا خضاب بكفها وكحل بعينيها واثوابها الصفر[2]

وقيل ان الخليفة معاوية كان يصفّر لحيته كأنها الذهب.[3] وكان الامراء والولاة والكبراء اذا خَلَوْا للشرب لبسوا المصبّغات الملونة ولا سيما الصفر قال الشعبي: لما ولي بشر بن مروان الكوفة كنت على مظالمه فأتيته عشيةً . . . فاذا بشر بن مروان عليه غلالة رقيقة صفراء وملاءة تقوم قياماً من شدة الصقال وعلى رأسه اكليل من ريحان.[4]

ومن الخلفاء الذين غالوا في التهوس بلون الصفرة وانفقوا عليه النفقات الطائلة المتوكل على الله. حدّث ابو محمد بن حمدون عن ابيه قال:

« ان المتوكل اشتهى ان يجعل كل ما يقع عليه عينه في يوم من ايام شرابه اصفر . فنُصبت له قبة صندل مذهبة مجلّلة بديباج اصفر . مفروشة بديباج اصفر . وجُعل بين يديه الدستنبو والاترج الاصفر . وشراب اصفر في صواني ذهب . ولم يحضر من جواريه الا الصُفر عليهن ثياب قصب اصفر . وكانت القبة منصوبة على بركة مرصّعة يجري فيها الماء . فامر ان يُجعل في مجاري الماء اليها الزعفران على قدر ليصفرّ الماء ويجري من البركة ففُعل ذلك وطال شربه فنفد ما كان عندهم من الزعفران . فاستعملوا العصفر . ولم يقدّروا انه ينفد قبل سكره فيشتروا . فنفد . فلما لم يبقَ الا قليل عرّفوه وخافوا ان يغضب ان انقطع ولا يمكنهم قصر الوقت من شراء ذلك من السوق . فلما اخبروه انكر لِمَ لم يشتروا امرًا عظيماً

١) كتاب من لا يحضره الفقيه لابي جعفر محمد بن بابويه القمّي ، رقم ١٧٠٣ من الخزانة الملوفية ، ص ٢٤٣

٢) العقد الفريد ٢ : ٩٢

٣) مجلد من تاريخ الاسلام للذهبي . خزانة اكسفرد Laud. or. 286, f°35ª

٤) الاغاني، طبعة الدار ، ٢ : ٢٤٩

وقال: الآن ان انقطع هذا تنغّص يومي. فخذوا الثياب المصفرة بالقصب فانقعوها في مجرى الماء ليُصبغ لونه بما فيها من الصبغ. ففُعل ذلك. ووافق سكره مع نفاد كل ما في الخزائن من هذه الثياب. فحُسب ما لزم على ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التي هلكت فكان خمسين الف دينار.»[1]

وهذا مثل من امثال شهوات الخلفاء الغريبة واقتراحاتهم في التبذير والاسراف وهي التي اتصف بها المتوكل خصوصاً في خلافته.

وكان الزعفران ايضاً من اهم مواد الطيب والزينة. تُمدح به النساء الحسان. ولذلك قال الشمّاخ بن ضرار:

بما شَرّق من زعفران وعنبر اطارت من الحسن الرداء المحبرا[2]

وما لبث النساء ان اتّخذنه لطلاء وجوههن. وربما سُمّي هذا الطلاء الغمرة. وفي الامثال: من خُدع بالغُمرة وقع في الغَمرة. اي في الشدة والمكروه. حكي ان ابن عبدل تزوّج امرأة من همدان. فلما دخل بها كرهها، فقال من ابيات:

واني قد دُليت على عجوز مـبرقعة مخضّبة البنان
تنفضّن جلدها، واخضرّ، الّا اذا ما ضُرّجت بالزعفران[3]

وهذا معنى قولهم: اهلك النساء الاحمران: الذهب والزعفران[4].

وربما سمي الزعفران عطر العذارى. قال العباس بن الحسن، وزير المكتفي والمقتدر، وقد التطخت اصبعه الوسطى بالمداد:

انما الزعفران عطر العذارى ومداد الدويّ عطر الرجال[5]

وانما خُصّص بهنّ لكثرة استعمالهن له. والّا فانه كان عطر الرجال كما سبق من ذكر تحريمه على المُحرِم. قال المنصور بن عامر:

ألم تَرَني بعتُ المقامة بالسرى، ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وبُدّلتُ بعد الزعفران وطيبه، صدا الدرع من مُستحكمات المسامر[6]

---

١) نشوار المحاضرة ١: ١٤٦–١٤٧
٢) زهر الآداب للحصري، بهامش العقد الفريد ١: ٢٤٠
٣) الاغاني، طبعة الدار ٢: ٤١٩
٤) كتاب البخلاء للجاحظ. طبعة ليدن ص ١١٧
٥) الوافي بالوفيات للصفدي، خزانة بريتيش موزيوم Add. 2358 f° 9b
٦) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر ٢: ٥٤

ولذلك كان يُستصحب في الاسفار ويُستصلح للهدايا حتى للاعراب وساكني الخيام. قيل خرج عبدالله بن جعفر يريد الشام فألجأه المطر الى ابيات فقَراهُ رجل فيها ليلتين فاراد مكافأته. فدعا بثوب فجعل فيه زعفراناً وصرَّ في طرفه منه مئة دينار ثم بعث به الى اهل الرجل . فابوا قبوله.[1] وكان لكثرة ما تهدي منه الوزراء واصحاب الثراء يُطحن كما يطحن الدقيق. حكى ابو عبد الله احمد ابن الاصبغ قال: «كنت اتصرف مع سليمان بن وهب (الوزير العباسي) لقرابة كانت بيننا من جهة النساء. وكانت حالي بصحبته في نهاية السعة حتى انه كان يطحن الزعفران في داري كما يطحن الناس الدقيق لكثرة ما يجيئنا من الجبل ونستعمله ونهديه.»[2] ويعني بالجبل هنا كورة اصبهان . واكثر ما كان يُستعمل الزعفران في تركيب الخلوق. وهو نوع من الطيب مائع اعظم اجزائه الزعفران. يقال: خلَّقه وتخلَّق الرجل اذا تطيب بالخلوق ولابن المعتز في التشبيه

او عروس قد ضُمِّخت بخلوق فهي صفراء في قميص حُباب[3]

وربما طيبوا بالخلوق بعض الاحجار تكريماً. قيل «وفي سنة ٦٦٠ (١٢٦٠م) ظهر في مصر تجاه حوض الجامع الاقمر حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى عليه السلام. فخُلِّق بالزعفران وسمي من ذلك اليوم بالركن المخلَّق.»[4] ومن هذا القبيل تخليق عمود مقياس النيل اذا بلغ الوفاء ست عشرة ذراعاً ويحصل لاهل مصر به فرح عظيم «ويُتخذ ذلك اليوم عيدًا يركب فيه السلطان بعساكره وينزل في المراكب لتخليق المقياس. ويجتمع الناس من كل الانحاء للفرجة . ويجري من الطرب والتهتك ما لا مزيد عليه. ولذلك قال شهاب الدين بن العطار مورِّياً الى الستر الذي كان يُسبَل على شباك المقياس للتبشير بوفاء النيل:

هنَّأت الخلق بالتخليق ، قلت لهم : ما احسن الستر ! قالوا: المنو مأمول !

ستر الإله علينا لا يزال فما احلى تهتكنا والستر مسبول »[5]

---

١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ ، مصر ، ص ٨٥-٨٦

٢) نشوار المحاضرة ٨ : ٦٦

٣) زهر الآداب للحصري ، بهامش العقد الفريد ، ١ : ٢٠٧

٤) الخطط للمقريزي ، مطبعة النيل ، ٢ : ٢٤٨

٥) الخطط للمقريزي ، مطبعة النيل ، ٣ : ٩٧ و ٢٠٠

وفي سنة ٨٥٥ وفى النيل ست عشرة ذراعاً فنزل المقام الفخري عثمان ابن السلطان في وجوه الناس وخلّق المقياس. وكان هذا اليوم من الايام المشهورة لغاية سرور الناس بوفاء النيل وخلّق الناس بعضهم بعضاً بالزعفران[1].

ولما عاد الملك الظاهر برقوق الى مصر سنة ٧٩٣، في سلطنته الثانية، طلع الى القلعة ودخل الى الدور السلطانية. قال ابن تغري بردي: فاستقبلته المغاني والتهاني وفرشت الشقق الحرير تحت اقدامه ونثر على رأسه الذهب والفضة. هذا وقد تخلّق غالب اهل القلعة بالزعفران[2].

وفي سنة ٨٨٦ عزل السلطان قايتباي كاتب السر ابن مزهر. ثم رضي عليه، واعاده الى منصبه، وخلع عليه. «فنزل من القلعة في موكب حافل وتخلّق جماعة بالزعفران وزيّنت له حارته.»[3]

وفي سنة ٩٠٢ لما ثبت رشد السلطان الناصر ابي السعادات ابن الملك الاشرف قايتباي ضربت البشائر بالقلعة وتخلّق جماعة بالزعفران.[4]

ومما تقدم يتبين ان العادة كانت لا تزال باقية حتى اوائل القرن العاشر للهجرة ان يتخلق الناس بالزعفران في بعض المواسم والاعياد والافراح.

وكان الطهاة قديماً يكثرون اتخاذ الزعفران في جملة الابازير التي تُطيّب بها الاغذية والقدور، وتُصبغ بها الحلواء لموائد الخلفاء والمتنعمين.[5]

وقد مرَّ بنا قبلاً ان الزعفران كان يجيء بكثرة من كورة اصبهان وهو من مفاخرها. قال بعضهم يذكر محاسن اصبهان آسياً على فراقها:

ولها الزعفران، والعسل الما ذيّ، والصافنات تحت الجلال

ولذلك قال الحجاج لبعض من ولّاه اصبهان: قد ولّيتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران.[6] واشار ابن رسته الى فضل زعفران اصبهان

---

١) حوادث الدهور مدى الايام والشهور لابن تغري بردي، ليدن، ١ : ١١١

٢) النجوم الزاهرة ٥ : ٥٤٥

٣) ابن اياس ٢ : ٢٠٦   ٤) ابن اياس ٢ : ٣١١

٥) كتاب الطبيخ وإصلاح الاغذية المأكولات لابي محمد المظفر بن نصر الوراق. خزانة اكسفرد Hunt. 187 f°13-14

٦) معجم البلدان ١ : ٢٩٤

على سواه فقال: «وبها من الزعفران الذي وان كان في غيرها من البلدان موجودًا فان فضله على كل ما في سائر المواضع ظاهر لانه اذكى رائحة وابين نفعًا واشبع صبغًا في كل ما يستعمل . ولا يبتاع في شيء من المواسم والاسواق التي يُجلَب اليها منه شيء ما دام يوجد زعفران اصبهان.»[1]

ومن مدائن الجبل التي اشتهرت بوفرة زعفرانها قُمّ . قال جعفر بن جرار كاتب ابن طولون:

تسحب ذيلين من خلوق قد أفنيا زعفران قُمّا
كانما أُغنِيَا عليها من طيب ما باشرا وشمّا
فأَلفَيَا زعفران قُمّ فانقمسا فيه واستحما[2]

ومنها مدينة همذان. قال بلديّها محمد بن بشار يفتخر:

بلد نبات الزعفران ترابه وشرابه عسل بماء قِنان[3]

وروى البشاري المقدسي ان بنَهاوَنْد وروزراوند من اقليم الجبال مزارع الزعفران.[4] وكان في بلاد الروم مدينة صغيرة اسمها كَيْنُوك، اجتاز بها ابن بطوطة قال: «ونزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابّان الثلج والشتاء . فاحسنّا اليها وبتنا عندها تلك الليلة . وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب . ولا يُزدرع بها الّا الزعفران. واتتنا هذه العجوز بزعفران كثير. وظنّت اننا تجار نشتريه منها.»[5] وكان في كيليكيّة من بلاد الارمن نوع فاخر من الزعفران يُحمل الى المغرب لرغبة المصوّرين فيه.[6] ومن الشرق دخل الزعفران اسبانية ، وكثر فيها وفي ايطالية ، حتى كان يحمل منها الى شتى الاقطار. وازدُرع ايضًا في افريقية ، وعُدّ في جملة ما يرتفع منها من التجارات.[7]

ومن اجل هذا الرواج الشديد في كل الاسواق على الزعفران وكثرة الحاجة

---

١) الاعلاق النفيسة ، ص ١٥٧
٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣: ١٢٨ و٢٩٦
٣) معجم البلدان ٤: ٩٨٢
٤) احسن التقاسيم ، ص ٣٩٢
٥) رحلته ، طبعة وادي النيل ، بمصر ، ص ١٨٩
٦) W. Heyd. *Histoire du commerce du Levant*, II, p. 668
٧) احسن التقاسيم ، ص ٢٣٩

اليه كان من هم الديارات العناية به في جملة مزروعاتها. كدير الكَلْب بنواحي الموصل. ودير مرّان بدمشق. ذكر ابو الفرج الاصبهاني الخالدي انه كان على قلعة مشرفة على مزارع الزعفران. وكدير مار ماروثا بظاهر حلب. واشهر الاديار التي كانت متخصّصة به دير على رأس جبل مطلّ على نصيبين كان فرش ارضه من الزعفران. وسمي لذلك بدير الزعفران. قال الخالدي وشعر زعفرانه فائق. ومنه ومن العسل اكثر يسار رهبانه.[1]

ويظهر ان زراعة الزعفران قلّت او انقطعت في بعض المدن والديارات على اثر ما حلّ بها من الدمار والخراب. ولذلك كان تجار الزعفران يستجلبونه من جنوة في ايطالية، وبرسلونة في اسبانية. وكان الجنوي يفضل سائر الاجناس ولذلك كان يُقلّد كثيرًا ويُغشّ. قال الفقيه ابو عبدالله محمد بن العبدري المشهور بابن الحاج المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٧ (١٣٣٦/٧ م):

«من المفاسد ما يفعله بعضهم. وهو انهم يأخذون الزعفران الجنوي والبرشنوني والهمداني ويخلطون الجميع ويبيعونه على انه كله جنوي. وذلك لا يجوز لان الجنوي يرغب فيه اكثر من غيره.»[2]

---

١) مسالك الابصار، ص ٢٥٤–٢٥٥ و٣٠٥،٣٢٣،٣٢٥

٢) كتاب المدخل ٣: ١٢٤–١٢٥

دور الضيافة

اشتهرت الاديار في الجاهلية بايواء المجتاز بها . وضيافة اللاجىء اليها . والاحسان الى كل طارق محتاج . ولم يكن فيها وقتئذٍ دور خاصة بالضيافة بل كان نزول الاضياف في بعض الحُجَر فيها والقلالي . ثم جاء الاسلام فاوجب على النصارى في جملة الرسوم التي اراد بها إذلالهم « ان لا يمنعوا كنائسهم من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار . »[1] وروى القاضي ابو يوسف ، صاحب الامام ابي حنيفة ، ان ابا عبيدة بن الجراح لما صالح اهل الشام اشترط عليهم ، في جملة الشروط ، ان يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام.[2] فلم يكن من ثم بدّ من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل. ثم كثر الاضياف والمتنزهون والمتطرّحون في الديرة لمعاقرة الخمر ، والتبسّط في القصف والطرب . وتفاقم الداء بصحبة الجواري والخطايا لفريق من الامراء والمتطرفين واهل البطالة. وتأذّى الرهبان بمثل هذا الاختلاط ، فاعوزت الحال الى بناء دور وحُجَر لهم خاصة ، الى جانب الاديار ، ينزل فيها كل من يغشاها من الناس والمسافرين. وتُقام لهم فيها الضيافات على اقدار كل منهم. وكانت هذه البيوت تُقام احياناً فوق القلالي والكنيسة ، وهو ما يؤخذ من قول الخالدي في كلامه على عمر الزعفران « لهذا الدير بيوت للضيافة في علو الهيكل. »[3]

ومن الديارات التي نُصَّ على وجود بيوت للضيافة فيها :

١ « دير باعربا بين الموصل والحديثة. فيه بيت ضيافة ينزله من يجتاز به»[4]

٢ « دير باريشا بارض الموصل. قال الخالدي: رأيته في بعض السنين وكان به راهب يقال له كوريال (جبريال ؟) فاضافنا احسن ضيافة . واكرمنا غاية

١) جزء فيه بيان ما يلزم اهل الذمّة فعله ليقع التمييز بينهم وبين المسلمين في ملابسهم وغير ذلك، لابي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء، من مخطوطات خزانتنا، عليه سماع بتاريخ ٤٣٧ (١٠٤٥ م)

٢) كتاب الخراج ، ص ١٦٥

٣) مسالك الابصار ، ص ٣٠٥

٤) مسالك الابصار ، ص ٣٠٠

الاكرام بالطعام الكثير والشراب العتيق الواسع وعلف الدواب واكثر. فعظم في عيني وعاتبته على الإسراف في فعله . فقال هذا والله رسمنا مع كل من ينزل بنا.»[1]

٣ دير مر يحنّا الى جانب تكريت. قال الشابشتي: «لا يخلو من المتطربين والمتنزهين ولا من مسافر ينزله . ولكل من طرقه من الناس ضيافة قائمة على اقدار المُضاف لا يُخلّون بها وعلى بابه صومعة عبدون الراهب رجل من الملكية بنى الصومعة ونزلها فصارت تعرف به . وهو الآن المستولي على الدير والقيّم به وبن فيه. وقد بنى الى جانبه بناء ينزله المجتازون فيقيم لهم الضيافة ويحسن لهم القرى.»[2]

٤ دير الاسكون . وهو « راكب للنجف . وفيه قلالي وهياكل ورهبان يقيمون الضيافة لمن ورد عليهم.»[3]

٥ دير مرّان بدمشق. اشتهر بضيافة ابي الفرج الببّغاء ، شاعر سيف الدولة ، والتجاء احد آل المادرانيين فيه حين خشي الافلاس . واختبأ مع غلامه في قلّية منه « فضيّة الحيطان رخامية الاركان » استزار فيها ابا الفرج . وانقضت لهما فيها بين الطرب والهوى ليلة من ليالي الدهر خلّد البغاء ذكرها في حكاية له رصّعها بنثره الشائق وشعره الفائق . ونقلها الثعالبي في يتيمته وابن ظافر في كتابه بدائع البدائه . ومن مطالعتها يعرف ما كان يجري احياناً وراء حدران القلالي ودور الضيافة في البيع والاديار من المجون والجنون.

٦ «دير سمعان بظاهر انطاكية وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون.»[4]

٧ دير القاروص على جانب اللاذقية من شمالها . اغفل ذكره ياقوت ، ولم يُشِر اليه غير صاحب مسالك الابصار . قال ابن بطوطة في رحلتهِ: « هو اعظم

١) مسالك الابصار ، ص ٣١٤
٢) كتاب الديارات ، ص ٧٣-٧٤
٣) مسالك الابصار ، ص ٣١١
٤) معجم البلدان ٢ : ٦٧٢

دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق . و كل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه . وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكَبَر .»[1]

وكان بعض الاضياف ، ولا سيما من وجوه الدولة والامراء وذوي قرابة الخلفاء ، لا يبالون بابتذال مثل هـذه الابنية الرهبانية وإطلاق العنان فيها لشهواتهم في عشرة القيان والغلمان . واشتهر منهم ابو علي بن الرشيد بملازمة دير مرّيان ببغداد والشرب فيه . « وكان له قيان يحملهنّ اليه ويقيم به الايام لا يفتر عزفاً وقصفاً وكان شديد التهتك . وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونه منه . »[2]

ونظير ذلك ما كان يجري في دير الزندورد . « حكى عبد الواحد بن طرخان قال : خرجت الى دير الزندورد في بعض اعياده متطرّباً متنزّهاً ومعنا جحظة في جماعة من اخواني . فنزلنا موضعاً حسناً . ورافقنا هنالك جماعة من ظراف بغداد . لجميعهم معشوقات حسان الوجوه والغناء . فاقمنا به اياماً في اطيب عيش . وقال جحظة فيه شعراً . ذكر الدير وطيب الوقت ومن كان معنا وغنّى فيه لحناً حسناً وهو :

سقياً ورعياً لدير الزندورد ، وما يحوي ويجمع من راح وريحان
دير تدور به الاقداح مُترعةً من كف ساقٍ مريض الطرف وسنان
والعود يتبعه نايٌ يوافقه ، والشدو يحكمه غصن من البان
والقوم فوضى ، ترى هذا يقبّل ذا وذاك انسان سوء « جنب » انسان[3]

ومن اقبح ما كان يجرّه على الاديار والكنائس العهد القاضي بايواء كل مسلم عابر سبيل نزول بعض اللصوص والفُسّاق ، وارتكابهم فيها المحرّمات والكبائر . وإفساد بعض المترهبين والمترهبات . كأبي الطمحان القيني « قيل له — وكان فاسقاً خارباً — ما ادنى ذنوبك . قال ليلة الدير . قيل له وما ليلة الدير .

---

[1] مسالك الابصار ، ص ٣٣٦ ؛ ورحلة ابن بطوطة ، مطبعة النيل ، ١ : ٤٧
[2] الديارات للشابشتي ، ص ١٣
[3] مسالك الابصار ، ص ٢٧٤

قال نزلت بديرانية فأكلت عندها طفشيلاً[1] بلحم خنزير . وشربت من خمرها وزنيت بها وسرقت كساءها . ثم انصرفت عنها .»[2]

وقريب منه ما فعل عبَّادة المخنَّث « كان لما نفاه المتوكل الى الموصل يمضي الى دير الشياطين (غربي دجلة من اعمال بَلَد) فيشرب فيه ولم يكن يفارقه . فهوي غلاماً من الرهبان بالدير . وكان من احسن النـــاس وجهاً وقدًّا . فهام به وجُنَّ ولزم الدير من اجله . ولم يزل يخدمه ويلاطفه ويعطيه الى ان سلخ الراهب عن الدير وخرج معه . وفطن رهبان الدير بعبادة وما فعل من إفساده الغلام فارادوا قتله بان يرموه من اعلى الدير الى الوادي . ففطن بهم وهرب ولم يعد الى الموضع . »[3]

ولاحمد بن ابي طاهر يذكر ليلة قضاها في دير السوسي :

سقى سُرَّ من را ، وسكانها ، وديرًا لسوسيِّها الراهب
فقـد بتُّ في ديره ليلة وبدر على غصن صاحبي
غزال سقاني حتى الصبا ح صفراء كالذهب الذائب
سقاني المدامة مستيقظًا ونمت ونام الى جانبي
فكانت هنات لي الويل من جناها الذي خطَّه كاتبي[4]

ولعل هذه الهنات من التخيلات التي يهيم بها الشعراء في اودية الشعر او من قول ما لا يفعلون . ولا ريب ان كثيرين من اضياف الديارات كانوا لا يرون اقل حرج على من شاء منهم الاستسلام للشهوات واتيان انواع المنكرات :

« متى » يحل على دير ابن كافرة من النصارى ببيع الخمر مشهور[5]

١) الطفشيل نوع من المرق وضبطه في تاج العروس بتقديم الياء على الشين كسميدع والصواب ما حكيناه . قال ابو نواس يهجو رجلاً :

لو كنتَ لونًا كنت طفشيلةً او طائرًا اصبحتَ مكّاء

(ديوانه . باريس ١٨٢٩ ، ص ٢٩٠)

وقال ابو شراعة ، احد شعراء الدولة العباسية :

عينيَّ جودي لبرمة الطفشيل ، واستهلّي فالصبر غير جميل (الاغاني ٢٠ : ٢٩)

٢) الاغاني ١١ : ١٣٣

٣) الديارات للشابشتي ، ص ٧٩

٤) مسالك الابصار ، ص ٣٦٣

٥) مسالك الابصار ، ص ٣١٣

حانات الديارات

كان إلحاق الحانات بالديارات لا شك بعد الاسلام . أنشئت فيها على اثر اعتياد المسلمين ابتياع الخمور من الرهبان ، وطروقهم القلاليّ حتى في ظلمات الليل ، واختلاطهم بهم في اوقات العبادات والصلوات . فلم يروا بدًّا من التحوّط والتصوّن . وعزلِ مستودعات الشراب بمنأى عن الهياكل والمعابد . وجعلها في حيّز المعاصر . وقد اخطأنا التوفيق في البحث عن وصف لمشتملات الحانات في نثر او شعر . او ايماء . الى كيفية بنائها ووجه استغلالها . ويستدلّ من بعض الروايات ان طائفة من الاديار والقلالي بقيت مع ذلك تحفظ الخمر في مخادع ضمن اسوارها وتبيعها رأساً لزوّارها ، وهو ما يستفاد من قول القائد ابي عبدالله محمد بن خليفة السنبسي ، احد شعراء سيف الدولة صدقة بن دُبَيس :

ولربَّ دير قد قصدنا نحوه في فتية ، ناءٍ عن الاسواق
فطرقتُ بابهم . فقال كبيرهم : اهلًا بزائرنا ، وبالطُرَّاق
ومضى بعموله وغاب هنيهةً في مخدع ناءٍ وراء اغلاق
وأتى بها بكرًا تخال حبابها فوق الدنان نواظر الاحداق[١]

ومن الديارات التي اشتهرت بكثرة حاناتها :

١ « دير سابُر في الجانب الغربي من دجلة في بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والخمارين . »[٢]

٢ « دير جرجس بالمزرفة على شاطئ دجلة والبساتين محدقة به . والحانات مجاورة له . »[٣]

٣ دير سرجيس بطيرناباذ بين الكوفة والقادسية « كانت ارضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر . »[٤]

١) خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٦ ، ص ١١٧
٢) الديارات للشابشتي ص ٢١ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٧٩
٣) الديارات للشابشتي ص ٢٧ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨١
٤) الديارات للشابشتي ص ١٠٢ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨٤

٤ دير زرارة بين الكوفة وحمام اعين وهو « كثير الحانات والشراب.»[١]

٥ دير اشموني بقطربُلّ. وعيده اليوم الثالث من تشرين الاول... لا يبقى احد من اهل التطرب واللعب الا خرج اليه... ويعمرون شطّه واكنافه. وديره وحاناته.[٢]

٦ « دير قوطا بالبَرَدان على شاطئ دجلة. وهو يجمع احوالًا كثيرة منها. ان الشراب هناك مبذول والحانات كثيرة.»[٣]

ومن الغريب ان اديار النساء الرواهب كانت نفسها محفوفة بمثل هذه الحوانيت والخمارات باخطارها واضرارها. كدير العذارى بجانب العَلْث بين سامرًا وبغداد « كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات. لا يعدم من دخله ان يرى من رواهبه جواريَ حسان الوجوه والقدود والالحاظ والالفاظ. قال الخالدي: ولقد اجترت به فرأيته حسناً. ورأيت في الحانات التي حوله خلقاً يشربون على الملاهي... وانشد جحظة لنفسه:

قالوا: قميصك مغمور بآثار ... من المدامة، والريحان، والقار
فقلت من كان مأواه ومسكنه ... دير المذارى، لدى حانات خمّار
لم ينكر الناس منه ان حُلّته ... خضراء كالروض اوحمراء كالنار»[٤]

ولسنا نعلم هل كانت ادارة هذه الحانات تعقد احياناً لاحد رهبان الدير ام تُضَمَّن في الاعمّ الاغلب لبعض الخمارين. ولدينا نصوص لا تحتمل التأويل شاهدة بان من الحانات ما كان في ايدي القسوس والرهبان كالتي في دير مارت مريم بالحيرة. ذكر ابو الفرج الاصبهاني انه كان فيه قسّ يقال له يحيي خمّارًا وابن يقال له يوشع تألفه الفتيان الظرفاء.[٥] ومثله عُمر نصر بسامرّا وهو من متنزهات آل منذر بالحيرة. وكان الحسين بن الضحاك احد خلعاء الشعراء يألفه.» وكان

١) الديارات للشابشتي ص ١٠٧، ومسالك الابصار، ص ٢٨٦
٢) الديارات للشابشتي ص ١٨-١٩
٣) الديارات للشابشتي ص ٣٥
٤) مسالك الابصار، ص ٣٥٨-٣٥٩
٥) مسالك الابصار، ص ٢١٨ وفي المتن المطبوع: «كان قس يقال له يحيى بن حمار ويقال له يوشع» وفيه تشويش وتحريف ظاهر. والصواب ما صححناه.

الى جانبه خمّار يقال له يوشع. وله ابن امرد حسن الوجه شماس. فكان الحسين يتألف الخمار من اجل ابنه حباً له.»[1] وله في هذا العمر ابيات منها :

خمّار حانتها ، ان زرت حانته ، اذكى مجامرها بالعود والغار
يجتزّ كالغصن في سُلْب مسوَّدة كأن دارسها جسم من القار[2]

اي في ثياب سوداء كالقار. وهو ما يدل على ان الشماس كان يتولّى الحانة ايضاً. ولعله كان خازنها اي ،كما يقال اليوم ، امين صندوقها، مثلما كانت الحال في دير مرّان بدمشق حيث كان القس خمّارًا وابنه الشماس وزّاناً صيرفيّاً ، على ما ذكره ابن ابي حجلة الدمشقي في قصيدة قال فيها :

شمّاسه هو وزّان ومنتقد ، وقسّه هو خمّار وكرّام[2]

وقد صرّح ابو عبد الرحمن الهاشمي السلماني بان ساقيه كان ابن القسيس حيث قال :

سقاني ابن قسيسها كأسها على زورة من حبيب ألمّ[3]

ومعلوم ان القسوس في الشرق كانوا يتزوّجون دفعة واحدة في العمر . ولا تزال هذه العادة متّبعة في بعض القرى والمدن. وكان احدهم لا يؤهَّل للاسقفية او البطريركية الّا بعد وفاة امرأته . ومن اشهر من عُرف منهم البطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي، وكان في صحبته دائماً ابنه الشماس بولس. ولما كان لا بد لهم من القيام بأود اولادهم كانوا يضطرّون ، اذا قعدت بهم الحال احياناً ، الى اتخاذ بعض الحِرَف. ولذلك قام منهم عدة خمّارين لبيع خمور البِيَع والديارات.

وربما تولى احد رهبان الدير ادارة حانتهِ . وللحسن بن هانئ يذكر دير الأكيراح وان ساقي الراح في حانتهِ كان راهباً يلبس مدرعة صوف فوق مسح الرهبانية :

يا طيبهُ ، وعتيق الراح تحفتهم ، بكل نوع من الطاسات رحراح
يسقيكها مُدمَج المصرَين ذو هَيَفٍ اخو مدارع صوف فوق امساح[4]

---

١) معجم البلدان ٣ : ٧٢٥
٢) برق الشام . خزانة ليدن Arabe 1466, 64
٣) مسالك الابصار ص ٣٢٩
٤) ديوان ابي نواس . خزانة الفاتيكان ، رقم ٤٥٦ ، ص ١٠٠

ويُنشد لابي العيناء في دير باشهرا على شاطئ دجلة. وفيه تصريح بان الساقي كان الربّان قسيس الدير:

نزلنا دير باشهرا على قسيسهِ ، ظُهرا
على دَيّنِ ايسوعٍ ، فما أفتى ، وما أسرى
فاولى من جميل الفضـ ـلِ ما يستعبد الحُرّا
وسقّانا وروّانا من الصافية العذرا
فطاب الوقت في الديـ ـر ، ورابطنا به عشرا
وسُقّينا به الشمس ، وأُخدمنا به البدرا
وأحيّت لذة الكأس ولكن قتّلت سكرا
ونلنا كل ما نهوا هُ من لذاتنا ، جهرا
تصابينا ، وغنّينا ، وأرغمنا به الدهرا
فتكنا ، وهتكنا ، ومثلي هتك السترا
وقد ساعدنا ربّا نُ طوعًا منه ، لا جبرا
جزاه الله عن خير بـه قابلنا خيرا
فقد اوسعته شكرًا كما اوسعنا برًّا (١

وفي قوله ان الربّان ساعده على لذّاته طوعاً شاهد على ما كان يقوم به احياناً بعض القسوس في خدمة الندامى من المجاملات المنكرة.

وللشعراء عدة ابيات تقدم بعضها ذكروا فيها استباءهم الخمر من ايدي الرهبان والراهبات ، فضلًا عن منادمتهم عليها بعض فتيان الدير وفتياته بالثياب السود والأمساح. ومنها لتاج الدين محمد بن حواريّ:

وربَّ ديرٍ طرقنا بابه سحرًا ، وللنواقيس في اعلاه اصوات
في فتية كالنجوم الزهر ، اوجهم منيرة اشرقت منها الدُجُنّات
فقال راهبه : من ذا ؟ فقلت له : قوم اليك لهم في الدير حاجات
فقام يسعى الى إكرامنا عجلًا وقال : بشرى لكم عندي المسرات
هُبّوا فما العيش الا ان يطوف على الـ ـندامى ، في الدير ، طاسات وكاسات(٢

ولا حاجة الى التنبيه على ان مثل هذه الاقوال المنسوبة الى الرهبان والقسوس في الاديار ليست الا من افانين الشعر التي يُراد بها التحسين والإغراب فلا يجب ان توخذ على ظاهرها.

١) الديارات للشابشتي ، ص ٣٢-٣٣
٢) الجزء العشرون من عيون التواريخ للكتبي. الخزانة التيمورية ، ص ٢٢٧-٢٢٨

ولابن الحكاك ابي الحسن بن محمود الخجندي الموصلي في دير سعيد :

رهبان دير سعيد بتُّ عندهم في ليلة نجمها حيران مرتبكُ
فجاء راهبهم يسمى ، وفي يده مدامة ما على شُرَّابها دَرَكُ
كالشمس مشرقها كأس ، ومغربها فم النديم ، وكفّ الساقي الفلكُ
ما زلت اشربها حتى زَوَت نشبي عني ، كما زُوِيَت عن فاطمٍ فَدَكُ
من كف اغيد تحكي الشمس طلعته ، في خده الورد والنسرين مندعكُ (١

ونظيره قول ابي الحسين محمد بن ميمون الكاتب في دير باقوقا . ذكره ابن المستوفي في تاريخ اربل :

نزلت بدير باقوقا ، وفيه من الرهبان لي خِدن مقيمُ
فالمقني بصهباء شمول يفوح بعنبرٍ منها النسيم
ونادمني برهبان ملاح وفيهم شادن حسن رخيم (٢

وفي منادمة الرهبان الملاح للشاربين المسلمين موضع نظر . ومثل هذه الدعوى لا شك من تخيلات الشعراء ومبالغاتهم المتادة .

ومن اقبح ما هنالك ان الساقي كان يكون حيناً ابنة قس الدير ، صاحب الحانة . روى العمري ان الفضل بن اسمعيل بن صالح بن عبدالله بن العباس نزل يوماً دير يونس مقابل الموصل « فرأى فيه حسناء ابنةً لقسّ كان فيه فخدمته مدة مقامه ثلاثة ايام . وجاءته بشراب صافٍ عتيق . فلما اراد الانصراف اعطاها عشرة دنانير ورحل . وقال في طريقه ابياتاً اولها :

عليك سلام الله ، يا دير ، من فتًى بهجته شوق اليك طويل

وآخرها :

ايا ابنة قسّ الدير قلبي مدلّه عليك ، وجسمي مذ بعدت عليل (٣

وللشهاب العمري حين زار الدير الابيض من الديارات السبعة في مصر ابيات نظمها فيه ، وذكر ان ساقيتهُ كانت من بنات القسوس فقال :

وكأس المدام علينا تطوف بحمراء صافية كاللهَبْ
يطوف بها من بنات القسو س باخلة الكفّ ليست تَحَبْ

---

١) التاسع من الجامع المختصر لابن الساعي . الخزانة التيمورية ، ص ٣٠١
٢) مسالك الابصار ، ص ٢٨٩
٣) مسالك الابصار ، ص ٢٤٦-٢٤٧

مبتَّلة ، بين رهبانها ، لالحاظها في حشانا رَهَب
مسيحية طلعت في المسوح كصبح اطلّ وليل ذهب(١

ولا يخفى ما في تعرُّض بنات القسوس لمعاطاة الكؤوس من التبذّل والاستهداف لاخطار عربدة السكارى . وربما انتهت بهن هذه المنادمة الى الخروج من عصمة الدين ، والدخول في ربقة الاسلام . ومن اشهر من أدّت بهنّ مثل هـذه الحال الى سوء المآل شعانين ابنة قسّ دير صليبا بدمشق حين طاوعت الخليفة العباسي المتوكل على الله على الاسلام ، والتزوج به ، كما نقلناه في كلامنا على دير باب الفراديس[٢] .

وقريب من هذه الاخطار بيع الرواهب للخمر احياناً حتى في ظلمات الليل . وهو اشد قبحاً من بيع بنات القسوس . ومن الابيات التي وردت شاهدة بمثل هذا التجوّز والتسامح قول ابن نباتة المصري :

وراهبة طرقناها بليل ، ودون مزارها ارج يفوح
فهبّت في الظلام الى مدام كأن شعاعها قبس يلوح
وحيّتنا بصافية شمول ، كما يترقرق الدمع السفوح
كأنّا قد سلبنا الديك عيناً ، فقام من الكرى فزعاً يصيح(٣

على ان اكثر حانات الديارات كانت ، دون ريب ، تُضمَّن لبعض الخمارين من عوامّ النصارى ، وهم اسلس مقادًا واقل عنادًا في الدفاع عن حوزة الادب والعفة . فكانوا لا يرون بأساً في التوسّل بكل وسيلة لاجتذاب الشبان والمجّان وعشّاق بنت الحان . وفي طليعة هذه الوسائل اختيار السقاة عندهم والمغنين من احسن الناس وجهاً وقدًّا من الغلمان والجواري . وعقد ادارة الحانة الى اجمل الفتيان واحذقهم في الشراب ، وابرعهم في الحثّ على التلذّذ والطرب . كحانة دير اللّج في الحيرة مثلًا ، وهي التي قيل فيها :

بتنا بدير اللجّ في حانة شرابنا في الكأس مكبوب
يديرها ظبي هضيم الحشا يحبّـه الشبّان والشيب
حتى اذا ما الخمر مالت بنا جرت امور واعاجيب

١) مسالك الابصار ، ص ٣٨٢
٢) الخزانة الشرقية ٢ : ١٣-١٦
٣) ديوانه ، طبعة مصر ، سنة ١٩٠٥ ، ص ١١٧

فما ترى عندك في شادنٍ بات الى جانبه ذيب (١

ونظيرها دير حنة. وكان بالكوفة رجل اديب ضعيف الحال ، مهما وقع في يده شيء اتى به دير حنة فيشرب حتى يسكر. ثم ينصرف الى اهله ، وهو القائل :

ما لذة العيش عندي غير واحدة : هي البكور الى بعض المواخير
لحامل الذكر ، مأمون بوائقه ، سهل القياد من الفُرْهِ المدابير
حتى يحلّ على دير ابن كافرة من النصارى بيبع الخمر مشهور
كأنما عقد الزنار فوق تقاً ، واعتمّ فوق دجى الظلماء بالنور (٢

لا جرم ان الاقبال على مثل هذه الحانات التي اجتمعت فيها لذة البصر والسمع والشم والذوق كان عظيماً عيماً . ولذلك كثر السكر فيها ، وغلب المتطرّحون في افنيتها من الخلعاء ومجّان الشعراء من رجالات الادب واشراف العرب ، نظير ابي الشبل البرجمي ، وعبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع ، وابي جفنة القرشي ، وابي الطيب محمد بن القاسم النميري ، وعمرو بن عبد الملك الورّاق ، وابي شاس منير ، ومصعب الكاتب ، ومهلهل بن يموت بن المزرّع العبدي ؛ وبكر بن خارجة ، ومطيع بن اياس ، ويحيي بن زياد ، والحسين بن الضحاك ، وجحظة البرمكي ، ومحمد بن عبد الرحمن الثرواني ، وكان آخر امره ان أُصيب في حانة بين زقّي خمر ، وهو ميت. (٣) وكثيرين غيرهم . ولاحدهم ، مهلهل بن يموت ، يصف غرامه بالشرب في دير الطور :

يا غلام ، اسقني فقد ضحك السـوقت وقد تم طيب هذا الزمان
أدْنِ مني الدِنانَ ، صبّ الاباريق ، استحثّ الكؤوس ، صفّ القناني (٤

ومنه اخذ الصنوبري قوله في دير زكّى من ابيات :

يا خليليَّ ، هاتا علِلاني عاطياني الصهباء ، لا تَذراني !
أبعِدا الماء ، أبعدا الماء ، قوما ، أدْنيا أدنيا بنات الدنان (٥

١) مسالك الابصار ، ص ٢٢٦
٢) مسالك الابصار ، ص ٣١٣
٣) الديارات للشابشتي ، ص ٢٠، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٧٤، ٨٣، ٩٠، ١٠١، ١٠٦، ١٠٩
٤) مسالك الابصار ، ص ٢٢٨
٥) الديارات للشابشتي ، ص ٩٨

ولاسماعيل بن عمار الاسدي يصف سكرة له بدير اللج ، وهو احسن ديارات الحيرة وانزهها. ولم نقف على ابيات اظرف والطف منها واصدق في تشبيه السكارى وقيامهم يتعثّرون الى الصلاة بعد فواتها :

ما انسَ سُمدة والزرقاء[١] يومَهما ... باللج ، شرقيَّهُ فوق الدكاكين
تتنيانا كنفث السحر تودعه ... منا قلوباً غدت طوع ابن رامين
يسقي شراباً كلون النار عتّقه ... يحي الاصحاءَ منه كالمجانين
اذا ذكرنا صلاة بعد ما فرطت ... قمنا اليها ، بلا عقل ولا دين
نمشي اليها بطاءً ، لا حراك بنا ، ... كأن ارجلنا يُقلَعن من طين
نمشي ، وارجلنا عوجٌ مواقفُها ، ... مشيَ الاوزّ التي تأتي من الصين
او مشيَ عميان دير ، لا دليل لهم ... سوى العصيّ الى عيد السعانين
اهوى رُبيحةَ إنَّ الله فضّلها ... بحسنها وغناء ذي افانين
فن يقول لها غنّي ويسعدني ... قتلتِني يوم دير اللُجِّ فأحييني[٢]

ولما كانت الحانات منسوبة دائماً الى اديارها استجاز الشعراء — وهم يقولون ما لا يفعلون — ان يفتخروا بالسكر في القلالي والكنائس. ولذلك قال ابو نصر المنازي :

هذا وكم لي بالكنيسة سكرة ... انا من بقايا شربها مخمور[٣]

على ان بعض الزوّار من وجوه الدولة واعيانها كانوا يتغلبون بسطوتهم وجاههم على كل قانون للكنائس والاديار ، ويعاقرون الخمر ضمن اسوارها ، دون اكتراث بالرهبان . وقد سبق ان امير مصر ابا الجيش خمارويه بن طولون كان يسكر في دير القصير بمصر ، وهو ينظر الى صورة للعذراء كان شديد الإعجاب بها . وقد مرَّ بنا عدة ابيات للشعراء صرحوا فيها بما كان يجري في الاديار من التبذل والقصف والاسترسال في الشهوات ، وهو ما لا بد من التوسع في شرحه فيما يأتي وايراد الشواهد عليه دفعاً لكل شك وارتياب.

---

١) سعدة ، والزرقاء (سلّامة) ، ورُبَيْحة ، المذكورة فيما بعد ، هنّ جوارٍ مغنّيات كنّ لابن رامين ، وهو مولى عبد الملك بن بشر بن مروان .

٢) معجم ما استعجم للبكري ، ص ٣٦٧

٣) معجم البلدان ٤ : ٦٤٩

تغزّل الشعراء بغزلان الديارات

واحتيال الزوّار لمنادمتهم والشرب على وجوههم

للشعراء والمغنين وعشاق الخمور النصرانية مقطّعات وقصائد تغزلوا فيها بالشمامسة والرهبان والراهبات وذكروا اختيارهم كل صبيح الوجه بينهم للمنادمة والشرب والمجالسة والمداعبة . واطلقوا العنان لقرائحهم في التصوّر والتمنّي والابتداع والتوهم . حتى اصبح غزل خمريأتهم اشبه بغزل قصائد المدح في كونه وليد الفكر ونتاج التخيّل والحلم ، واسلوباً من اساليب التفنّن في النظم . وفيا زعموه وحكوه من وقائعهم واحاديثهم ما يفوت حد الإمكان ، ولا يجوز مثله في تقدير ولا حسبان . واذا صدق ما حكاه بعضهم كان حسب الزائر وقتئذٍ ان يلج باب الدير ويستدعي شرابه ليكون له الحق في اختيار اول مليح او مليحة فيه ليشرب ويغني ويطرب بالنظر الى محاسنها والتلذّذ بخطابها. ثم يخرج من الدير وبه «سُكران سكر هوًى وسكر مدامةٍ.» وهو ما حكاه اسحق الموصلي المغني المشهور حين خرج مع الرشيد الى الرقة ، ومرّ بدير القائم وطاف فيه. قال : « فرأيت ديرانيّة حين نهد ثدياها وعليها المسوح . ما رأيت احسن من وجهها . وكأن تلك المسوح عليها حلي . فدعوت بنبيذ وشربت على وجهها اقداحاً . ثم دعوت بالعود فغنّيت في الدير صوتاً مليحاً ظريفاً وما زلت اكرره واشرب وانظر اليها وهي تضحك من فعلي حتى سكرت ».[1] وهذه الحكاية اشبه بما يجري في المواخير ودور القيادة منها بما يليق ان يكون في بيوت الزهد والعبادة .

ومن وقف على معظم ما حفظته الرواة من الاخبار والاشعار المقولة في هذا المعنى وتدبر ما ورد فيها من المزاعم والاشارات الى منادمة المسلمين احداث الاديار وتحيلهم بكل حيلة من لبس المسوح والصلبان. وتناول القربان. والتمسّح بالايقونات . وحضور الصلوات . حباً بالتقرب منهم وايناسهم. والتلذذ بمجالستهم

١) مسالك الابصار ص ٢٦٩–٢٧٠

والنظر اليهم . يبدر الى وهمه ان اعراض سكان الديارات كانت وقتئذ لحماً على وضم يتناوله من شآء . وان بيوت الصلاة كانت اولى ان تسمّى بيوت الريبة . ولكن اذا تذكر ان الشعر اعذبه اكذبه تحقق ان كل ما هنالك من دعوى الاستمتاع وقصص المنادمات والمداعبات لم يكن في الحقيقة الّا ضرباً من ضروب الوشي والتطريز في النظم يُراد به مجرّد الإغراب والإطراب .

وقد اخترنا من هذه المنظومات الديرية كل ما رأيناه جديراً بالتأمل والاعتبار او وجدنا في ايراده فائدة ونكتة . واول ما نبدأ منها بابيات مشهورة لابن المعتز في راهب من دير عبدون تخيَّل انه جاءه « في ظلام الليل » . وفي احدى الروايات « في قميص اللاذ مستترًا » فقال :

سقى المطيرة ذات الظلّ والشجر ودير عبدون هطّال من المطر
يا طالما نبهتني للصبوح بهِ في ظلمة الليل والعصفور لم يَطِر
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نعّارين في السحر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل بالسحر يطبق جفنيه على حَوَر
لاحظته بالهوى حتى استقاد لـه طوعاً واسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مستترًا يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت افرش خدّي في التراب له ذلًّا واسحب اذيالي على الاثر
فكان ما كان مما لست اذكره فظُنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر (١

وعلى شاكلتها قول عمر بن عبد الملك الورّاق في دير مار يُحنّا الى جانب تكريت . وان كان دونها في الجودة والاحسان :

ارى قلبي قد حنَّ الى دير مريحنا
الى غيطانه الفُسحى الى بركته الفنَّا
الى ظبي من الانس يصيد الانس والجنّا
الى غصن من الآس بـه قلبي قد جُنّا
الى احسن خلق اللـهِ ان قدّس او غنّى
فلما انبلج الصبح بزلنا بيننا دنّا
ولما دارت الكأس ادرنـا بيننا لحنا
ولما هجع الناس غنّا وتعانقنا (٢

١) معجم البلدان ٢ : ٦٧٨
٢) معجم البلدان ٢ : ٧٠١

واجتاز الشاعر الكندي المنبجي يوماً بدير مار ماعوث على شاطئ الفرات فاستحسنه . قال: ورأيت في رهبانه غلاماً كما عذّر قد ترهب . فخاطبته فاذا به احلى الناس الفاظاً على لثغة فيه تجمل السين ثاء . فشديت سُماريّتي[1] الى جانب الدير واشتريت شراباً من الرهبان . وبتُّ هناك منادماً لذلك الغلام . فلما اردت الرحيل انشدتهُ :

يا طيب ليلة دير مر ماعوث ... فسقاه رب الناس صوب غيوث
وسقى حمامات هناك صوادحاً ... ابـدًا على سِدْر هناك وتوث
ومورَّد الوجنات من رهبانـه ... هو بينهم كالظبي بين ليوث
ذي لثغة فتّانـة فيسمّي الطا ... ووس حين يقول بالطاووث
حاولت منـه قبلة فاجابني ... لا والمثيح وحرمـة الناقوث
أتراك ما تخشى عقوبة خالق ... تمثيه بين شماست وقثوث
حتى اذا ما الراح سهّل حثُّها ... منه المثير برطلـه المحثوث
نلت الرضى وبلغت قاصية المنى ... منه برغم رقيبه الـديّوث[2]

وقريب من هذه الابيات قول مصعب الكاتب في دير الزعفران :

مررت بقـاع مر الزعفران ... بفتيان غطارفـة هجان
ظللنا نعمل الكاسات فيـه ... على روض كنقش الخسرواني
وغزلان مراتعها فؤادي ... شجاني منهم ما قد شجاني
رضيت بهم من الدنيا نصيباً ... غنيت بهم عن البيض الغواني
اقبّل ذا والثم خدّ هـذا ... وهـذا مُسعد سَلِس العنان[3]

وللسريّ الرفآء في غزلان الدير يذكر ليلة سكر فيها بقطربلّ وقال من جملة ابيات :

ودير شُغفت بغزلانـه ... فكدتُ اقبّل صلبانها[4]

وايسر خطباً مما تقدم قول الفضل بن العباس بن المأمون في دير مار ماري في سرّ من رأى :

أنضَيتُ في سُرَّمن را خيل لذاتي ... ونلت منهـا مُنى نفسي وشهواتي
مررت فيها بقـاع اللهو منغمساً ... في القصف ما بين اخمار وحانات

---

١) السماريّة والافصح السُّمَيْريّة ضرب من السفن.

٢) مسالك الابصار ص ٢٦٣ ، ومعجم البلدان ٣ : ٧٠١

٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٣-٦٦٤

٤) يتيمة الدهر ، طبعة دمشق ، ١ : ٤٦٨

بدير مر مارِ اذ نُحيي الصبوح به ونُعمل الكأس فيه بالعشيّات
بين النواقيس والتقديس آونـةً وتارة بين عيدان وناياتِ (١

ومثلها قول موفق الدين بن ابي الحديد المدايني وهو بدير ميخائيل بالموصل يشبب باحد رهبانه من « المرتّلين » :

يا ساكني دير ميخائيل لي قمر لكنه بشر في شكـل تمثال
قريب دار بعيد في مطـالبه غريب حسن والحان واقوال
سكرت من صوته لما اشار به ما لست اسكر من صهباء جريال
ما رمت امساك نفسي عند رؤيته الأ تغيرت من حال الى حال
يا ليلتي بفناء الدير لست كمن يقول يـا ليلتي بالشيح والضال
قد صرتُ انشد بيتاً صار لي مثلا لولا وصالك لم يخطر على بالي
لو اشتريت بعمري ساعة سلفت من عيشتي معكم ما كان بالغالي (٢

وللببغاء في دير الزعفران ، وقد صحب فيه راهباً ماجناً زعم انه « تجاوز له عن صومه وصلاته » :

صفحتُ لهذا الدير عن سيئاته وعددت يوم الدير من حسناته
وصبّحت دير الزعفران بصحبة اعادت سرور القلب بعد وفاته
عمرت محل اللهو بعـد دثوره وألّفت شمل الانس بعد شتاته
وعاشرت من رهبانه كل ماجن تجاوز لي عن صومه وصلاته
واهيف فاخرت الرياض بحسنه فأذعن صغرًا وصفها لصفاته
جلا الاقحوان الغضّ نوّار ثغره ومال بغصن البان عن حركاته
واسكرني بالعذب من فم ريقه وامتني بالورد من وجناتـه
ولما دجا الليل استعاد سنا الضحى براحٍ نأت بالليل عن ظلماته
نصيبيّة ديريّة كاد كـرمهـا بجوهرهـا ينهلّ قبل نباته
فاهدى اليها الورد من صبغ خده وايّدها بالفتك من لحظاتـه
الى ان غادى بين نحري ونحره صليب يفوح المسك من نفحاته
ونمّ الينا دمعُها بضيائهـا فواهاً لقلب ضاق عن خطراته
وما زال يسقيني ويشرب والمُنى تبشرني عنه بصدق عِداتـه
وخوّفني منـه فخلت صليبه لشدة ما يخشاه بعض وشاتـهِ (٣

ودخل يوماً سبط ابن التعاويذي الشاعر المشهور دير الثعالب في ضواحي

---

١) معجم البلدان ٢ : ٧٠٠
٢) الجزء العشرون من عيون التواريخ للكتبي ، الخزانة التيمورية ص ١٢٩
٣) الجزء الثاني عشر من عيون التواريخ للكتبي ، الخزانة التيمورية ص ٣٠٢

بغداد يوم عيد للنصارى فرأى شماساً فيه وسيماً فقال فيه ارتجالًا:

وغزال علقتـهُ يوم دير الثعالب
من ظباء الصريم يخــطر في زيّ راهب
كالقضيب الرطب يو هيهِ حمل الذوائب
شدَّ زناره فحــلَّ عقود المذاهب
ما رمى طرفه بســهم هوى غير صائب
بتُّ من حبهِ على مثل شوك العقارب(١

وللخالدي يشبّب بفتى مترهب في الدير الاعلى بالموصل:

قمر بدير الموصل الاعلى انا عبده وهواه لي مولى
لثم الصليب فقلت من حسدٍ له قُبَل الحبيب في بجا اولى(٢

ولاحد الشعراء في فتًى راهب في دير اللجّ بالحيرة جمع بين حسن الوجه والصوت « اذا رجَّع الانجيل اهتزَّ مائدًا »:

سقى الله دير اللج غيثاً فانه على بعده دير اليَّ حبيب
قريب الى قلبي بعيد محله وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيّج ذكراه غزال يحلّه اغنّ سحور المقلتين ربيب
اذا رجَّع الانجيل واهتز مائدًا تذكّر محزون الفؤاد غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابل اسقام به ووجيب (٣

وللجلال ابن الصفّار المارديني يتغزل بشماس وهو مما تُغُنّي به:

برق بدا ام ثغرك المنعوت ام لؤلؤ قد ضمَّه ياقوت
يا للنصارى برقعوا شماسكم قبل الضلال فانه طاغوت
ما قام اقنوم الجمال بوجههِ الا وفي ناسوتهِ اللاهوت
يشتاقه قلب اليه طائر صبّ وطرف حائر مبهوت
فأحسنْ فان الحسن وصف زائل واصنع جميلًا فالجمال يفوت
واستبقِ من اهل الغرام ولا تَجُرْ فيقلّدوك دماهم ويموتوا(٤

ونظيره قول ابن نباتة المصري في شماس وهو غاية في الظرف والاجادة:

لله ظبي كنيسة لاحظته فكأنما لاحظت ظبي كناس
يجلو محاسنه ويتلو صحفه ناهيك من شمس ومن شماس

---

١) ديوانه، ص ٥٢-٥٣
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٤٤
٣) معجم ما استعجم للبكري، ص ٣٦٦
٤) جزء من مسالك الابصار للعمري في المغنين والمغنيات، باريس رقم ٥٨٧٠، ص ١٧٣

عجباً له في دين عيسى كيف قد … اضحى يعارض حكمه بقياس
هذاك احيا الناس من موت وذا … في الحب قد وافى بموت الناس
من اجل مبسمه الشهيّ تفتحت … في كفّه ابدًا شفاه الكاس
وكأنما مدّ اليدين صليبه … يبغي عناق قوامه المياس(١

وفي هذا البيت الاخير تخيُّل غريب. ولابن خطيب داريا في دير مار الياس في داريا قصيدة اولها:

هاتِ اسقِني الصهباء يا مؤنسي … قد فاح نشر الورد والنرجس

يقول فيها:

هذا هو العيش ومن لي به … في دير مار الياس او بطرس
في فتية شبه بدور الدجى … اذا بدَوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم … اصفى من الراح لمستأنس
اكثر الفاظهم أشرَبْ فلا … اسمعُ: لا أفْتِ ولا أدرُسِ
مـا لي وللفقه واصحابِهِ … يا نفس منهم آن ان تيأسي(٢

ولابي علي حسن الغزي في رهبان دير المصلّبة بظاهر القدس:

ومزنَّرين اذا تلَوا انجيلهم … وتعطفوا فحمائم وغصون
نزعوا القلانس والمسوح فزُحزِحت … منهن عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام وما دروا … ان الكؤوس الدائرات جنون(٣

وللسريّ الرفّاء يتشوق الى دير يوسف بالموصل ويصف راهباته. وكنى عن الراهبات بالدُمى النواطق:

كم دمنة خرساء فيه ودُمية … فَضَلت عليها باللسان الناطق
ومهفهف لو كنت املك امره … بدّلت سُحق مسوحه بقراطق
كم قد رمقت به المنى فغشيتها … ما بين مرموق الجمال ورامق
ومعذّل اخـذ الصبا بيمينه … فجرى به جري الجموح السابق
ورقدت من غزلانه وذنابه … ما بين مسروق الجمال وسارق(٤

ومن الغزليات في الجواري الراهبات قول ابرهيم بن القاسم الكاتب المعروف بالرقيق القيرواني يذكر إدمانه السكر في دير القُصَير بمصر ومنادمته لاحدى

١) ديوانه، طبعة مصر سنة ١٩٠٥، ص ٢٧٠
٢) الرابع من المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي، الخزانة التيمورية، ص ٦١٧-٦١٨
٣) مسالك الابصار ص ٣٤٠
٤) ديوان السريّ الرفّاء في مجموع رقم ٣٠٩٨، في خزانة باريس، ص ١٤٧

رواهبه:

وكم بتُّ في دير القصير مواصلاً | غاري بليلي لا أُفيق من السكر
تبادرني بالراح بكر عزيزة | اذا هتف الناقوس في غرّة الفجر
مسيحية خوطيّة كلما انثنت | تشكّت اذى الزنار من رقة الخصر (١

وقد اشرنا قبلاً الى تلطف بعض المترددين على القلالي والاديار في مخادعة الملاح فيها، وللتظاهر بالتقرب من النصرانية، والتزّي بزيّ اهلها ومخالطتهم لهم في الكنائس لتأليف قلوبهم واستدامة معاشرتهم. ومن الابيات المروية في ذلك قول عبدالله بن العباس بن الفضل في شادن من الرهبان في دير قوطا بالبَرَدان من نواحي بغداد على شاطئ دجلة:

يا دير قوطا، لقد هيّجت لي طربا | ازاح عن قلبي الاحزان والكُرَبا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها | لما وصلت به الادوار والنُخَبا
في عصبة بذلوا في القصف ما ملكوا | وانفقوا في التصابي العرض والنشبا
وشادنٍ ما رأت عيني له شبهاً | في الناس لا عجماً منهم ولا عربا
اذا بدا مقبلاً ناديت وا طَرَبا | وان مضى مُعرضاً ناديت وا حَرَبا
اقمت بالدير حتى صار لي وطنا | من اجلهِ ولبستُ المسح والصُلُبا
وصار شماسه لي صاحباً واخاً | وصار قسيسه لي والداً وابا (٢

ومن ابيات الكندي المنبجي حين مرّ بدير مار ماعوث:

ولقد سلكت مع النصارى كل ما | سلكوه غير القول بالثالوث
بتناول القربان، والتكفير للصلبان، والتسبيح بالطيبوث
ورجوت عفو الله متكلاً على | خير الانام نبيّه المبعوثِ (٣

ولما زار ابن جناح دير قزمان في ضواحي حلب قال: رأيت فيه شماساً امرد كالبدر بقدٍّ يقد القلوب. فانفذت اليه ليحضر عندنا فامتنع. فآنسته وجعلت لا افارقه. وتناولت معه القربان ودخلت معه كل مدخل الى ان أَنِس بي وعاشرني وقلبي معه وقلت:

يا دير قزمان كم لي فيك من وطر | قضيته فسقاك الله تحنانا
اقمتُ فيه أُسقّى من مشعشعة | تنفي بسورتها همّاً واحزانا
منادماً قسّه دهراً وربّتما | نادمت قساً وشماساً ورهبانا

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ١: ٢٩١
٢) معجم البلدان ٢: ٦٨٩
٣) معجم البلدان ٢: ٧٠١

وفيهم قمر في ليل مدرعة على قضيب حوى حسناً واحسانا
فلم ازل انا اسعى في تبسّطه وقد اخذت لقربي منه قربانا
حتى استكان الى وصلي ونادمني وكان من بعد ذا منه الذي كانا (١

ومن ادلّ الشواهد على ان كل هذا الذي زعموه من لبس الصلبان وتناول القربان لم يكن الا على سبيل العبث والهزل ومن باب التنادر والتظرف في الشعر قول الوليد بن يزيد في زيارته ديرَ يُونَّى بدمشق:

فاخذنا قربانهم ثم كفّر نا لصلبان ديرهم فكفرنا(٢

ومن تُرى يصدّق ان الخليفة نفسه يمازح الرهبان هذا المزاح ويرتكب مثل هذا الكفر في الشرع؟ وهل هذا القول ونظائره الا خُدعة من خُدَع الشعر. وأغنيّة من اغانيّ الغزل والسكر؟

وبمثل هذا النقد والانكار يجب ان يتلقى المؤرخ اخبار منادمة بعض فتيان الرهبان والراهبات لزوّار الاديار وشُرّاب المدام. فان هذه المجاملة منهم لم تكن في الحقيقة الا خوفاً وتقيّة ومصانعة ومداراة. ومما يثبت ذلك ان الراهب كان لا يكاد يتخلّص من سخرة مجلس الشراب والغناء حتى يبادر توّاً الى موقفه بين صفوف المصلّين « النعّارين في السحر » كما سمّاهم ابن المعتز. حكى الشاعر المعتصمي في كتاب الديرة للسميساطي قال: « نزلت دير القائم الاعلى فرأيت فيه راهباً امرد لم ترَ عيني احسن منه وجهاً وقدّاً. فسألته ان يجلس لاشرب على وجهه. فجعل يسقيني ليلتي. فلما قارب طلوع الفجر نهض الى صلاته فسمعته يقرأ مزاميره بصوت ما رأيت قط اشجى ولا اطيب منه. فعلق قلبي به. وتهيأ مسيره في غد فقلت فيه:

رأيت البدر مجلوًّا بدير القائم الاقصى
لـه عينان لحظهما مُطاع الامر لا يُعصى

الى بقية ما هنالك من ابيات امّحت سطورها. وختمها بقوله:

فقام ينصّ مزماراً بالحان لـه نصّاً(٣

١) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم Add. 23354 f°138b
٢) الخزانة الشرقية (المشرق ٣٦ [١٩٣٨] ٤٨)
٣) جزء من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، خزانة بريتيش موزيوم Add. 23354 f° 170

الامور والاعاجيب

في الحانات وملحقات الاديار

لاحدهم في حانة دير اللجّ ابيات قال فيها يصف مجلسه مع اصحابه . وما اهاجته فيهم سورة الخمار من ثورة الشهوات :

حتى اذا الخمر مالت بنا جرت امور واعاجيب(١

ومن اقبح هذه « الامور والاعاجيب » تهتك بعض الاضياف والخلعاء في عشرة غلمانهم وفتيانهم بجوار بيوت الصلاة ، والخلوة بهم في القلالي والحانات ، بحيث اصبحت احياناً ملتقى العشاق ومأوى الفسّاق . وهو ما لا يكاد يصدق لاول وهلة ، لولا تضافر الاخبار والاشعار على اثباته ونفي كل ريب فيه. ومن اصرح ما يشهد بذلك ما حكاه بعضهم قال : « حصلت يوماً بعكبرا في بعض الحانات فشربت اياماً بها . . . وقرأت يوماً على جدار البيت الذي كنا فيه :

ايها المغرمون بالحانات والمفتنون في هوى الفتيات
ومتى استنفدت كروم بَزُوغى فأَوَانا(٢ امواله ، فالفراتِ
قد شربنا المدام في دير ماري «وأصبنا» البنين قبل البنات(٣

والطف تصريحاً منه قول ابي نواس في دير نهراذان ، وهو من اصدق الاوصاف لما كان يجري في ملحقات الاديار ، وفي بعض الاعياد النصرانية :

بدير نهراذان لي مجلس وملعب وسط بساتينه
رحتُ اليه ، ومعي قينة ، نزوره يوم سعانينه
بكل طلّاب الهوى فاتك قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلس تضحك الوان رياحينه
والنرجس الغضّ لدى ورده والورد قد حُفَّ بنسرينه
وجيءَ بالدنّ على مرفع وخاتم الطلج على طينه

---

١) مسالك الابصار ، ص ٣٢٦

٢) بزوغى كانت من قرى بغداد قرب المزرفة ؛ بينها وبين بغداد نحو فرسخين . واوانا بليدة كانت كثيرة البساتين والشجر نزهة من نواحي دجيل بغداد (معجم البلدان ١ : ٣٠٦ و ٣٩٥)

٣) معجم البلدان ١ : ٣٩٥

وطاف بالكأس لنا شادن يدميه مسّ الكف من لينه
يكاد من إشراق خدّيه ان يختطف الابصار من دونه
فلم يزل يسقي، ونلهو به، ونأخذ القصف بآيينه
حتى غدا السكران من سكره كالميت في بعض احايينه (١

وشتَّان بين هُجر البيت الاخير من ابيات دير مار ماري المتقدمة وادب لفظ ابي نواس « نلهو به ونأخذ القصف بآيينه» اي برسومه وقوانينه وشروطه.

ويستفاد من حسن اوصاف ابي نواس ان مجالس اللهو والقصف والشرب والغناء، ومعاشرة القيان والغلمان، كانت تكون غالباً في الرياض والبساتين بين الازهار والرياحين. وانما كانت تُنسب خاصة الى الاديار حتى يُظَنّ انها جرت وراء جدرانها وفي جوار بِيَعها ومعابدها، لاضافة الحانات والحدائق اليها واشتهارها باسمها.

وقد اشرنا قبلًا الى بعض هذه المجالس المنكرة في كلامنا على دور الضيافة (ص٣٤٦–٣٤٩) ومن اظهر الشواهد على ما كان يتفق هنالك احياناً من تهتك وخلاعة، ابيات رواها ياقوت لكلاب بن حمزة، المعروف بابي الهندام (او الهيذام)، من اهل حرّان، في باعوث دير زَكّى. وهي اصدق مثال لما كان يجري قديماً في الاعياد والمواسم النصرانية. وفي ظل القلالي والحانات من تعرض المسلمين للمواكب. واختلاط الرجال منهم بالنساء. وفتنتهم للفتيات والفتيان. واستباحتهم للذمم والاعراض:

بين النواقيس والتقديس آونةً وتارة بين عيدان ونايات

قال ابو الهندام في دير زَكّى. ولا يخلو وصفه من الظرف. نجتزئ منه بما هو ادلّ على المراد من تعريف المهرجانات النصرانية:

سقياً لحرّان انه بلدٌ اصبح للّهو، وهو مضمارُ
في يوم باعوثهم، وقد نشروا الصلبان، والمسلمون نُظّارُ
فن مهاة هناك مقبلة ومن غزال عليه زنّار
ازحم هذا، وتلك تزحمني، وفي الحشا والفؤاد إسعار
فعارضتني هناك شاطرة منهم بما في الذراع أسوار
تقول لي، والدلال يصرعها أخن، يا مسلمون، كفّار

---

١) ديوانه، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦، ص١٦٦

فقلت يا غايتي ويا أملي — بل انتم المؤمنون اخيار
اطلب منها بذاك تقربةً — والشمراء الحبات فُجّار
فرقّ لي قلبها وملتُ بها — في دير زكّى(١ ونعمتِ الدار
تقول لي عند وقت منصرفي — انك من بعدها لغدّار
حللتَ عقد الامان منك لنا — فما لعقد لديك إمرار
فقلت قد كان ذاك عن خطإ — لا قَوَد عندنا ولا ثار
استغفر الله ، ثم اسأله الـ — ـتوب ، فلي بالذنوب اقرار(٢

وانكى ما في هذه الابيات ، مع ما اتصفت به من طلاوة وحلاوة ، قوله : « وملتُ بها في دير زكّى » كأن حانات الاديار في ذلك العهد كانت دورًا للريبة والفجور. يطمئن فيها الغاصب. ويأوي اليها الفاسق . ولذلك مدحها بقوله « ونعمتِ الدار». ويظهر ان الحال كانت على مثل ذلك ايضاً في مصر ، كما يُستدلّ مما رواه العمري بلفظه وسجعه قال:

« حُكي ان السراج الورّاق وابا الحسين الجزّار خرجا في عهد صباهما . والشباب اعقد حُباهما. يريدان النزهة . فوجدا غلاماً زامرًا يُتمنّى منه اللقاء. ويجتمع فيه الغصن والورقاء. يتلفت بصفحة القمر المنير ويُطرب كأنما زمره مما أوتي آل داود من المزامير . فلفتاه اليهما لأمر. وظنّاً انه ستُلينه لهما الخمر . فأتيا به دير شعران. وصعدا اليه فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد. ويطلع قمره ولا شيء احسن منه في ذلك السواد. فزاد سرورهما بحصول الزامر والراهب. وايقنا ببلوغ المآرب. فلما حميت فيهما سورة الحميا. وظن كل منهما انه قد حصل له فراشه وتهيا. فطن الزامر والراهب لمرادهما فتركاهما ومضيا قبل التمام. وتركاهما وكل منهما يشكو ضجيعاً لا ينام

فقال السراج:

في فخّنا لم يقع الطائر — لا راهب الدير ولا الزامر

---

١) ضبط في التاج دير زكى بالياء المشدّدة اي زكيّ كعلي (٣ : ٢٣١) وهو خطأ صريح . والصواب زكّى بالالف المقصورة كما ورد في هذا البيت . وممن وهم بضبطه ايضاً البكري في معجم ما استعجم (ص٣٧٧) قال هو بفتح الزاي وتشديد الكاف واسكان الياء. ولم ينتبه الى وروده بالالف المقصورة في بعض الابيات التي استشهد بها.

٢) ارشاد الاديب ٦ : ٢٠٩-٢١٠

فقال ابو الحسين الجزار:

فسمدنا ليس لـه اول وغمنا ليس لـه آخر

فقال السراج:

فالقلب في اثرهـا هائم

فقال الجزار:

والقلب من اجلها حائر (١

ومما يزيد في مغزى هذه الحكاية طموح الشاعرين الى الراهب ايضاً « وقد ظن كل منهما انه قد حصل له فراشه وتهيّا ». ومن تأمل بعين الروية والاعتبار هذه الشواهد باسرها يدرك بملء الاسف والاكتئاب علة قول ابن عاصم المصري في دير طمويه من قرى مصر:

منازل كنت مفتوناً بها يَفِعاً وكنَّ قدماً مواخيري وحاناتي (٢

وقد يعجب القارئ من رضى الرهبان بمثل هذه السمعة الشائنة وإغضائهم عما كان يحدث ضمن قلاليهم احياناً . وفي ظل مواطن النسك والتبتّل من اصناف المخازي والمنكرات . ولكن اذا تذكر حرج موقف الاديار في دار الاسلام . وتعرضها في كل حين لاخطار الضيافة . ووقوعها تحت سلطة الولاة والمتغلبين . وتمثل ذلّة رؤسائها بين يدي ارباب الدولة واعوان الحكم والظلم . يدرك عجز الرهبان عن صيانة حاناتهم وافنيتهم من الامتهان والابتذال . وصيانة بعض فتيان شمامستهم من شبهات الريب والشكوك . ومن افصح الادلة وانصع البراهين على هذه الحال الشنيعة حادثة جرت في الرها ودير زكّى بالرقة . توشك ان لا تصدَّق لولا ثقة رواتها . وهي منقولة عن كتاب الديارات لابي الفرج الاصبهاني . وروايتها اصح متناً من رواية ارشاد الاريب لياقوت (٢: ٢٢-٢٦) قال الصنوبري الشاعر المشهور:

« كان بالرها ورّاق يقال له سعد . وكانت دكانه مجلس كل اديب . وكان حسن الادب والتفهم يعمل شعرًا رقيقاً . فما كنا نفارق دكانه انا وابو بكر المعوّج الشامي الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر . وكان لتاجر بالرها نصراني

١) مسالك الابصار ، ص٣٦٧-٣٦٨

٢) معجم البلدان ٣ : ٦٧٥

ابن اسمه عيسى من احسن الناس وجهاً واحلاهم قدّاً واظرفهم طبعاً ومنطقاً . وكان يجلس الينا ويكتب عنا من اشعارنا . وجميعنا يحبه ويميل اليه وهو يومئذ صبي في الكتاب . فعشقه سعد الكتبي عشقاً مبرّحاً . وكان يعمل فيه الاشعار . فمن ذلك قوله وقد جلس عنده في دكانه :

اجعل فؤادي دواةً والمداد دمي ... وهاك فابرِ عظامي موضع القلم
وصيّر اللوح وجهي وامحُهُ بيدٍ ... فان ذلك برءٌ لي من السقم
ترى المعلّم لايدري بمن كلفي ... وانت اشهر في الصبيان من علَم

ثم شاع في الرها خبره بعشق الغلام . فلما كبر الصبي احب الترهب وشاور اباه وامه في ذلك والحّ عليهما حتى اجاباه وخرجا به الى دير زكّى بنواحي الرقة . وهو في نهاية الحسن . فابتاعا له قلاية ودفعا الى كبير الدير جملة من المال عنها . فاقام الغلام فيها وضاقت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت . واغلق دكانه وهجر اخوانه . ولزم الدير مع الغلام . وهو في خلال ذلك يعمل الاشعار في الغلام . فانكر الرهبان على الغلام كثرة إلمام سعد به ونهوه عنه . وحرموه ان ادخله قلايته وتوعدوه بخروجه من الدير . فاجابهم الى ما سألوه من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه عنه شق عليه . وخضع للرهبان ورفق بهم فلم يجيبوه . وقالوا في هذا اثم وعار ونخاف السلطان فكان اذا وافى الدير اغلقوا في وجهه الباب ومنعوه من دخوله . ولم يدعوا الغلام يكلمه . فاشتد وجده به وزاد عشقه الى ان صار الى الجنون . فخرق ثيابه وانصرف الى داره وضرب جميع ما فيها بالنار وكذلك دكانه . ولزم صحراء الدير وهو عريان يهيم ويعمل الاشعار .

قال ابو بكر الصنوبري : ثم عبرت يوماً انا والمورّج الشامي من بستان بتنا فيه . فرأيناه جالساً في ظل الدير وهو عريان وقد طال شعره وتغيرت حاله . فسلمنا عليه وعذلناه وعنّفناه . فقال دعاني من هذا الوسواس . أترَيان ذلك الطائر الذي على هيكل الدير ؟ واومأ بيده الى طائر هناك . فقلنا نعم . فقال انا وحقّكما يا اخويّ اناشده منذ الغداة ان يسقط فاحمّله رسالة الى عيسى . ثم التفت الي وقال يا صنوبري أمعك الواحك . قلت نعم . قال اكتب :

عفّتك ، يا حمامة دير زكّى ، ... وبالانجيل عندك والصليبِ
قِفي ، وتحملي مني سلاماً ... الى قمر على غصن رطيب

عليه سوحه واضاء فيها فكان البدر في حال المغيب
حماه جماعة الرهبان مني فقلبي ما يقرّ من الوجيب
وقالوا رابنا إلمام سعدٍ ولا واللهِ ما انا بالمُريب
وقولي سعدك المسكين يشكو لهيب جوًى احرّ من اللهيب
فصِلْهُ بنظرة لك من بعيد اذا ما كنت تمنع من قريب
وان انا متُّ فاكتب حول قبري محبٌّ مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيش فكيف بمن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو الى باب الدير فوجده مغلقاً فانصرفنا عنه . وما زال كذلك زماناً ثم وُجد في بعض الايام الى جانب الدير ميتاً . وكان امير البلد العباس بن كَيْغَلَغ . فلما اتصل ذلك به وباهل الرها . خرجوا الى الدير وقالوا ما قتله غير الرهبان . فقال ابن كيغلغ لا بد من ضرب رقبة الغلام واحراقه بالنار وتعزير الرهبان بالسياط . وتصعَّب في ذلك . فافتدى الرهبان نفوسهم وديرهم بمائة الف درهم . وكان الغلام بعد ذلك اذا دخل الرها لزيارة اهله صاح به الصبيان «يا قاتل سعد الوراق» وشدوا عليه بالحجارة يرجمونه . وزاد عليه الامر في ذلك حتى امتنع من دخول المدينة . ثم انتقل الى دير سمعان وما ادري ما كان منه .»[1]

ولا حاجة الى التنبيه على ما لهذه الحكاية من الخطر والشأن في الدلالة على ما كان عليه القوم في ذلك العهد من اخلاق ومساوئ وبغي وادّعاء . وتحكّم في الديارات . واغرب ما هنالك ارادة امير الرها ضرب رقبة الغلام واحراقه بالنار جزاء تعففه وامتناعه . وتعزير الرهبان بالسياط وهي الطامّة الكبرى . ولعل كل ذلك يشفع في نظر المؤرخ لبعض ضَعَفَة الرهبان في إيثار المداراة والمصانعة في الارتزاق . ويقيم لهم العذر في الإغضاء عما كان يجري حولهم، وعلى رغم منهم، من الفضائح والقبائح . ومن هذا الخبر الجدير بالعبرة والاستبصار يتضح حرج موقف الديارات وما كانت عرضة له من الاخطار والنكبات . وما كان يحلّ بها من آونة لاخرى من عوادي الظلم والاستبداد لعجزها عن التصوّن والاتّقاء . بين شعب قاهر . وفي دولة سلطان جائر .

---

١) الجزء الثالث عشر من عيون التواريخ للكتبي ، من مخطوطات الظاهرية بدمشق رقم ٤٩ ، في حوادث سنة ٤٢٦ للهجرة (١٠٣٤/٥ م)

التردّد الى الكنائس والاديار

للنظر الى غلمان النصارى ونسائهم

بين شواهد النحو بيت منسوب للاخطل، وليس في ديوانه، قيل فيه:

ان من يدخل الكنيسة يوماً يلقَ فيها جآذرًا وظباء(١

وهذا البيت كان قائد كل متفرج في الآحاد والاعياد. وكل متطوّح في القلالي والديارات. وقد اشتهر مدرك بن علي الشيباني بملازمته دير الروم في بغداد في خلق كانوا يقصدونه لاستجلاء مَن فيه من الوجوه الحسان. وله فيه:

وجوه بدير الروم قد سلبت عقلي فاصبحت في بؤس شديد من الخبل
فلم ترَ عيني منظرًا مثل حسنهم ولم ترَ عينٌ مستهاماً جم مثلي
فكم من غزال قد سبى العقل لحظه ومن ظبية رامت بالحاظها قتلي (٢

وفي دير الروم لقي عمرَو بن يوحنا النسطوري وعلق به وجُنّ. ونظم فيه قصيدته المشهورة:

من عاشق ناءٍ، هواه داني ناطق دمع صامت اللسان(٣

وهي التي مشى فيها على سَنَن ابي نواس في قصيدته الآتية الذكر وجمع فيها كل ما حفظه من اقسام النصارى بمسيحهم وروح قدسهم وقداديسهم وقدّيسيهم وحواريّيهم واحبارهم ومعابدهم. وامثال هذه القصائد جديرة بالدرس لما ورد فيها من ذكر اولياء النساطرة وخصائصهم ومصطلحاتهم واحتفالاتهم. وعلى شاكلتها قصيدة بكر بن خارجة في عشير بن البراء الصراف من نصارى الحيرة. وله فيه شعر كثير يذكر فيه مواسم النصارى وقرابينهم واديارهم ومشاهير بيعتهم. ومنه قوله:

بمارتِ مريمٍ، وبدير زكّى، ومر توما، ودير الجاثليق
وبالانجيل يتلوه شيوخ من القسّان في البيت العتيق

---

١) خزانة الادب للبغدادي، ص ٤١٣

٢) معجم البلدان ٢: ٦٦٣، ومسالك الابصار، ص ٢٧٢

٣) ارشاد الاريب ٧: ١٥٢-١٥٨

وبالقربان ، والصلبان ، الّا ... رثيت لقلبي الدنِف المشوق
أجِرْني ، متُّ قبالك ، من همومٍ ... وأرشدني الى وجه الطريق
فقد ضاقت عليَّ وجوه امري ... وانتَ المستجار من المضيق (١

ولا شك ان المجلّي في هذه الحلبة هو ابو نواس في قصيدته التي نظمها في عبد يشوع بن مار سرجس واولها :

بعمودية الدير العتيق ، بِمُطرُبْليطها ، بالجاثليق

وهو القائل في غيرهِ من غلمان النصارى هذه الابيات وهي جديرة ان تُوضع عليها اليد :

لَبِقٌ بديع الحسن لو كلمتَه ... لنبذت دينك كله من حالق
واللهِ ، لولا انني متخوِّف ... ان أبتَلى بامام جور فاسق ،
لتبعته في دينه ودخلته ... ببصيرة فيه دخول الوامق
اني لاعلم ان ربي لم يكن ... ليخصّه الّا لدين صادق(٢

وللشعراء في الاسلام قصائد ومقطعات شتى على هذا النمط . تغزلوا فيها بفتيان النصارى وفتياتهم . يحسن جدًّا ان تُجمع وتطبع لفائدتها في تاريخ النصرانية في الاسلام . نختار منها شاهدين فقط نوردهما مثالًا عليها . الاول قول ابي محمد الحسن بن علي بن وكيع التنّيسي في غلام قد شد في وسطه الزنار ، وفيه نظر الى ابيات ابي نواس المتقدمة :

فَضَلَ النصون لانها من غرسنا، ... عند التأمل ، وهو غرس الباري
قد غيَّب الزنارَ دقةُ خصره ... حتى ظننتاه بلا زنار
متنصّر قويت على إسلامنا ... بالحسن منه حجةُ الكفار
قالوا : أيصنع مثل هذا ربكم ... ويرى فساد صنيعه بالنار (٣

والثاني من نظم احد شعراء المغاربة يخاطب به راهبة في دير ريفة من صعيد مصر :

عساكِ ، بحق عيساكِ ، ... مريحة قلبيَ الشاكي
فان الحسن قد ولّا ... كِ إحياني واهلاكي
واولعني بصلبانٍ ... ورهبانٍ ونسّاك

١) معجم ما استعجم ، ص ٣٧١
٢) ديوانه . باريس ٣١ ٢٨ ، ص ٨٢ و١٢٥
٣) يتيمة الثعالبي ، طبعة مصر ١ : ٢٢٥-٢٢٦

ولم آتِ الكنائس عن هوًى فيهنّ ، لولاك (١

وكان الشاعر الثرواني كثير الإلمام بالبيع والاديار ، معروفاً فيها بالعبث والهزل والاستهتار . حكى عنه جاره في الكوفة حمزة بن ابي سلامة قال : « باكرني في يوم شعانين وقال لي اعزم بنا اليوم على الشرب في دير الحريق لانه يوم سيقصده فيه خلق . ولي به صديق من رهبانه ظريف مليح القلاية جيد الشراب. فهلمَّ نتنزه اعيننا في ما نراه من الجواري والغلمان . ثم نعدل الى قلاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان في الحلي والحُلل ما لم ارَ مثله قط . فلم يزل يعبث ويتعرض ويقبّل ويعانق. وكان معروفاً بذلك فما احد ينكر عليه فعله الى بعد الظهر . ثم اتينا قلاية صديقه الراهب فلقيه بالاكرام والترحاب . فدخلنا قلايته . فما رأينا انظف من آلاتها ولا انضر من بستانها. ثم قدم لنا شيئاً من طعامه فأصبنا منه. ثم صعدنا سطحها وجلسنا ننظر الى منظر يبهر حسناً وجمالاً. من رياض وغدران وطير يصفر. ونحن نشرب حتى ثملنا ونمنا هناك . وغدونا الى الكوفة . فقلت له تترك هذا اليوم مع حسنه عاطلاً من حلي شعرك ؟ فقال لا والله. ولقد عملت في في ليلتيَ هذه الابيات :

خرجنا في شعانين النصارى وشيّعنا صليب الجاثليق
فلم ارَ منظرًا احلى بعيني من المتقيّنات على الطريق
حملن الخوص والزيتون حتى بلغنَ به الى دير الحريق
اكلناهنّ باللحظات عشقاً واضمرنا لهنّ على الفسوق (٢

وهذا البيت الاخير لسان حال كل شاهد من شهود المسلمين في المواسم النصرانية .

ومن احسن اوصاف مواكب النصارى في الاعياد. وبروز النساء فيها بالحلي والحلل بعضهن « على العَجَل ». وبعضهن على الشهاري والبغلات المصرية والحُمُر. ما حكاه الحسن بن يعقوب قال:

« صرت الى الرها فبتُّ بها . وخرجت قبل عيد الصليب بيوم . فاذا لدينا

١) مسالك الابصار ، ص ٣٨٦

٢) مسالك الابصار ، ص ٢١٥-٢١٦

وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهنّ . عليهن جيد الثياب وفاخر الجوهر . واذا روائح المسك والعنبر قد طُيّب الهواء منها . وقد فُرش لهنّ على العجل . وهو يُجَرّ بهنّ . وأُخريات على الشهاري الخراسانية والبغلات المصرية والحُمُر الفُرْه . ومشاة . وفي خلال ذلك صبيان ما رأيت احسن منهم وجوهاً وقدوداً وثياباً . فتأملت منظراً لم ارَ احسن منه قط . واذا هم يطلبون دير زكى ليعيدوا فيه .»[1]

وممن كان لا يفارق الكنائس في الاعياد ، شغفاً بفتاة نصرانية رآها وعلق بها ، عبدالله حفيد الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد والامين . « خرج في عيد مار سرجيس فظفر بها في بستان الى جانب البيعة . وكان قبل ذلك يراسلها ويعرفها حبه لها . فلا تقدر على مواصلته ولا على لقائه الا على الطريق . فلما ظفر بها التوَت عليه وأَبَت بعض الإباء . ثم ظهرت له وجلست معه واكلوا وشربوا . واقام معها ومع نسوة كنّ معها اسبوعاً ثم انصرفت في يوم خميس . فقال عبدالله بن العباس في ذلك وغنّى فيه :

رُبّ صهباء من شراب المجوس قهوة بابليـة خندريس
قد غليتها بنـاي وعودٍ قبل ضرب الشماس بالناقوس
وغزال مكحل ذي دلال ساحر الطرف بابلي عروس
قـد خلونا بطيبه نجتليه يوم سبت الى صباح الخميس
بـين آسٍ وبين وردٍ جنيّ وسط دير القديس ما سرجيس
يتثنّى بحسن جيـد غزال ذي دلال مفضّض آبنوس
كم لثمت الصليب في الجيد منه كهلال مكلّل بشموس»[2]

وبالجملة ان تعرض المسلمين للنظر الى ولدان النصارى وحورهم في الكنائس كان في كل المدن الاسلامية . ولذلك قال ابو العلاء في لزومياته :

فلا تتعرض في طريقك ناظراً نساء النصارى غاديات الى الكُنُس

١) مسالك الابصار ، ص ٢٧٣

٢) الاغاني ١٧ : ١٢٩ ، ومعجم البلدان ٢ : ٦٩٤

الشرب والغناء

على نغم الرهبان وضرب النواقيس

كان المتردّدون الى الاديار للتنزه والقصف وشرب الصبوح والغبوق، ومعهم المغنّون والقيان، كثيرًا ما يسمعون بالقرب منهم صلوات الرهبان والحانهم فربما حركت هذه الالحان من طربهم واستخفّت اصواتها اشواقهم. فتبادلوا الكؤوس على ايقاعها، او تحدّوا في غنائهم ضرب النواقيس. والى هذه العادة اشار الثرواني بقوله:

اشرب على قرع النواقيسِ في دير اشمونى بتفليسِ
لا تُخفِ شرب الكاس، والليل في حدّ نعيم لا ولا بوس
الّا على قرع النواقيس او صوت قسّان وتشميس
وهكذا فاشرب، والّا فكن مجاورًا بعض النواويس[1]

ومن الديارات التي اشتهرت بهذا الطرب دير مارت مريم بين الخورنق والسدير. وهو دير قديم من بناء المنذر مشرف على النجف. قال ابو الفرج الاصبهاني: «كان فيه قس يقال له يحيى. وله ابن يقال له يوشع. يألفه الفتيان الظرفاء. ويشربون عنده على قراءة النصارى وضرب النواقيس.»[2] ونظيره عمر نصر في سرّ من رأى. وهو من متنزهات آل المنذر قديمًا بالحيرة. قال الحسين بن الضحاك، وكان كثيرًا ما يألفه: اصطبحت انا واخوان لي في عمر سرّ من رأى. ومعنا ابو الفضل رذاذ. وزنام الزامر. فقرأ الراهب سفرًا من اسفارهم حتى طلع الفجر. وكان شجيّ الصوت جدًا. ورجّع من نغمته ترجيعًا لم اسمع مثله. فتفهّمه رذاذ وزنام. فغنى ذلك عليه. وزمر هذا. فجاء له مغنى اذهل العقول. وضجّ الرهبان بالتقديس. قال الحسين فقلت:

يا عمر نصر، لقد هيّجت ساكنة هاجت بلابل صبّ بعد إقصار
لله هاتفة هبّت مرجّعة زبور داود طورًا بعد اطوار
لما حكاها زنام في تفنّنها فافتنّ يُتبع مزمورًا بزمار

---

١) معجم البلدان ٢: ٦٤٣

٢) معجم ما استعجم، ص ٢٧١

عجّت اساقفها في بيت مذبحها وعجّ رهبانها في عرصة الدار (١

وفي قوله « لله هاتفة » تصريح بان مرجّع الزبور كان راهبة خلافاً لقوله السابق انه راهب . ولعل الاثنان اشتركا في التلحين . وكان لبعض الراهبات الشماسات بل لبعض الجواري والفتيات ، في الكنيستين النسطورية واليعقوبية ، حظ في خدمة الهياكل والقراءات . ولما زار الخليفة المتوكل على الله دير باب الفراديس بدمشق ودخل البيعة مرّت به شعانين ابنة قس الدير . وعليها شارة من شارات خدمة الكنيسة . وبيدها مبخرة تبخّر بها[٢] . ومن الشواهد ايضاً قول جحظة البرمكي يصف راهبات دير العَلْث :

وظباء يتلون سفرًا من الا نجيل باكرن سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثياباً جعل الله تحتها اغصانا (٣

وقد اعتاد الشعراء ان يطلقوا لفظة « التلاوة او القراءة » على كل تلحين للنصارى . وان يصفوا كل صلاة لهم بانها تلاوة من الانجيل او ترجيع من الزبور . فلا شكّ ان ظباء دير العَلْث كنّ يردّدن بعض الانغام البيعية حين سمعهن جحظة البرمكي . او على الاقل كنّ يشاركنَ فيها . ولكل التقديرين شأنه في تاريخ غابر اخبار الفِرق المسيحية في العراق .

ومن اظرف ما يروى في معنى الالحان النصرانية ان الغريض المغني المشهور كان يستحسن بعضاً منها ويجيد تحدّيها وصياغة اصوات على مثالها . وهو ما حدّث به حماد بن اسحق عن ابيه قال : « سمع الغريض بعض اصوات رهبان بالليل في ديرهم فاستحسنها . فقال له بعض من معه يا ابا يزيد صُغْ على مثال هذا الصوت لحناً فصاغ مثله في لحنه :

يا أمّ بكر حبك البادي لا تصرميني انني غادِ

فما سُمع باحسن منه . »[٤]

وعندنا ان هذه الانغام التي اصغى اليها الغريض وشاقته كانت على الارجح

---

١) معجم ما استعجم ، ص ٢٦٩–٢٧٠
٢) الدر الملتقط من كل بحر وسفط ، خزانة بريتيش موزيوم Add. 19408
٣) معجم البلدان ٣ : ٦٨١
٤) الاغاني ٢ : ١٤٦

انغاماً روميةً. وقد اخذ العرب في بدء غنائهم كثيرًا عن الروم. وبقي الغناء الرومي مأثورًا عندهم متداولًا في الحجاز والعراق والشام . حتى بين النساطرة واليعاقبة الاراميين . ومما يثبت ذلك ان الاعشى الشاعر المشهور كان يزور اساقفة نجران ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ويقيم عندهما ما شاء . فكانوا يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي[1] . وكان لجبلة بن الايهم الغساني عشر قيان « خمس منهن يغنين بالعيدان بالرومية . وخمس يغنين بغناء اهل الحيرة. »[2]

وسنذكر في الفصل الآتي الصوت الذي صاغه المغنون على مثال ضرب النواقيس وسمّوه به.

النواقيس والاجراس

في الاديار والكنائس

قال القلقشندي : « اذا اراد النصارى الصلاة ضربوا بالناقوس. وهو خشبة مستطيلة نحو الذراع يُضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون . »[3] فالناقوس غير الجرس. ولكن قد يُطلق عليه لقول لسان العرب : « الناقوس مضراب النصارى الذي يضربونه اوقات الصلاة. »[4] ومثل هذا التعريف يعمّ كل ما يُتخذ للتأذين في الصلاة .

وتسمّى العصا التي يقرع بها الناقوس « الوبيل ». يقال نقس بالوبيل الناقوس نقساً اي ضرب.[5] ونقست النصارى وانتقست اي قرعت الناقوس قال :

كأن اصوات لِحْييها اذا اصطفقت   اصوات عيدان رهبان اذا انتقسوا [4]

وقد جُمع الناقوس شذوذًا لضرورة الشعر على نواقِس بحذف الياء . ونُقُس على توهّم حذف الالف منه. قال المرقّش الاكبر:

١) الاغاني ٦ : ٧٣
٢) مختار من كتاب اللهو والملاهي تصنيف ابن خرداذبه ، من مخطوطات خزانتي
٣) صبح الاعشى ١٣ : ٢٨٤
٤) لسان العرب ٨ : ١٢٦
٥) تاج العروس ٤ : ٢٦٣

وتسمع ترقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوّ النواقس

وقال الاسود بن يعفر :

وقد سبأت لفتيان ذوي كرم قبل الصباح ولما تُقرع النُقُس (١

وورد جمع النواقس غير مرة في شعر ابن عبد ربه . وقال في ارجوزته التي مدح بها الخليفة عبد الرحمن الناصر مشيرًا الى العدو :

فاقبل العلج لهم مغيثا يوم الخميس مسرعًا حثيثا
بين يديه الرجل والفوارس وحوله الصلبان والنواقس (٢

ومن اوهام الشعراء وكتاب الدواوين ان خشبة الناقوس مقدسة في شرع المسيحيين. وربما قرنوها بخشبة الصليب واقسموا بهما معاً في جملة الأيمان التي كانوا يستحلفون بها النصارى . ومنه قول البحتري يهجو يعقوب بن الفرج الجهبذ النصراني بحلب :

فان كنتَ ادهنتَ،او خنتَ،او لججت بظلميَ في من لجج
فخالفتَ مريم في دينها ، وفارقت ناموسها المنتهج . . .
وهدّمت بيعة ما سرجس واطفأت نيرانها والسُرُج
واوقدت ناقوسها والصليب تحت عثانك حتى نضج (٣

وسبق البحتريَّ ابو نواس فحلّف بالناقوس وحده في ابيات ، قال فيها مخاطباً عبد يشوع بن ما سرجس :

بحارث مريم، ويوم فصح ، وبالقربان ، بالخمر العتيق
وبالصلبان ترفعها رماح تلألأ حين تومض بالبريق
وبالناقوس في البيَع اللواتي تقام بها الصلاة لدى الشروق (٤

وزاد الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد ، في السخف حين اراد استحلاف كاتبه عون النسطوري. فانتدب اسحق بن ابرهيم الموصلي المغنّي المشهور ان يتولى ذلك منه . فقال له في جملة رقاعاته واقذاره : خلعتَ النصرانية وبرئت من المعمودية. وطرحت على المذبح حيضة يهودية . . . والّا فشققت الناقوس وطبخت

١) اساس البلاغة ٢ : ٤٧١
٢) العقد الفريد ٢ : ٣٦٨
٣) ديوانه . خزانة باريس ٣٠٨٦ ، ص ٧٦
٤) ديوانه ، خزانة باريس ٤٨٣١ ، ص ٨٣

به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصوم...»[1]

وربما كان الناقوس والوبيل من حديد وهو قليل . وعلى ذكر الوبيل عصا الناقوس نقل الجاحظ ملحة يطيب ايرادها هنا . قال :

« قال الشرقي بن القطامي : خرجت من الموصل وانا اريد الرقة مستخفياً . وانا شاب خفيف الحال . فصحبني من اهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله . فذكر انه تغلبي من ولد عمرو بن كلثوم . ومعه مزود وركوة وعصاً . فرأيته لا يفارقها . وطالت ملازمته لها فكدت من الغيظ عليه ارمي بها في بعض الاودية ... فقلت له في شأن عصاه (فعدّد منافعها ومرافقها وأبان فوائدها في اثناء السفر وهي سبعة) ... قال فلما صرت الى مفرق الطرق واردت مفارقته قال لي: لو عدلت معي فبتّ عندي كنت قد قضيت حق الصحبة . والمنزل قريب . فعدلت معه فادخلني في منزل يتصل ببيعة . قال فما زال يحدثني ويطرفني ويلطفني الليل كله . فلما كان السحر اخذ خشبة ثم اخرج تلك العصا بعينها فقرعها بها . فاذا ناقوس ليس في الدنيا مثله . واذا هو احذق الناس بضربه . فقلت له ويلك أما انت مسلم وانت رجل من العرب من ولد عمرو بن كلثوم . قال بلى . قلت فلِمَ تضرب بالناقوس . قال: « جعلت فداك . ان ابي نصراني وهو صاحب البيعة . وهو شيخ ضعيف فاذا شهدتُه بَرَرتُه بالكفاية» واذا هو شيطان مارد . واذا هو اظرف الناس كلهم واكثرهم أرباً وطلباً .»[2]

وفي هذه النكتة شاهد على انه كان لضرب النواقيس في الاديار والكنائس اساليب وافانين تختلف وتتباين بحسب حذق الناقس وخفة يده بالضرب وكان الغالب فيه الضرب المقطَّع المكرَّر كصوت وقع حوافر الخيل في عَدْوِ الخَبَب . او كصوت قطر الميزاب . ولذلك سمّى العروضيون بحر الخبب من اوزان العروض « دق الناقوس » عند سكون ثاني الجزء فيه . اي بتسكين عين فَعْلَن . كقوله :

مالي مال الّا درهم او برذوني ذاك الادهم

ومن الابيات النادرة التي أُشير فيها الى احد انواع ضرب الناقوس قول ابن

١) ديوان ابي نواس : الجزء الثالث ، رواية الاصبهاني ، باريس ١٨٣١ ، ص٧٦

٢) البيان والتبيين ، المطبعة العلمية ، ٢ : ٦١-٦٣

الزِنبقي المصري من ابيات في دير القُصَير بظاهر مصر:

وضربَ الناقوس فيه راهب ضربًا على رَيْثٍ، وضربًا بعجل[١]

وقد تقدم من شهادة ابي الفرج الاصبهاني ان الفتيان الظرفاء كانوا يشربون على قراءة النصارى وضرب النواقيس ولذلك قال الثرواني:

اشرب على قرع النواقيس او صوت قسَّانٍ وتشميسِ

وهو ما يدلّ على مقدرة الناقسين وإجادتهم ايقاع الانغام بالوبيل. ولا يخفى ما في ذلك من التفنّن والإطراب. ولذلك لم يأبَ احد متقدمي المغنّين معبد من تقليد اصوات الناقوس في هذا الشعر:

سلي دار ليلى هل تجيب فتنطق وانّى تردُّ القول بيداء سَمْلَقُ

وانى تردّ القول دار، كأنها، لطول بقاها والتقادم، مُهْرَقُ

ودُعي هذا اللحن لهذا السبب باسم «النواقيس» لتحدّيه ايقاعها. ويظهر انه كان غريباً عجيباً. حتى اشتهى الخلفاء انفسهم سماعه. قال ابرهيم بن خالد المعيطي: «دخلت على المهدي وقد وُصف له غنائي وعلمي به. وقال لي تغني النواقيس؟ قلت نعم والصليبِ يا امير المؤمنين. فصرفني».[٢]

ومن لطائف الشعر الذي قيل في مليح راهب يجيد ضرب الناقوس:

رأيته يضرب الناقوس قلت له من علَّم البدر ضربًا بالنواقيسِ

وقلت للنفس: اي الضرب يؤلمكِ ضرب النواقيس ام ضرب النوى؟ قيسي[٣]

وللاقباط تقاليد في اصل اتخاذ النواقيس لا بأس ان ننقلها من حاشيتين قرأناهما في هامش كتاب «مجموع من القوانين البيعية» بآخر الباب الخامس منه: «في القداس والشماس» قال:

الاولى: استنَّ الآباء ضرب الناقوس من قول الله في التوراة (تكوين): ايام فرحكم واعيادكم وشهور كم اهتفوا بالقرون على ذبائحكم الكاملة. ويكون لكم ذكرًا امام الله ربكم.

الثانية: ذكر المؤرخون ان اول من ابتدأ بضرب الناقوس ابونا نوح عليه السلام عندما عمر السفينة. فانه كان يضرب بالناقوس عندما يستدعي الصنّاع للعمل فيها كل يوم. وشهد ايضًا كتاب اسفار الملوك بان اليشع تلميذ اليّا ضرب الناقوس لما سار بنو اسرائيل لمحاربة

---

١) الديارات للشابشتي، ص ١٢٧

٢) تاريخ الطبري، طبعة اروبة، ص ٥٤١-٥٤٢ T. S.

٣) روض الآداب لاحمد بن الحجازي، خزانة بريتش موزيوم Or. 3843 f°, 127vo

الموابين ولم يجدوا ماء في الطريق يشربون. وتنبّأ لهم بان الوادي يمتلئ ماء. وان الله يسلّم المواببين في ايديهم. (١

وفي الشعر الجاهلي والاسلامي اشارات عديدة الى قرع النواقيس بالاسحار عند قيام الرهبان للصلاة. وقد أرِق جرير من ضربها وقت صياح الدجاج حيث قال وهو بدمشق:

لما تذكرت بالديرَين أرّقني صوت الدجاج وضرب بالنواقيس (٢

وكان الرهبان يقرعونها في الصباح والمساء عند اوقات الصلاة. وهو ما اشار اليه ابو نواس في ابياته التي وصف بها رهبان دير حنة وقال:

يكرّرون نواقيساً مرجَّعة على الزبور بإمساء وإصباح (٣

وقد يوافق ضربها عند الفجر صوت المؤذّن. ولذلك دعا ابن المعتز صوتها « تأذيناً » حيث قال:

يا نديميَّ، سقّياني، فقد لا حَ صباح وأذّن الناقوس (٤

ومثله لعلي بن اسماعيل من شعراء خريدة القصر:

قم قبل تأذين النواقيس واجلُ علينا بنت قسيس (٥

وقد انكر الفقهاء قرع النواقيس قبل اوقات التأذين. وعُدَّ ذلك في جملة ذنوب خالد القسري في الكوفة. قالوا: «كانت امّه نصرانية ولم يأمرها بالاسلام. وبنى لها بالكوفة بيعة وساق اليها الاقساء. واقام الناقوس يضرب قبل اذان المسلمين عند صلاتها. فتكلم الناس في هذا وانكروا عليه.»[1] ولهذا لما كان احد الاديار يُهدم او يُغتصب في الاسلام كان يقال فيه بلسان الفرح والاستبشار:

بعد الاناجيل آيات القران به تُتلى، وقد نسخ الناقوسَ تكبيرُ (٦

وربما كان قرع الناقوس داعياً لاغتصاب الدير. وهو ما حدث لدير عباد في ميافارقين. « قيل كان العميد قوام الدين ابو علي البلخي امير ديار بكر نائماً

---

١) خزانة بريتيش موزيوم Or. 1331, f° 44 [ro]

٢) معجم البلدان ٤: ١٠٠٦

٣) ديوانه، خزانة الفاتيكان ٢٨٢٩، ص ١٩٠-١٩١

٤) ديوان المعاني لابي هلال العسكري، بريتيش موزيوم Add. 23443, f° 89[b]

٥) خريدة القصر العماد الكاتب، باريس ٣٣٢٨، ص ١٢٥

٦) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، بريتيش موزيوم Or. 7311, f° 78[b]

بالقصر فسمع وقت السحر صوت ناقوس فقال ما هذا. فقيل له ان هذا دير عباد على الجبل. فلما اصبح واجتمع الناس قال يُضرَب في بلاد المسلمين وعلى رؤوسهم الناقوس ؟ فإذن نحن في القسطنطينية. فقالوا يا مولانا هذا عُمل مرة مسجدًا وعاد النصارى ردّوه ديرًا . فامر بقلع المذبح وعمل المحراب واتخذه مسجدًا وسُمّي مسجد الفتح. واجتمع النصارى وخدموا بمقدار خمسين الف دينار. فلم يقبل منهم وبقي على حاله الى الآن مسجدًا.»[1]

وقريبٌ من ذلك ما جرى في ٨ رمضان سنة ٧٨٠ (٢٩ دسمبر ١٣٧٨ م) لكنيسة ابي النمرس من الجيزة بمصر. «بات احد الفقراء الزيالعة بناحيتها. فسمع لنواقيس كنيستها صوتاً عالياً . فوقف للسلطان الاشرف شعبان فلم ينل غرضاً منه . فتوجه الى الحجاز وعاد بعد مدة طويلة وبيده اوراق تتضمن انه تشفع برسول الله عند قبره في هدم كنيسة ابي النمرس. ووقف بها الى الامير الكبير برقوق الاتابك. فرسم بهدمها وعملها مسجدًا . وبذل النصارى في تركها ذهباً له صورة فلم يقبل.»[2]

وهذه الحادثة جديرة بالتنويه في تاريخ الكنائس في الاسلام.

ولما افتتح العرب بلاد الروم البيزنطيين كان في جملة الشروط التي اشترطوها على النصارى في العهود المعطاة لهم « ان لا يُحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً » كما جاء في العهد الذي كتبه عياض بن غنم لاهل الرقة[3]. وروى القاضي ابو يوسف «ان ابا عبيدة بن الجراح اشترط على اهل الشام ان لا يضربوا نواقيسهم قبل اذان المسلمين. ولا في اوقات اذانهم.»[4]

وفي بعض المراسيم السلطانية، في دولة المماليك بمصر، نهي عن ضرب الناقوس بغير تقييد. كمرسوم الملك الناصر سنة ٧٠٠[5] (١٣٠٠/١ م) او امر بترك ضرب

١) مجلد من تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي، بريتيش موزيوم Or. 5803, f° 150a

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، رقم ١٧٢٧ باريس ، ص ١١٥ ؛ وذيل ابن قاضي شهبة ، ٥٩٨١، ص ٢٥٢

٣) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اروبة ، ص ١٧٢

٤) كتاب الخراج ، ص ١٦٥

٥) العبر لابن خلدون ٥ :٤١٦

الناقوس مطلقاً كرسوم الملك الصالح سنة ٧٥٤[1] (١٣٥٣ م) او تحريم اظهار الناقوس كرسوم نائب المملكة الطرابلسية الى نائب حصن الاكراد سنة ٧٦٥[2] (١٣٦٣/٤ م) والمراد في الحقيقة ان يكون ضرب الناقوس ضرباً خفيفاً في جوف الكنائس فقط، لا تحريمه على كل حال.

ومن البديهي ان يكون الناقوس مبغَّضاً الى الفقهاء والعلماء. لكونه من اظهر شعائر النصرانية. واكثرها جلبةً وانتشاراً. فكانوا يكرهون صوته ويكرهون كل ما يقرب منه او يضاهيه. ولذلك قال السيوطي في كلامه على آداب الوليمة وجواز السماع فيها: «اما ما كان فيه الصنج والجلاجل فينبغي ان يكون مكروهاً لشبهه بالناقوس.»[3] (كذا)

سهم اصاب ، وراميه بذي سَلَمٍ ، مَن بالعراق ! لقد ابعدتِ مرماك !

وفي عكس ذلك كان مُجّان الشعراء والمغرمون بالصهباء وطروق الحانات يتلذذون جداً بسماع النواقيس في الاسحار لاعتبارهم « تأذينها » دعوة وتنبيهاً لهم لاغتنام شرب الصبوح وتجديد مجالس اللهو والطرب. وقد مرَّ بنا بعض اشعارهم في هذا المعنى. وللامير تميم بن المعز لدين الله:

قـد دعانا الى الصبا الناقوسُ حين حنَّت الى الصباح النفوسُ[4]

وللحسين بن الضحاك :

وندمان صدق لا ترى بين جهره وبـين الذي تخفي سريرته فرقا
تـنبَّه للنـاقوس ، اول نقره ولم تبقِ لـذات الكرام له علقا[5]

وله ايضاً: حاجتي للصبوح نقر النوا قيس ونجوى حمامة وحمام
فاصبحاني، قبل الصباح، مداماً قهوة مزَّة بماء غمام[6]

---

١) تاريخ البدر للعيني ، بريتيش موزيوم Add. 22360, f° 59^{ro}
٢) صبح الاعشى ١٣ : ٣٢
٣) نزهة المتأمل ومرشد المتأهل لجلال الدين السيوطي، بريتيش موزيوم Or. 4640, f° 140^{vo}
٤) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم ، بريتيش موزيوم Or. 3628 f° 216^{vo}
٥) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم، لوندرة Or. 3628, f° 476
٦) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم، لوندرة Or. 3628, f° 232

ولا يُعلم بالضبط في اي وقت اتُخذت الاجراس في لبنان بدلًا من النواقيس قبل ان تشمل ايضاً سائر بلاد الشام ومصر. وفي تاريخ الدويهي انهم «في سنة ١١١٢ قرعوا نواقيس النحاس عوض الخشب في لبنان.»[١] ولكنه لم يذكر على اي سند عوّل لاثبات هذه الرواية وتعيين السنة. وكلاهما موضع نظر. ولعله قدّر ان دخول الاجراس في لبنان كان لا محالة بعد دخول الصليبيين طرابلس واستقرارهم في بعض انحاء الجبل. واذا صح ان الاجراس قُرعت حقيقة في عهد الصليبيين في زمن لا سبيل الى ضبطه بغير ثبت ولا برهان. فلا ريب انها لم تكن الا في الكرسي البطريركي وحده في وادي قنوبين. ولنا على ذلك شهادات السيّاح الذين زاروا الجبل وكتبوا عنه. واقدم ما وقفنا عليه منها في رحلة لاحدهم سنة ١٥٣٣—١٥٣٤ جاء فيها ان بين كل الطوائف الشرقية لم يكن غير الموارنة في لبنان منفردين باتخاذ الاجراس في الكنائس[٢] يعني كنائس قنوبين. وكان فيها جرسان فقط شاهدهما السائح الفرنسي كارلياي دي پينون سنة ١٥٧٩ وقال انه لم يَرَ غيرهما في تركية[٣]. وفي سنة ١٦٠٥ حكى زائر آخر ان الاجراس كانت ايضاً في بعض اديار اخرى. قال وهي نادرة في هذا الجبل[٤]. ونصّ الراهب اوجين روجه سنة ١٦٣٤ على ان الاجراس كانت اربعة في الكرسي البطريركي بقنوبين، ودير مار انطونيوس، ودير مار اليشع. قال واما سائر الكنائس والاديار فخالية من الاجراس وليس فيها الا خشبات معلقة بحبال وتقرع بالعصي[٥]. ولما زار قنوبين الكاهن الانكليزي مُونْدرل في ٩ ايار (مايو) سنة ١٦٩٧ قال ما تعريبه: «في قنوبين جرسان صغيران في الحائط لدعوة الرهبان للصلوات. وهي مزية امتاز بها هذا المكان لا يتمتع بها غيره في الجبل وذلك لبعد الاتراك عن سماعها.»[٦]

١) تاريخه، المطبعة الكاثوليكية، ص ١٠٣

٢) G. Affagart, *Relation de Terre Sainte.* Paris, 1920, p. 88

٣) Carlier de Pinon, *Relation de voyage en Orient.* Paris, 1920, p. 294

٤) Henri de Beauvau, *Relation Journalière du voyage du Levant.* Nancy, 1619, p. 98

٥) F. Eugène Roger, *La Terre Sainte*, Paris, 1664, p.491

٦) H. Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem.* Paris, 1706, p.242

واكبر حجة على ان الاجراس بقيت دائمًا قليلة معدودة في لبنان ، وان النواقيس لم تنقطع حتى الى اواخر القرن السابع عشر ، قول الاب بِزْسو ، رئيس الآباء اليسوعيين في سورية ، في كتاب له ارسله الى فرنسة بتاريخ ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٦٩٩: «اذا بلغت الموضع الذي في نيتي القيام برسالتي فيه ففي النهار نفسه يُنادى للاجتماع بقرع الناقوس الخشب . وهو قبيح الصوت ولكنه يُسمع من بعد فرسخين في ما جاور من الجبال.»[1]

وكانت الحال كذلك في الديار المصرية . ولم تكن الاجراس الا في الاديرة النائية في القفار والجبال البعيدة عن العمران حيث لا يسكن المسلمون . كدير مار انطونيوس للاقباط في جبل العربة في الصعيد . وقد زاره سنة ١٦٧٣ الاب ڤانسلب الدومنيكي وحكى انه رأى في كنيسة القديسين بطرس وبولس فيه جرسًا صغيرًا يُقرَع لايذان الرهبان بالصلوات وبعض الاشغال . قال «وهو الجرس الفرد في كل القطر المصري.»[2]

ومما يجب ان ينبَّه عليه هنا ان عادة ضرب النواقيس الخشب كانت شاملة ايضًا بلاد الروم شائعة في القسطنطينية قبل استيلاء اللاتين عليها . قال احد سيّاح الروس انطونيوس مطران نوفغورود في كتاب «الحاج» (سنة ١٢٠٠ م):

«لا توجد اجراس في كنيسة اجيا صوفيا . ولكن هناك مضراب يُقرع باليد في السحر . ولا يقرع للقداديس ولا لصلوات المساء . خلافًا لبقية الكنائس فان نواقيسها تُدق للقداديس وصلوات المساء . وقد اتخذوا هذا المضراب باشارة الملاك . واما اللاتين فانهم يقرعون الاجراس.»[3]

ويقال ان عادة الاجراس دخلت القسطنطينية على يد الصليبيين . وفي سنة ١٢٠٤ شادوا القبة وازالوا من ظاهرها مسحتها القديمة.[4]

---

1) F. Besson, *La Syrie et la Terre Sainte au* XVII *siècle*. Paris, 1862, p. 448

2) P. Vansleb, *Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte en* 1672-1673. Paris, 1677, p. 293-313

3) M^me^ B. de Khitrovo, *Itinéraires Russes en Orient*. Genève, 1881, p. 97

4) J. Ebersolt, *Constantinople Byzantine et les voyageurs du Levant*. p. 154

النذور والاستشفاء

في الديارات

قلّ ان يكون دير في العراق، والجزيرة، ومصر، والشام، لم تُحمل اليه النذور والهبات، لوجود بعض الصور فيه والايقونات المشهورة بالاشفية والكرامات واجتراح المعجزات او لمكان بعض الشهداء او القديسين في مزاراته ومعابده. وكان الرهبان يرتفقون بهذه النذور والقرابين للقيام بأودهم وحاجات ديارهم، وتأدية خراجهم وضرائبهم. وربما طاف جماعة منهم في طلبها وجمعها كما كان يجري قبلًا في دير صيدنايا مثلًا.

ومن الديارات التي كان لها سمعة طائرة في كثرة هذه الهبات والصدقات دير برصوما قرب ملطية. وكان يُنادى له بطلب نذره في نواحي الشام، والجزيرة، وديار بكر، وبلاد الروم. ومما يجدر بالتنبيه عليه ان بعض هذه النذور كانت تأتيه من المسلمين انفسهم، كما لا يزال يُشاهد مثل ذلك احيانًا في ديار مصر. قال ياقوت: «وفيه رهبان كثيرة يؤدّون الى ملك الروم وللمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار على ما بلغني. حدّثني العفيف مرجّى الواسطي التاجر قال: اجتزت به قاصدًا الى بلاد الروم. فلما قربت منه أُخبرت بفضله وكثرة ما يُنذَر له. وان الذين ينذرون له قلّ ما يخالف مطلوبهم. وان برصوما فيه احد الحواريين. فألقى الله على لساني ان قلت ان هذا القماش الذي معي مشتراه بخمسة آلاف درهم. فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالي خمسون درهمًا فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء. فعجبت ولما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهمًا.»[1]

وقريب منه دير السيدة في صيدنايا بجوار دمشق. ذكر العمري انه كان «له مغلّات واسعة وتأتيه نذور وافرة».[2] ولا تزال هذه المغلات والنذور مطمح اطماع الرؤساء والوكلاء:

١) معجم البلدان ٢: ٦٤٦-٦٤٧

٢) مسالك الابصار، ص٣٥٦

لحم اطاف به سِباع جُوَّع ما لا يُذاد فانه يُتقسَّم

ومنها دير مار توما على جبل عالٍ في ضاحية ميافارقين « تُنذر له النذور وتُحمل اليه من كل موضع ».[1] ودير كفتون ببلاد طرابلس وكان له « صيت جائل. وسمعة مذكورة . والنصارى تقصده وتحمل اليه النذورة. »[2] والديارات السبعة في الوجه البحري بمصر. كان « سكانها في غاية من قشف العيش وشظف القوت. ويحمل النصارى اليهم جلائل النذور والقرابين. »[3]

ومن الديارات المشهورة بالاستشفاء:

١ دير الجبّ في شرقي الموصل بينها وبين إربل . « يقصده الناس لاجل الصرع فيبرأ منه بذلك كثير. »[4]

٢ الدير الاعلى بالموصل. « وتحت الدير عين كبيرة تصبّ الى دجلة . ولها وقت من السنة يقصدها الناس فيستحمّون منها. ويذكرون انها تبرئ من الجرب والحكة. وتنفع المقعدين والزمنى. »[5]

٣ دير هزقل بالشام يُستشفى به من الجنون. قال دعبل حين هجا ابا عبَّاد كاتب المأمون:

فكأنه من دير هزقل مُفلت حَنِق يجر سلاسل الاقياد

ويقال له ايضاً دير حزقيال. ولا ريب ان هزقل تحريف له وربما حُبس به بعض العشاق على تقدير ان العشق ضرب من الجنون. قال ابو الفرج الاصبهاني: « حدَّث شريح الخزاعي قال: اجتزت بدير حزقيال فبينما انا ادور به اذ بسطرين مكتوبين على اسطوانة منه فقرأته فاذا هو:

ربّ ليلٍ امدّ من نَفَس العا شق طولاً ، قطعته بانتحاب
ونعيم كوصل من كنت اهوى قد تبدّلته ببؤس العذاب

---

١) معجم البلدان ٢: ٦٩٧

٢) مسالك الابصار ، ص ٣٢٥

٣) مسالك الابصار ، ص ٢٧٤

٤) معجم البلدان ٢: ٦٥١

٥) الديارات للشابشتي ، ص ٧٥ ، وفي المتن « المقرعين » وهو تصحيف

نسبوني الى الجنون ليخفوا ما بقلبي من صبوة واكتئاب
ليت بي ما ادَّعوه من فقد عقلي فهو خير من طول هذا العذاب

وتحته مكتوب: هويت فمُنعت وشُرِّدت وطُردت. وفُرِّق بيني وبين الوطن. وحُجبت عن الإلف والسكن. وحُبست في هذا الدير ظلماً وعدواناً. وصُفِدت في الحديد زماناً.

واني، على ما نابني وأصابني، لذو مرّة باقٍ على الحدَثان
فان تُعقب الايام اظفر بحاجتي، وان ابقى مرمياً بي الرَّجَوان
فكم ميِّت مثلي بغيظ وحسرة صبور بما تأتي به المَلَوان
هو الحب افنى كل خلق بجوره قديماً، ويفنى بعدي الثقلان

قال فدعوت برقعة وكتبت ذلك اجمع. وسألت عن صاحب القضية. فقالوا رجل هوي ابنة عمه. فحبسه عمه في هذا الدير. وعزم على حمله الى السلطان خوفاً ان تفتضح ابنة عمه. فمات عمه. فورثه هو وابنته. فجاء اهله واخرجوا الفتى من الدير وزوّجوه ابنة عمه.»[1]

ولمجانين دير حزقيال نِكات واخبار وردت في كتب الادب والديارات.

٤ دير مياس في ضواحي حمص. قيل كان فيه عظام بعض الشهداء تُزار طلباً للعافية. «وكان البُطين الشاعر قد مرض. فجاؤوا به اليه يستشفي فيه. فقيل ان أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد[2]. واتفق ان مات عقيب ذلك. فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله. وقصدوا الدير ليهدموه وقالوا نصراني يقتل مسلماً؟ لا نرضى او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها. فرشا النصارى امير حمص حتى دفع عنهم العامة.»[3]

٥ دير يونس في الجانب الشرقي من الموصل وتحته عين تعرف بعين يونس. كان الناس يقصدونها للاغتسال منها والاستشفاء. ولذلك قال فيها ابو شاس:

يا دير يونس، جادت صوبك الدِّيَمُ حتى تُرى ناضرًا بالنور تبتسم
لم يشفِ في ناجر ماءٌ على ظماٍ كما شفى حرّ قلبي ماؤك الشَّبِم

---

١) معجم البلدان ٢: ٦٥٤-٦٥٥
٢) الشاهد هنا بمعنى الشهيد
٣) معجم البلدان ٢: ٧٠٢

ولم يحلّك مخزون على سقم الّا تحلّل عنه ذلك السقم [١]

٦ دير الكَلْب بنواحي الموصل. فمن عضّه الكلب الكَلِب وبودر بالحمل اليه وعالجه رهبانه برئ. ومن مضت له اربعون يوماً من العضّة لم ينجع فيه علاج. وفيه يقول السفّاح الشاعر:

سقى ورعى الله دير الكَلْب ومن فيه من راهب ذي ادب [٢]

٧ دير القيّارة على اربع فراسخ من الموصل. وتحته عين قير. وهي عين تفور بماء حارّ ويخرج منه القير. ومن كانت به علة أعيت الاطباء يقصده ويقيم به خمسة ايام مستنقعاً في العين المذكورة. فيبرأ من النقرس والتشنج والاورام الجاسية والرياح الغليظة والجراحات[٣].

٨ دير باطا بين الموصل وتكريت. فيه بئر تنفع من البَهَق.[٤]

٩ دير ابا[٥] هور بسرياقوس من اعمال مصر. كان يستشفى فيه من داء الخنازير بعلاج للرهبان ورماد يذرّونه على موضع الوجع.[٦]

---

١) الديارات للشابشتي، ص ٧٨-٧٩

٢) الديارات للشابشتي، ص ١٣٣؛ ومعجم البلدان ٢ : ٦٩؛ ومسالك الابصار، ص ٢٥٤-٢٥٥

٣) الديارات للشابشتي، ص ١٣٣؛ ومسالك الابصار، ص ٣٠١؛ والاغاني ١٨ : ٣٠

٤) معجم البلدان ٢ : ٦٤٦

٥) ابا مقتطعة من كلمة أمْبا بالقبطية او الحبشية بمعنى الاب. واكثر ما تكتب «انبا» بالنون لوقوع الميم ساكنة قبل الباء. وقد تداولتها السنة العامة ولا سيما بمصر وتصرف جا بعض الكتاب والمؤرخين تصرفهم بلفظة الاب احد الاسماء الخمسة لاشتباه الحرفين لفظاً ومعنًى. فقالوا كنيسة بو سرجة وكنيسة بو بخوم. ودير بو ساويرس. ودير بو شنودة. ودير ابي بشاي. ودير ابي مقار الكبير. ودير ابي يوسف وهلمّ جرًّا من نظائر اسماء الكنائس والاديار الواردة في خطط المقريزي ومعجم البلدان لياقوت. وقد اخترنا اثبات لفظ الف ابا دائمًا جريًا مع الاصل ورفعًا لكل التباس

٦) الديارات للشابشتي، ص ١٣٣-١٣٤؛ ومسالك الابصار، ص ٢٦٠

لباس الرهبان والراهبات

اجمع الشعراء على وصف لباس الرهبان والراهبات بالسواد الحالك. ولم نقف على اشارة واحدة الى انهم تدرعوا احياناً الصوف الابيض. ولذلك صحّ للسري الرفّاء تشبيه الليل بالراهب حيث قال من ابيات:

انظر الى الليل كيف تصدعه   راية صبح مبيضّة العَذَب
كراهب حنّ للهوى طرباً   فشق جلبابه من الطرب (١

ونظيره لامية بن عبد الصلت المصري:

والليل في شملة ظلمائه   كأنه الراهب في البرنس (٢

وللحسين بن الضحّاك في فتى من الرهبان كان يدير حانة عمر نصر بسامرّا:

جتّرٌ كالغصن في سُلب مسوّدة   كأن دارسها جسم من القار (٣

ومثله لابن خطيب دارياً في رهبان دير مار الياس:

مع فتية شبه بدور الدجى   اذا بدَوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم   اصفى من الراح لمستأنس (٤

ولعبدالله بن المعتز في دير عبدون من ابيات مشهورة:

يا طالما نبهتني للصبوح به   في ظلمة الليل والعصفور لم يَطر
أصوات رهبان دير في صلاتهم   سود المدارع،نعّارين في السَّحَرِ (٥

وكان تحت هذه السُلُب والمدارع السود، المسوح في الغالب من الشعر الاسود. وقد اشار اليها والى ما فوقها من فاحم الثياب ابن عاصم المصري في ابيات له في دير القصير بظاهر مصر:

وكأنّ الرهبان في الشعر الاسود سود الغربان في الاوكار (٦

---

١) يتيمة الدهر للثعالبي، طبعة مصر، ٢: ١٢١
٢) معجم البلدان ٢: ٦٩٩
٣) معجم البلدان ٣: ٧٢٥
٤) المنهل الصافي لابن تغري بردي، الخزانة التيمورية، ٤: ٦١٧–٦١٨
٥) ديوانه ؛ خزانة باريس ٣٠٨٧، ص ١٠٥
٦) معجم البلدان ٢: ٦٨٦

ولابي نواس يصف راهباً ساقياً في دير الأُكيراح:

يسقيكها مدمج الخصرين ذو هَيَف اخو مدارع صوف فوق أمساح (١

ومن هذا البيت يستدلّ على ان المسح كان شعار كل راهب بين شيخ وفتى. ولذلك قال السري الرفاء في غلام من دير يوسف في الموصل:

ومهفهف لو كنت املك امره بدّلت سُحق مسوحه بقراطق (٢

وكان للراهبات مسوحهنّ ايضاً . وقد تقدم بيتان لجحظة البرمكي وصف فيهما عذارى دير العلث فقال في الثاني منهما:

لابسات من المسوح ثياباً جعل الله تحتها اغصانا

فالبرانس اذن والمدارع والمسوح هي كل ما نعلمه اليوم من ملابس سكان الاديار قديماً. وكانوا يشدون فوقها الزنار، وهو اهم سِمات اهل الذمة في الاسلام. وقد نعت ابن المعتز رهبان دير عبدون بقولهِ « مزنّرين على الاوساط » . وكان اذا اضطُرّ احدهم الى انتحال الاسلام يبادر قبل كل شيء الى قطع زناره. وهو ما فعله ابو العتاهية تقليدًا حين اراد تقبيل يدَي عُتبة التي تغزل بها في شعره ومثل لديها في زي راهب اختار الاسلام على يدها.[٣]

وقد نقبنا عبثاً في كتب الديارات عن اشارة الى ما كان يتقنع به الرهبان والراهبات مع البرانس، فلم نجد الا ذكر قلانس رهبان دير المصلبة بظاهر القدس في شعر لابي علي حسن الغزي جمع فيه المسح والزنار والقلنسوة فقال:

ومزنّرين ، اذا تلوا انجيلهم وتطفوا ، فحمائم وغصون
نزعوا القلانس والمسوح فزُحزحت منهنّ عن غُرر الشموس دجون (٤

---

١) ديوانه ، خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ص ، ١٠٠
٢) ديوانه ، خزانة باريس ٣٠٩٨ ، ص ١٤٧
٣) تاريخ بغداد للخطيب ٦ : ٢٥٤–٢٥٥
٤) مسالك الابصار ، ص ٢٤٠

التاج او اكليل الشعر

كان اتخاذ التاج او اكليل الشعر في الرؤوس (la tonsure) معروفاً بين الرهبان في الجاهلية. وفي حديث ابي بكر حين بعث الجند الى الشام انه قال في وصيته لهم « ستجدون اقواماً محوَّقة رؤوسهم» ذكر ابن الاثير في تفسيره ان الحوق الكنس. قال: « اراد انهم حلقوا وسط رؤوسهم فشبّه ازالة الشعر منه بالكنس. ويجوز ان يكون من الحوق. وهو الإطار المحيط بالشيء. والمستدير حوله ».[1] ولا حاجة الى التنبيه ان التفسير الثاني هو الاقرب والارجح.

ولا يبعد ان يكون الرهبان الشرقيون قد سبقوا اخوانهم في الغرب الى اتخاذ التاج او اكليل الشعر. وقد ورد ذكره في بيت لابن المعتز وصف به رهبان دير عبدون بقوله:

مزنّرين على الاوساط، قد جعلوا على الرؤوس اكاليلاً من الشعر [2]

وللسريّ الرفّاء يذكر رهبان دير يوسف في الموصل:

من كل اهيف تاجه من شعره فكأنما هو شارق في غاسق [3]

والى مثل هذه العادة اشار ابو نواس يصف رهبان دير حنة:

تاقي جم كل محفوّ مفارقه من الدهان عليه سُحق امساح [4]

ولم تكن هذه العادة مختصّة بالرهبان الكهنة فقط، بل كان الشمامسة انفسهم يتخذونها ايضاً، عندما ينقطعون لخدمة الكنائس. ولذلك عرّف ابن سيده الشماس بأنه « من رؤوس النصارى يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة ».[5]

والى مثل هؤلاء الرهبان والشمامسة المتوّجين اشار مُدرك الشيباني حين استحلف

١) النهاية ١: ٢٧١-٢٧٢

٢) ديوانه، خزانة باريس ٣٠٨٧، ص ١٠٥

٣) ديوانه، خزانة باريس ٣٠٩٨، ص ١٤٧

٤) ديوانه، خزانة باريس ٤٨٢٩، ص ١٩١

٥) المخصص ١٣: ١٠٠

عمرو بن يوحنا النسطوري في جملة الاقسام النصرانية التي سردها في قصيدته المشهورة فقال:

بحق قوم حلقوا الرؤوسا وعالجوا طول الحياة البوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا مشمعلين ، يعبدون عيسى [١]

ومن اغرب ما جاء في الاساطير القديمة في تفسير هذه العادة ما رواه وهب ابن منبّه في كلامه على حنانيا الرسول حين شفى عيني بولس بدمشق. قال:

« كان بولس قد اخذ ابن اخيه وكان قد آمن بالمسيح. فحلق وسط رأسه ونادى عليه ورجمه حتى مات. فمن ثم اخذ النصارى حلق وسط رؤوسهم للتأسي بذلك فيما كان عوقب بـه . وانه كالتواضع لا كالعيب لمن آمن بالمسيح عليه السلام. »[٢]

وكانت هذه العادة في اوائل القرن السادس عشر متّبعة عند الارمن كما يؤخذ من شهادة سائح فرنسي سنة ١٥٣٧ مرَّ بالقدس وقال في جملة كلامه على فِرَق النصارى فيها:

« كهنة الارمن يتزوجون كسائر كهنة الفرق الاخرى. . . وفي شعور رؤوسهم اكاليل مدوَّرة عريضة . ومع ذلك لا يقصّون اطراف جممهم ولا لحاهم ».[٣]

وقد اهمل اليوم رهبان الشرق هذه العادة في جملة ما اهملوه من رسوم الرهبانية قديماً.

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧: ١٥٦

٢) تهذيب ابن عساكر ٥: ١٢-١٣

٣) G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris 1902, p. 86

وصف الرهبان

بالعبادة ، والتقوى ، والعلم ، والحكمة

من وقف على ما تقدم من الفصول والاوصاف يوشك ان يعتقد ان الديارات اصبحت في الاسلام كما قال دعبل بن علي:

مدارس آيات خلت من تلاوةٍ ومنزل وحيٍ مقفر العرصات (١

واذا اعتبر القارئ ما كان يجري في حاناتها بين الخلعاء والمتطرّبين من « الامور والاعاجيب » يدرك مغزى قول كشاجم فيها:

منازل كانت لي بهنّ مآرب وكنّ مواخيري ومتنزهاتي (٢

ولكن هذه التهمة الشائنة التي ألصقها بخلَوَات الرهبان والنساك بعض الاضياف والشعراء ، المتطرّحين في دورها وافنيتها ، هي اوهى من ان تتناول كل الاديار والصوامع . وفيها القوّامون الصوّامون « النعّارون في السحر » ، كما تقدم من لفظ ابن المعتز . وقد انتصر غير واحد من شعراء الاسلام لهؤلاء القسّيسين والرهبان الذين اثنى عليهم القرآن . ووصفوهم بالتقشف والزهد والانقطاع للصلاة والعبادة . واطرأوا علمهم وآدابهم وفلسفتهم وحفظهم للنحو والشعر والطب والالحان . مع خفة ابدان وارواح . واخلاق اصفى من الراح . وهو ما عدّده الخالدي في ابيات مدح بها رهبان دير مرّان بدمشق ، وهو من اديار الملكيّين ، قال:

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اقمت فيه الى ان صار هيكله بيتي ، ومفتاحه للحسن مفتاحي
منادماً في قلاليه رهابنة راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل اديان ومعرفة فيهم بخفّة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الآداب فلسفة وحكمة بعلوم ذات ايضاح
في طب بقراط لحن الموصليّ ، وفي نحو المبرد اشعار الطرمّاح (٣

ولابي نواس يمدح رهبان دير حنة ، ويصف عبادتهم ونحافة اجسامهم من

---

١) ارشاد الاريب ٤ : ١٩٤

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٨٦

٣) يتيمة الدهر ، طبعة دمشق ، ١ : ٥١٢–٥١٣

القنوت والسهر وشظف العيش حتى صاروا كالاشباح:

يا دير حنة من ذات الأُكَيراح من يصحُ عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيكَ ظباءً لا قرون لها يلعبنَ منا بالباب وارواح
دعِ التشاغل باللذات ، يا صاحِ ، من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم من العبادة نُحف الجسم ، أطلاح
لم يبقَ منهم لرائيهم اذا حصلوا حذارَ ما خوّفوه ، غير اشباح
تلقى بهم كل محفوّ مفارقه من الدهان عليه سُحق امساح
لا يدلفون الى ماء بآنيةٍ الّا اغترافًا من الغدران بالراح (١

ثم عاد في ابيات اخرى في مثل وزنها وقافيتها واشار ثانية الى هزالهم ودقة اشباحهم من اطالة الصلاة وترجيع الزبور ودراسة الانجيل في الاسحار والعشيّ، وقال:

دعِ البساتين من آس وتفاحِ واعدل،هُديتَ، الى دير الأُكَيراحِ
اعدل الى نفر دقت شخوصهم من العبادة الا نضو اشباح
يكرّرون نواتياً مرجّعة على الزبور بإمساء وإصباح
تبعد بسمك عن صوت تكرّهه فلست تسمع فيه صوت فلّاح
الا الدراسة للانجيل عن كُتُب ذكر المسيح بإبلاغ وإفصاح (٢

ومن كانت هذه صفته من الضعف والزهد ، والعكوف على السجود والعبادة ، والرغبة عن الدنيا وغرورها ، والانقطاع الى امور الآخرة «حذار ما خوّفوه منها» ، كان اجلّ واعقل من ان ينقاد الى ملابسة الشهوات والادناس ويتعرض لتهمة ليلة الماشوش التي اراد بعض السفهاء والاعداء إلصاقها بهم زورًا وافتئاتاً ، كما سنبيّنه في الفصل الآتي.

---

١) ديوانه ، خزانة باريس ٤٨٣٩ ، ص ١٩٠-١٩١
٢) ديوانه ، خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ، ص ١٠٠

ليلة الماشوش

الماشوش — وجاءت في الشعر بغير الف اي مشوش — لفظة دخيلة عراقية. زعم حمزة الاصفهاني، في تعليقه على بيت لابي نواس، انها «سريانية معربة عن مشوشي. ومعناها الاجتماع».[1] ولم يذكر عمن نقل هذا التفسير. وليس في معاجم اللغة الارامية ما يؤيده. وارتأت مجلة «لغة العرب» البغدادية انها تحريف الحاشوش بالحاء. ويراد بها جمعة الصلبوت او جمعة الآلام عند النصارى[2]. وشتان بين مدلول كل من اللفظتين في العرف والاصطلاح. فيبعد جدًّا تفريع الاولى من الثانية. وعندها، ان القرامطة فيما ذهب اليه بعض الكتبة، هم اول من عُرفوا بهذه البدعة. واشارت الى نشأتهم سنة ٢٦٤ (٨٧٧/٨ م)، فتكون ليلة الماشوش قد أُضيفت اليهم قبل إلصاقها برهبان دير الخوات بزهاء ١٢٦ سنة هجرية اي في زمان الشابشتي مؤلف كتاب الديارات المتوفى سنة ٣٩٠ (١٠٠٠ م)

والصحيح ان هذه التهمة القبيحة التي تحامل بها بعض خصوم النصرانية على رهبان الاديار كانت شائعة معروفة في بغداد منذ اوائل الخلافة العباسية فهي قد تقدمت نشأة القرامطة. وقد نصَّ عليها ابو نواس في بيت له في بهروز قال فيه:

تقيٌّ في الولادة عن مشوشٍ   برخصه النصارى للقسوس

قال ابو عبدالله حمزة بن الحسن الاصفهاني في شرحه هذا البيت:

«يزعمون ان للنصارى ليلة يجتمع فيها العُزّاب من القسّان والرهبان «لاستباحة» الابكار. واهل العراق يسمونها ليلة الماشوش. والفرس يسمونها «شب اكلهرزان» (شب كُلْمِذاران اي ليلة العذارى). والنصارى لا تُعرف بذلك.»[1]

وهذا القول وحده كافٍ لدحض كل تهمة وفرية وتبرئة الرهبان من هذه المخزية الفظيعة. وهو شاهد صريح باثبات ورودها الى العراق في جملة ما اتى به الفرس من العادات والاخلاق والمساوئ التي ادخلوها في الحضارة العباسية.

١) ديوان ابي نواس، خزانة باريس ٢٨٣١، ٢: ٧٩

٢) مجلة لغة العرب: الجزء الخامس من السنة الثانية ١٩٣٠، ص ٢٨٦

ولم ينفرد حمزة الاصفهاني وحده بالدفاع عن النصارى ونضح هذه المعرّة عنهم ، بل اربى عليه احد مؤلفي الشيعة انفسهم في الانتصار للقسّان والرهبان والثناء على سيرتهم وصيانتهم . فقال، ولا تخفى مكانة قولهِ في العدل والانصاف :

« واما الماشوش فهو من تخريجات السفهاء عليهم انها ليلة يجتمع فيها رجالهم ونساؤهم لطلب عيسى عليه السلام . ثم يتهارجون كيف اتفق في الظلام . ونعوذ بالله في التحريض على مُوالٍ او مُعادٍ . وخاصة فرقة النصارى . فسيرتهم — على فساد اعتقادهم — هي بلوغ النهاية في الصيانة والامانة والشفقة على الكافة . »[1]

ولا نعلم قولًا للشيعة اجمل في الثناء على آداب النصرانية وفضائلها .

وفي اتفاق اهل السنّة والشيعة على اداء مثل هذه الشهادة غناء وكفاء لقطع قول كل عداء ومراء ، ورحض كل ريبة ووصمة عن سكان الديارات .

ولم ينتهِ الينا من كل روايات مؤلفي كتب الديارات عن الماشوش الا ما حكاه منها الشابشتي فقط . فلا ندري ما نقله منها في هذا المعنى هشام الكلبي ، وابو الفرج الاصبهاني ، والخالديان ، والسريّ الرفّاء ، والسميساطي . وقد اكتفى ياقوت بنسخ ما عند الشابشتي . ولا بأس بايراده بالحرف ليكون هـذا الفصل جامعًا لكل ما قيل في ليلة الماشوش . قال الشابشتي :

« دير الخُوات بعكبرا . وهو دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه . . . وعيده الاحد الاول من الصوم يجتمع اليه كل من يقرب منه من النصارى والمسلمين . فيعيّد هؤلاء ويتنزّه هؤلاء . وفي هذا العيد ليلة الماشوش . وهي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال فلا يردّ واحد يده عن شيء . ولا يرد احدًا عن شيء . . »[2]

وانت ترى من عبارة هذا النصّ ان الشابشتي لم يُشر اقل اشارة الى ان مثل هذا الاجتماع على الفساد كان يكون في دير الخُوات نفسه . ولعل هـذه المفسدة كانت مرويّة عن المتنزهين في حانات الدير ، وبينهم السكارى والفُسّاق من المتخلّقين باخلاق الفرس في ليلة شب كُلْمِذاران .

---

١) دستور المنجمين ، خزانة باريس ٥٩٦٨ ، ٢٠

٢) كتاب الديارات ، ص ٣٨

وجاء بعد الشابشتي الامام البيروني فكتب ما يأتي في ليلة الماشوش في القول على اعياد النصارى النسطورية:

« هي ليلة جمعة زعم الذاكرون لها انهم يطلبون فيها المسيح . وقد اختلفوا فيها . فبعضهم قال انها ليلة الجمعة التاسعة عشرة من صوم ايليا[1]. وبعضهم قال انها الجمعة التي صاب فيها المسيح وهي الصلبوت. وبعضهم قال انها جمعة الشهداء. وهي بعد الصلبوت باسبوع. والترجيح للقول الاول بين الثلاثة الاقاويل. »[2]

وليس في هذا القول ايضاً كما ترى اقل إلماع الى اختلاط الرجال بالنساء في الديارات. فمن اين سرت الى الرهبان والقسوس مثل هذه التهمة الجائرة. لا ريب انها كما قال صاحب دستور المنجمين « من تخريجات السفهاء. »

ومما يشهد بان مفسدة الماشوش هي من اصل فارسي دان بها ارباب البدع والبطالة والخوارج عن السنَّة ان القرامطة ، والباطنية ، والاسماعيلية ، والبابكية ، والمازارية ، واشباههم من الفِرَق التي كثر فيها العنصر العجمي ، كانوا من انصار هذه الفاحشة. قال المقريزي:

« لما استقام الامر لقرمط امر الدعاة ان يجمعوا النساء ليلة معروفة. ويختلطن بالرجال و« يتقاربن » ولا يتنافرن. فان ذلك من صحة الودّ والألفة بينهم. »[3]

وقال ابن الجوزي:

« بقي من البابكية جماعة يقال انهم يجتمعون كل سنةٍ ليلةً هم ونساؤهم. ثم يُطفئون المصابيح وينتهبون النساء . فمن وقعت في يده امرأة فهي له حلال. ويقولون هذا الاصطياد مباح. لعنهم الله تعالى . »[4]

وقال عبد القادر البغدادي في كلامه على المازارية:

« لهم ليلة يجتمعون فيها على الخمر والزمر . رجالهم ونساؤهم . فاذا طُفئت

---

١) صوم ايليا اوله يوم الاثنين بعد احد وعشرين اسبوعاً من الفطر الكبير . واياما ثمانية واربعون يوماً . وفطره يوم الاحد . (الآثار الباقية ، ص ٣١١)

٢) الآثار الباقية ، ص ٣١١

٣) اتعاظ الحنفاء ، ص ١٠٥

٤) الثاني من عيون التواريخ للكتبي ، باريس ٥٧٣٥ ، ص ١٣٠

السُرُج « استباح » الرجال النساء..»[١]

ولابن العديم في اخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (١١٧٦/٧):

« في هذه السنة اظهر اهل جبل السُمَّاق الفسق والفجور. وتسموا بالصُفاة. واختلط النساء والرجال في مجالس الشراب . لا يمتنع احدهم من اخته وابنته . ولبس النساء ثياب الرجال. واعلن بعضهم بان سناناً (مقدم الاسماعيلية) ربُّه.»[٢]

وكانت ليلة الماشوش معروفة ايضاً بين المسلمين في ديار المغرب والاندلس. وللفقيه عمر صاحب الازجال ، اديب الاندلس ، قصيدة وطّأ لها بنثر وجعل الجميع مقامة ساسانية سماها « تسريح النصال الى مقاتل الفصال » اولها:

تعالَ نجـدّدها طريقة ساسان تقصّ علينا ما توالى الجديدان

ومنها :

اتذكر في سفح العقاب مبيتكم ثمانين شخصاً من اناث وذكران...
واطفأتُ قنديل المكان تعمدًا واومأتُ فانقضّوا كامثال عقبان
وناديت في القوم « الوثوب» فاسرعوا فريق لنسوان وقوم لذكران»[٣]

ويظهر ان لليلة الماشوش آثارًا باقية في العراق وسورية ولبنان بين الفِرَق النصيرية ، واليزيدية ، والشبك ، والكاكائية ، والقلم حاجيّة ، وغيرهم من ارباب البِدَع. وانها تسمّى اليوم عندهم « ليلة الكفشة ».[٤]

ومن هذه الشواهد كلها يتضح باجلى بيان ان ليلة الماشوش كانت مخزية فارسية مختصة بالخوارج والفرق المبتدعة في الاسلام . وان الرهبان والقسوس والنصارى في الديارات كانوا براء منها متنزّهين عنها باقرار اهل السُنَّة والشيعة انفسهم. فما احق المسيحي اليوم اذا أُنشد بيت ابي نواس المتقدم الذكر، او عُيِّر بهذه التهمة العباسية ان يقول: « رمتني بدائها وانسلّت ».

---

١) الفَرق بين الفِرَق ، ص ١٦٢
٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ص ١٩٣
٣) نفح الطيب للمقّري ٣: ٣٢
٤) مجلة لغة العرب ج ٦ ، سنة ١٩٢٧ ، ص٢٦٨ ؛ و ج ٥ سنة ١٩٣٠ ، ص٢٧٠-٢٧٣؛ ومجلة العرفان المجلد ٢٣ ، ج ٢ ، ص ٢١٤

خراج الاديار وجزية الرهبان

كان الخراج يُجبى من الديارات وملحقاتها ومزارعها ، كما يجبى من سائر الاملاك والضياع. وربما بلغت الجباية احياناً مبلغاً فاحشاً. «حُكي ان رهبان دير سعيد بالجانب الغربي من الموصل أُلزموا في وقت بجباية. فقاموا بثلثمائة الف درهم.»[١] وربما خُفف عنهم الخراج في احوال خاصة. كما خفف فيما قيل عن رهبان دير صليبا بدمشق حين اعطوا خالد بن الوليد سلّماً صعد عليه بعض جنده لفتح الباب الشرقي[٢]. وكما فعل هرون الرشيد يوم زار دير القائم الاقصى وشرب فيه من يد ديرانية عليها المسوح من حسان الراهبات وغناه اسحاق الموصلي . فامر ان لا يؤخذ من مزارع الدير خراج واقطعهم اياه. وجعل عليه من الخراج عشرة دراهم تؤدّى في بغداد.[٣]

وفي تقاليد بعض الاديار ، وحكايات النساطرة خصوصاً ، اخبار وعهود منحولة للرسول او لعمر بن الخطاب في الوصاة بالرهبان والإعفاء من الخراج ، اذا نقدها المؤرخ البصير يتبين له اليوم من الفاظها وشهودها انها موضوعة مختلقة طمعاً من الرهبان في التخلص من التكاليف والجزى وقلّ من تنبّه لها من مؤرخي الاسلام. ولعلهم اعانوا احياناً على رواجها وتصحيحها. ومن ذلك ما حكاه الخالدي في كتاب الديارات من دخول عمر بن الخطاب انطاكية قبل الخلافة. وقتلهِ احد بطارقتها وخروجه منها ، وعدوله في طريقه الى احد الاديار قد يكون دير رمّانين في ضواحي حلب. وتنبؤ الراهب له انه بعد ظهور محمد يُخرج الروم من الشام ويملك الارض. ولذلك سأله الراهب بان يكتب له بعد ان اضافه كتاباً في قطعة من أدَم في ترك خراج الدير والوصاة به[٤].

واما جزية الرؤوس والجماجم ، كما كان يقال ، فكانت لا تؤخذ من

١) مسالك الابصار ، ص ٢٩٠

٢) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اروبة ، ص ١٢٩

٣) مسالك الابصار ، ص ٢٧٠

٤) الخزانة الشرقية ٢ : ١٠

المترهبين اذا كانوا مساكين يُتصدّق عليهم . واما اذا كانوا ذوي يسار فكانت تُستأدى منهم كسائر الناس[1] . ومع ذلك فقد أُخذت غير مرة من الرهبان الفقراء . ففي خلافة عبد الملك بن مروان كان اخوه عبد العزيز بن مروان امير مصر (٦٨٤-٧٠٥ م) فامر باحصاء الرهبان فأُحصوا . واخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار . وهي اول جزية أُخذت من الرهبان.[2]

وفي سنة ١٠٤ للهجرة (٧٢٢م) كان متوّلي الخراج بمصر أسامة بن زيد التنوخي « فاشتد على النصارى واوقع بهم واخذ اموالهم . ووسم ايدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه . فكل من وجده بغير وسم قطع يده وكتب الى الاعمال بان من وُجد من النصارى ليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم . فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا من الضرب . ثم هُدمت الكنائس . وكسرت الصلبان . ومُحيت التماثيل وكسرت الاصنام باجمعها وكانت كثيرة في سنة اربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك . فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة كتب الى مصر ان يُجرى النصارى على عوائدهم وما بايديهم من العهد . فقدم حنظلة بن صفوان اميرًا على مصر في ولايته الثانية فتشدد على النصارى وزاد في الخراج . واحصى الناس والبهائم . وجعل على كل نصراني وسماً صورة اسد . وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده . »[3]

وفي امارة احمد بن طولون كان احمد بن المدبّر صاحب خراج مصر . فتتبّع الرهبان واستقضاهم الجزية . وكان ابن طولون كثيرًا ما يغشى دير القصير للملكيين ويأنس براهب منهم . فشكا اليه امر ابن المدبر وقال له انه يطالبنا بجزية رؤوسنا وقد سقطت عن امثالنا على مرّ السنين . فوقّع الى ابن المدبر بخطه . فكفّ عنهم . واعفاهم وبلّغهم فوق ما يحبون.[4]

١) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف ، المطبعة السلفية ، مصر ، ص ١٤٦

٢) الخطط للمقريزي طبعة بولاق ، ص ٤٩٢-٤٩٣

٣) الخطط للمقريزي ، ص ٤٩٢-٤٩٣

٤) سيرة ابن طولون للبلوي ؛ دار الكتب الاهلية ، الظاهرية ، دمشق رقم ٢٤٣ ، الورقة ٢٤

وفي سنة ٣١٣ (٩٢٥ م) « قدم الوزير علي بن عيسى بن الجراح الى مصر. فكشف البلد والزم الاساقفة والرهبان وضعفاء النصارى باداء الجزية. فأدُّوها. ومضى طائفة منهم الى بغداد واستغاثوا بالمقتدر بالله. فكتب الى مصر بان لا يؤخذ من الاساقفة والرهبان والضعفاء جزية. وان يُجرَوا على العهد الـذي بايديهم. »[1]

وكان بعض الخلفاء العباسيين لمعرفتهم بما استقر في نفوس العمال من حب الظلم والعسف والضراوة على إرهاق اهل الذمّة يشددون في اختيار اهل العفة والنزاهة منهم. ويوصونهم بالقسط في جباية الجزية وألّا ياخذوها من النساء والولدان والعجزة والمرضى والفقراء والرهبان. كما جاء في العهد الذي كتبه ابو اسحاق الصابئ من الخليفة الطائع لله الى فخر الدولة بن بويه في جمادى الاولى سنة ٣٦٦ (٩٧٦ م) قال:

« وامره ان يتخيَّر عماله في الاعشار والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من اهل الظلف والنزاهة... وان يوعزوا الى جُباة جماجم اهل الذمة ان يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة. بحسب منازلهم في الاحوال وذات ايديهم في الاموال وعلى الطبقات المطبَّقة فيها. والحدود المحدودة المعهودة لها. وان لا يأخذوها من النساء. ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال. ولا من ذي سنّ عالية. ولا ذي علة بادية. ولا فقير مُعدم. ولا راهب متبتل. »[2]

وكان بعض الاقباط في دولة المماليك اذا قعدت بهم الحال عن دفع الجالية وهي الجزية المفروضة على رقاب اهل الذمة. يحتالون للتخلص منها بلبس الصوف والانتماء الى بعض الاديار. وفي ايام الملك الظاهر بيبرس البندقداري كثر امثال هؤلاء الرهبان الزور، وعلم السلطان بجلية امرهم، فامر باخذ الجزية من كل راهب لا يكون منقطعاً في الدير او معتزلًا في البرية. او لا تكون له شهود ثقات على صدق رهبانيته. فانتهز الجُباة هذه الفرصة لإيذاء اكثر الرهبان والتسلط على الشيوخ والعجزة منهم، ولا سيما في جهات الغربية. قال كاتب « سِيَر

١) الخطط للمقريزي، ص ٤٩٤-٤٩٥

٢) صبح الاعشى للقلقشندي ١٠: ٢٧-٢٨

البطاركة الاقباط » بعد ان حكى ما اشرنا اليه في حوادث سنة ٩٩١ للشهداء (١٢٧٤ م)

«ولما جاء السلطان عزّ نصره اجتمع جماعة من رهبان الديارات وجاؤا الى باب السلطان بهدية على قدر حالهم مما يليق بالرهبان . فكتب لهم بمائة وخمسين اردبًا غلّة . وسمع بخبرهم رهبان دير القُصَير الملكية . فاحضروا الأخر هدية من النسبة فامر لهم بمائة اردب غلة وبقي الرهبان ملازمين باب السلطان مدة . وبعد ذلك خرج الامر بان يُكتب لهم بان يُجرَوا على عادتهم بشرط انهم لا يخفون احدًا ممن تجب عليه الجزية .ولا يرهبنون احدًا الا بعد تنزيله في الديوان . ومن يستحق الرهبنة يدخل فيها لطلب الله تعالى لا لاجل جزية ولا شدة لحقته . واخذوا الكتاب المذكور ومضوا به الى الفريبة .ولم يقدم شيئًا . »[١]

وظلّ الرهبان على هذا الوجه يغرمون الجالية تارة ويُعفون منها تارة اخرى حتى في عهد الدولة العثمانية ايضاً كما يستفاد من شهادة الحجة الآتية التي وقفنا عليها في خزانة بريتيش موزيوم في مجموع خطي رقم Add. 9965 ومعظمه فصول دينية للبطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي . وهي في اول صفحة منه بقلم غير قلم الكتاب .وهذا نصّها بالحرف :

« صورة حجة منع الخراج »

« سبب تحريره هو انه حضر بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية اجلّه الله تعالى .لدى متولّيه مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي الموقّع خطه الكريم اعلاه . دام فضله وعلاه . بعد ان حضر كل من الراهب ميخايل ولد الياس فرح المطران . والراهب الياس الخوري ولد يونس .وادّعيا على فخر الاقران علي اغا قائم مقام الدستور المكرّم المشير المفخم حضرة مصطفى باشا . المحافظ بطرابلس الشام واياالتها يسّر الله له من الخير ما يشا . مقررين في دعوام بان المدّعى عليه يطلب منهما ومن امثالهما الرهبان الفقراء الجزية الشرعية عن هذه السنة . وان طائفة الرهبان المدام بكنيسة طرابلس وبالديورة الكائنة باياالتها من جملة الفقراء النصارى الغير قادرين على الكسب . وليس لهم عادة من قديم الزمان هم ومن تقدمهم من الرهبان باعطاء الجزية وغيرها . وانهم معافون من ذلك بموجب مـا بيدهم من العهد نامة النبوية .وسألوا من الحاكم الشرعي سؤاله عن ذلك . فسُئل فاجاب بالاعتراف من انه يطالبهم لكونهم من اهل الذمة . ومن جملة النصارى . وانه مأمور باخذ الجزية منهم بموجب ما بيده من البراءة السلطانية .وابرزها من يده .فقرئت بمسمع من المدعيَين فاذا من مضمونها بان الجزية الشرعية تؤخذ منهم على الاعلى والاوسط والادنى . مـا عدا الفقير الذي لا يقدر على الاكتساب فانه ملحق بالزَّمِن والمفلوج والمريض. ولم يصدّق المدعى عليه بانهم من الفقراء

---

١) سِيَر البطاركة ، خزانة باريس ٣٠٢ ، ص ٢٦٥-٢٦٦

الذين لا قدرة لهم على الكسب . فطلب منهم بيان ذلك بالطريق الشرعي فاحضروا لذلك كل من الحاج حسين بن نعمان . والسيد يوسف بن السيد ابرهيم . ومحمد باسه ابن الفقيه . وموصلي اغا الشوباسي . فشهدوا بان طائفة الرهبان ليس لهم عادة من قديم الزمان باعطاء الجزية . وانهم فقراء وليس لهم كسب ولا حرفة . وانهم يعيشون بصدقات النصارى . شهادة صحيحة شرعية مقبولة منهم شرعاً . فلما شهدوا بذلك . عرّف مولانا الحاكم الشرعي المشار اليه . المدّعى عليه بطلب الجزية بان الفقير الغير القادر على الكسب، والزّمِن ، والمريض، والمفلوج ، ليس عليه جزية . وكذا الراهب الغير مخالط للناس كما في كتب المذهب . ومنعه من التعرض لطائفة الرهبان المرقومين بطلب الجزية تعريفاً ومنعاً شرعياً اوقعها بالطريق الشرعي . وبالالتماس المرعي طلب المدّعون المزبورون من الحاكم الشرعي المشار اليه بان يسطر لها ولطائفة الرهبان القاطنين بطرابلس وايالتها صكاً شرعياً تمسكاً بيدهم ونافعاً لهم في المآل عند الاحتياج لدى الاحتجاج . فسطِّر بالطلب في اوائل شهر شوال المبارك من شهور سنة ١١٠٣» (١٦٩٢ م) .



القسم الثاني

أديار دمشق وبَرِّها

لم يتهِ الينا من اخبار الاديار والكنائس في دمشق وضواحيها بعد الفتح الاسلامي ، وفي الصدر الاول من الخلافة الاموية ، سوى لُمع ضئيلة لا تسدّ حاجة ولا تروي غليلًا . ومن الغريب الذي لم يكن في الحسبان ان كل ما وقفنا عليه منها ورد معظمه في الآثار الاسلامية واقوال الشعراء ؛ وذلك اما لقلة ما كتب عنها في المصاحف النصرانية ، وهو الظاهر الارجح لقلة اكتراث الرهبان ورجال الدين لمثل هذه الروايات ؛ واما لضياع كل الآثار القديمة كسِيَر النساك والشهداء وما اشبه من القصص والكتابات المسيحية والاسفار التاريخية . ومن اشد الكوارث الفاجعة التي اتلف فيها رجال الكنيسة تراث اسلافهم من تركات الرهبان والنساك هذا الحريق الهربري الذي اضرم نيرانه في مخطوطات دير السيدة في صيدنايا وكلاء الروم الارثذكس في اوائل القرن التاسع عشر[1] في ولاية احد البطاركة اليونانيين بغضاً وجهلًا لكونهما باللغة السريانية ، ففاتنا باحراقها عدة اخبار وتعليقات عن الاديار والمعاهد الدينية في الشام لا نجد عنها بديلًا ؛ ولولا ما جاء عنها عرضاً في غضون المؤلفات والجامع الاسلامية وما حفظته لنا الرواة من اوصاف الشعراء وخمريات المتنزهين والمتطرحين في الديارات والحانات لجهلنا جلّ احاديثها وخفي علينا الصدى الضعيف الذي رجع لنا من اخبارها .

ويكفي تصفح المخطوطات والصحف السريانية التي عف عنها الدهر لمعرفة كثرة ما كان من هذه الاديار والقلالي والصوامع في ايام الروم البيزنطيين منتشرة في حيّز دمشق ، متفرقة بين سهولها وجبالها كما يدلّ عليه هذه البقية

١) المشرق ٢ [١٨٩٩] ٥٨٦–٥٩٠ ، وخزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١١٧– ١١٨ ، وتاريخ صيدنايا لنا ٢٥٨–٢٦٠

الباقية من القرى المتسمة اليوم باسم الدير في الغوطة وسائر بر دمشق ، وقد غلب عليها اسماء محدثة في الاسلام بعد ضياع اسمائها الرومية او السريانية. وغاية ما نعلم اليوم من امرها بعض مواقعها القديمة اذا صح ان كل مسمّى بالدير او مضاف اليه من القرى والدساكر كان سابقاً ملكاً ومنزلاً للرهبان ، ان لم يكن فيما مضى حصناً او مرقباً للروم البيزنطيين قبل ان يُغتصب او يستولي عليه الخراب . وقد جمعنا ما وقفنا عليه من هذه الضياع المحدثة التي يظنّ انها قامت على انقاض الديارات او الحصون وهذه اسماؤها كما تعرف بها اليوم بين عامرة وغامرة .

١ دير أبان (عند قرحتا)
٢ دير ابن اوفى (خارج باب الجابية)
٣ دير باشية (قضاء قنيطرة)
٤ دير بشر (حجيرة)
٥ دير ابن بحدل (اقليم بيت الآبار)
٦ دير الحجر (دومة)
٧ دير زكّا (الغوطة)
٨ دير سابر (اقليم حرلان)
٩ دير سراس (قنيطرة)
١٠ دير سلمان (دومة)
١١ دير العصافير (دومة)
١٢ دير ابي عصرون وهو المعروف بالدوير في الغوطة(١) . ورد ذكره في وقف الصاحب محيي الدين الجوزي على مدرسته بتاريخ سنة ٦٥٤ / ١٢٥٦
١٣ دير عطية (النبك)
١٤ دير علي (قطنا)
١٥ دير قانون (الزبداني)
١٦ دير قيس (اقليم حرلان)
١٧ دير كروح (قنيطرة)
١٨ دير محمد (عند المنيحة)
١٩ دير مفضل (قنيطرة)

---

١) ضرب الحوطة على جميع الغوطة لابن طولون الصالحي ، خزانة جامعة ليدن في هولاندة ، المخطوط ١٨٦٢ ، ص ٢

٣٠ دير ماكر (قطنا)
٣١ دير مقرن (الزبداني)
٣٢ دير النواطير (جوار بيت راس)
٣٣ دير هند (اقليم بيت الآبار)

وليس بين كل هذه الاسماء ما ينم عن اصل نصراني الا دير زكا ودير قانون (مار تونن) ودير عطية . ومن التناقض نسبة بعض الاديار الى اعلام اسلامية كدير بشر ودير محمد ودير علي ودير ابن بجدل ، وقد نبه ياقوت على ان بشراً هو بشر بن مروان بن الحكم الاموي ، وان محمداً هو محمد بن الوليد بن عبدالله بن مروان . وذكر ابن عساكر ان ابن بجدل هو سعيد بن مالك ولي إمرة قنسرين والجزيرة في ايام يزيد بن معاوية واقطعه الدير فنسب اليه . ولا شك ان ديري بشر ومحمد عُرفا بهما اما لجوار ضياعهما او لملابسة اخرى ، كما عُرف دير صليبا باسم دير خالد لنزوله عنده لما حاصر دمشق من جهة باب الفراديس والباب الشرقي ، او كما اشتهر دير ميخايل بظاهر دمشق بدير البخت لإبل لعبد الملك بن مروان كانت مقيمة عنده

ولا يزال في ضواحي دمشق وفي بساتينها ومزارعها وقرى غوطتها بعض اسماء اديرة دارسة لا يعرف لها خبر ولا اثر « كدير الزراد » و «دير الرهبان» في ظاهر الباب الشرقي في جملة البساتين ، و « دير الاوسط » و « دير القبلة» و « دير شمال » (كذا بغير لام التعريف) شرقي البحرتين وغير ذلك مما يضيق الذرع باستيفائه . ولهذه الدمن امثال متفرقة في السهول والجبال من تراث البيزنطيين والنصارى الاولين لا سبيل اليوم لمعرفة شيء من ماضيها وانبائها .

وما عدا الاديار البائدة كان بدمشق وبرها اديار تسربت الينا قطرات من اخبارها في الاسلام وقد رتبناها على حروف المعجم تسهيلاً لمراجعتها ، وافردنا لكل منها وصفاً جمعنا فيه كل ما وُفقنا للعثور عليه من الاشارات والروايات الواردة في مظانها ، وهو وعف ان كان ضئيلاً لا يستغني به العلم كثيراً في ظلمات البحث والتحقيق ، ففيه على كل حال سداد من عوز وتذكرة من مآثر الزمن الغابر .

دمشق ٣٠ ايلول سنة ١٩٦٨ في دير القديس يوحنا الدمشقي للآباء اليسوعيين .

١

دير مار الياس في داريا

عثرنا على اسم هذا الدير في ابيات جلال الدين بن خطيب داريا ، احد شعراء دمشق وعلمائها ، المتوفى سنة ٨١٠/١٤٠٧ . وهي غاية في الحلاوة والظرف نظمها على اسلوب الشعراء المتقدمين في التغزل باحداث الرهبان وهو فرع من فروع القصائد الخمريات وضعه الشعراء المتطرحون في الديارات تخيلاً وتطرباً قال :

هات اسقني الصهباء يا مؤنسي ... قد فاح نشر الورد والنرجس . . .
فاطلبنها غير ممزوجة ... عذراء تجلو صدأ الانفس . . .
هذا هو العيش ومن لي به ... في دير مار الياس او بطرس
مع فتية مثل بدور الدجى ... اذا بدوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم ... اصفى من الراح لمستأنس
يجاوب الناقوس قسيسهم ... بكيرياليصون عند المسي
اكثر الفاظه لنا «اشرب» فلا ... اسمع لا أُفتِ ولا أدرس
مالي وللفقه واصحابه ... يا نفس منهم آن ان تيأسي
بمدا لبُغْياري وفرجيتي ... ومشيتي كالخائف المُبلس
وكمّي المهدول كما به ... من خشب عفونها قد نسي
وطيلساني حين امشي به ... مشية يوحنّاس او جرجس
مع انا والنحو وحتى متى ... ادرسه يا ليت لم ادرس(١)

اشار بقوله « يا ليت لم ادرس » الى شرحه الفية ابن مالك في النحو حباً للتنادر والتظرف . وقد يتطرق الريب الى اسم الدير هل هو حقيقة مار الياس وهل اسم بطرس أُلحق به طلباً للقافية ام انه كان هنالك ديران باسم كل من القديسَين ، وهو لا يستبعد . ولعل الارجح مار الياس وان اسم بطرس كُسِع به للضرورة كما قُفِّي اسم يوحناس في البيت الحادي عشر باسم جرجس للسبب نفسه . واذا كان حقاً هنالك ديران فهذه ايضاً ابيات يصلح

(١) روض الآداب للشهاب الحجازي ، برتيش موزيوم ، *add* 19489, f° 53

ان تعني كلا من الاسمين وهي لمحمد بن طاهر ابي الفضل المقدسي المتوفى سنة ١١١٣/٥٠٧ نهج فيها ايضاً منهج الاشعار الديرية الخيالية :

دع التصوف والزهد الذي اشتغلت — بـه جوارح اقوام من الناس
وعج على دير داريا فان به ازهار — مـا بين قديس وشماس
واشرب معتقة من كف كافرة — تسقيك خمرين من لحظ ومن كاس
ثم استمع رنة الاوتار من رشأ — مهفهف طرفه امضى من الباس
غنى بشعر امرئ في الناس مشتهر — مدوّن عندهم في صدر قرطاس
لولا نسيم نداكم ان يروّحني — لكنت محترقاً من حر انفاسي[٢]

وكانت آثار الدير ماثلة الى مفتتح القرن الحاضر في جوار دار انور بك البكري . ثم أُخذت احجارها ودخلت في الابنية المجاورة اسوة بسائر انقاض الديارات والكنائس في الاسلام . ولا تزال بعض قواعد العُمُد والجدران ظاهرة على وجه الارض .

٢) غاية الارب للنويري ، خزانة ليدن ، *arab.* 19 a Gol.

٢

دير بشر

بين حجيرة وسبينة الشرقية

مما يزيد في غموض تاريخ الاديار والمعابد النصرانية في الاسلام ضياع كل خبر عنها قبل الفتح ، وفقدان كثير من اسمائها الرومية او السريانية ، فلا يُدرى من احتلّها من الرهبان ورجال الدين قديماً ، وهل كانت في الحقيقة منازل للزهاد والنساك ام بِيَعاً من بيَع القرى التي كانت منتشرة في الغوطة وبرّ دمشق ، واستولى عليها العرب عنوة وقهرًا . ولذلك لم تدخل في عهد الصلح الذي رُوي لنا بغير لفظه الاصلي ، وسُردت فيه اسماء الكنائس بمواقعها الاسلامية في الدروب والمحالّ العربية ، دون اقلّ اشارة الى ألقابها ونِسَبها القديمة ، كما غُدّرت لا شك في نسخة عهد خالد بن الوليد الذي كتبه للنصارى حينما كانت خطط دمشق واحياؤها لا تعرف الا باسمائها الاعجمية كالفسقار والفورنق والجينيق واشباهها ، مما فاتنا معرفته وزاد في جهلنا ماضي التاريخ البلدي حتى اصبح البحث فيه بحثاً في الطلاسم والرُقى.

ونحن على يقين انه لو كان نقل لنا بعض اسماء الاعمار والمعابد المسيحية ، كما كانت في ايام البيزنطيين ، لتيسّر لنا الاهتداء الى جانب من اخبارها واسماء رجالها باستقراء تواقيع الوفود والنواب في ذيول المجامع التي روى لنا كتبة السريان نُبذًا من انبائها واوصافها ، والحوا الى مـا كان منها في الشام في بعض مخطوطاتهم ، التي كانت محفوظة في دير صيدنايا قبل ان يحرقهـا الروم اليونان غباوةً وتعصباً لكونها بالسريانية ، او كانت في جملة مصاحف دير مار جرجس في باودان من ضاحية دمشق التي عبث بها الدهر وبدّدتها يد المصائب والغارات .

وقد سبق القول ان بشرًا المنسوب له الدير هو بشر بن مروان بن الحكم

الاموي ، أضيف الدير اليه إما لاستحواذه عليه وهو ابن الخليفة ، او لجواره ارضاً له ما لبث ان دخل فيها الدير ونُسب اليه ، ونشأ منها ومن بقعته قرية اشتهرت باسم الدير ككثير من البقاع في الشام التي اطافت بالاديار ، كدير مرّان ، ودير حنينا ، ودير سمعان في حمص ومعرة النعمان واذا صحّ استيلاء الامير بشر في اوائل الدولة المروانية على الدير اتضح لنا سبب سكوت الرواة والشعراء عن ذكره ، وهو في باطن الغوطة بعيد عن مزار السابلة ، خالٍ من الحانات ودور الضيافة التي كانت تألفها المارّة وعشاق الخمور النصرانية

واوحد من اشار الى دير بشر ياقوت الرومي ، واقتصر على القول انه كان بالقرب من حجيرة من قرى الغوطة دون زيادة في التحديد والوصف ، ولا يزال اسمه باقياً الى اليوم في جوار قرية سبينة الشرقية المعروفة . وقد وُفّق الاستاذ صلاح الدين المنجّد الى الحصول على حجة وقف للشيخ سيف الدين الرُجيحي بن سابق ورد فيها ذكر دير بشر وحدوده وبقعته والنهر المعروف به نشرها بكاملها في مجلة « المشرق » (٤٢ [١٩٤٨] ٣٤٨-٣٥٢) ويؤخذ من المخطط الذي رسمه ان دير بشر كان في شرق قرية سبينة الشرقيـة وغرب قرية حجيرة .

٣

دير بطرس ودير بولس

في نواحي بني حنيفة في الغوطة

ذكرهما ياقوت في « معجم البلدان » والبكري في « معجم ما استعجم » ونقل كلاهما عن ابي الفرج الاصبهاني دون زيادة . وهذا نصّ ما كتبه ابو الفرج قال : « هذان الديران بظاهر دمشق بنواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة والموضع حسن عجيب كثير البساتين والاشجار والمياه قال جرير :

لما تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وضرب بالنواقيس
فقلت للركب اذ جدّ الرحيل بنا يا بُعدَ يبرينَ من باب الفراديس

وفيها ايضاً يقول يرثي ابنه :

اودى سوادة يبدي مقلتي لَحِمٍ باز يصرصر فوق المرقب العالي
الّا تكن لك بالديرين باكية فربّ باكية بالرمل معوال
قالوا نصيبك من اجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت اشبالي»[1]

يريد بالرمل رمل يبرين الذي استبعده في البيتين السابقين ولا شك ان اسم «الديرين» كان قد أُطلق على البقعة التي كانت تجاورهما كما اطلق اسم دير مرّان ودير حنَنيا على ما حولها من المنازل والجواسق والبساتين .

وقد اعيانا البحث لنعلم اين كانت ناحية بني حنيفة في الغوطة . فلم نجد من اشار اليها . ولو كانت سلمت لنا كتب الديارات للخالديين ، وهشام الكلبي ، والسريّ الرفاء ، والسميساطي ، ومحمد بن رمضان النحوي ، لربما كنا نجد في احدها اشارة الى ناحية بني حنيفة او تحديدًا لها . ويؤخذ من بيتي جرير ان الناحية المذكورة كانت غير بعيدة عن باب الفراديس ، وكان فيما يظهر بائتاً فيها حين أرّقه ضرب نواقيس الديرين لصلاة الرهبان في السحر فتذكر مسافة ما بين منزله فيها ويبرين وجهة ركبه الراحل فقال : « يا بُعدَ يبرينَ من باب الفراديس ». ومن ثمَّ لا بد من تطلب هذين الديرين في ظاهر باب الفراديس ، لا في ظاهر الباب الشرقي كما فعل دوسّو ، حين تناسى دير بطرس منهما واقبل يتفقد دير بولس في موضع الدير الذي اشار اليه انطونن دي پليزانس في القرن السادس للميلاد على بعد ميلين من الباب المذكور في المكان الذي روت التقاليد ان المسيح ظهر فيه لبولس في طريق سيره الى دمشق[2] . وقد نصّ جرير وابو الفرج الاصبهاني على تجاور الديرين ، فلا سبيل الى اطّراح احدهما وارتياد دير مار بولس وحده ، ولا سيا وقد شهد بعض الزوّار ان المعبد الذي كان على اسمه هنالك كان كنيسة لا ديرًا .

ومما يؤيّد كون الديرين في ناحية باب الفراديس ان ابن حمدون حين صحب الخليفة العباسي المتوكّل على الله وزار مدينة دمشق سنة ٢٤٤ / ٨٥٨ قال : « فمنَّ للمتوكّل ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس فنزلنا

١) معجم البلدان ٢ : ٦٨٣ – ٦٨٤ ؛ ومعجم ما استعجم ٣٦٨ – ٣٦٩ .
٢) R. Dussaud, *Topographie Historique de la Syrie...*, p. 297

متزلًا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة.» ولا شك ان ديري بطرس وبولس كانا وقتئذ في جملة الديارات التي استقراها المتوكل وشاهد ما فيها من عجائب الصور واحداث الرهبان وبنات القسيسين[1] .

وروى ابن قُتيبة ان المراد «بالديرين» في قول جرير «دير صليبا» وانما ذكره بلفظ التثنية لضرورة الوزن كعادة الشعراء كثيرًا في تثنية الاعلام في اشعارهم[2]. وقد تتبعنا هذه التثنية في اقوالهم فوجدنا منها شواهد كثيرة ومن ادلّها على ذلك قول ابي نواس :

فما نجدت بالماء حتى رأيتها ... مع الشمس في عيني أُباغ تغور

وحكي عن ابي نواس انه قال : جهدتُ ان تقع في الشعر عين أُباغ فامتنعت علي فقلت عينَي اباغ ليستوي الشعر[3]. وكان جرير مولعاً بمثل هذه التثنية ليستقيم له الوزن كقوله :

فلا يقربنّ المروتين ولا الصفا ... ولا مسجد الله الحرام المطهرا[4]

وانما هي المروة لجبل بمكة ونظير ذلك قوله في جبل عماية :

لو ان عُصم عمايتَين ويذبلٍ ... سمعت حديثك انزلا الاوعالا[5]

ولكنه في ابياته في باب الفراديس ثنّى الديرين ، لانه كان هنالك اثنان حقاً دير مار بطرس ودير مار بولس ، ولعلّ احدهما كان للرهبان والثاني للرواهب ، وهو ما ينفي قول ابن قتيبة . وقد فاته ايضاً ان دير صليبا كان يشتمل في الواقع على ديرين للرجال والنساء كما نبّه على ذلك ابن شداد في كتابه «الاعلاق الخطيرة» فتفسير ابن قتيبة التثنية بضرورة الشعر خطأ على كل حال.

---

١) الخزانة الشرقية ٢ : ١٤

٢) الشعر والشعراء ، طبعة ليدن ، ٣٠٠

٣) معجم البلدان ، طبعة اروبة ، ٣ : ٧٥٧

٤) معجم البلدان ، طبعة اروبة ، ٤ : ٥١٣

٥) معجم البلدان ، طبعة اروبة ، ٣ : ٧٢١

٤
دير بولس في سكّا

سكّا من قرى قضاء دومة اليوم ، بالقرب من الغسولة في الشمال الشرقي منها ، تبعد عن دمشق ١٧ كيلومتراً . ذكرها ياقوت في قرى الغوطة وقال : بينها وبين دمشق اربعة اميال ، وروى قول حسّان بن ثابت فيها وفي بلاس وداريا :

إن الدار اقفرت بمعان بين شاطي اليرموك فالخمّان(١
فالقريّات من بلاس ودا ريّا فسكّا فالقصور الدواني

وعنده ان اصل الاسم بالتشديد والمدّ اي سكّاء كأنها مؤنث الأسكّ اي الاصم . ولا يخفى ما في هذا القول من التحكم والادعاء الباطل في ردّ كل اسم اعجمي الى معدن عربي ، واستشهد على المدّ بقول الراعي يصف ابلاً له :

فلا ردّها ربي الى مرج راهط ولا برحت تمشي بسكّاء في وحل(٢

وانما مدّها الراعي لضرورة الوزن ولهذا المدّ اشباه ونظائر في الشعر .

ومما ينفي كل ظنّ وتمحّل في عربية سكّا اكتشاف قبريّات فيها يونانية من القرن الثالث للميلاد اي قبل مجيء العرب بنيف وثلاثة قرون[٣]. وكانت من منازل الغسانيين لا شك كداريا وبلاس ولذلك جمعها حسّان بن ثابت في مديحه لجبلة بن الأيهم[٤]. ولما قتل ابن بيهس في الخلافة العباسية القاسم بن ابي العميطر من ذرّية خالد بن يزيد بن معاوية نصب رأسه على باب سكا وحوله اعلاماً سوداً وقال :

---

١) في الاصل «شاطي اليرموك فالصمّان» قال « الصمّان فيما احسب من نواحي الشام بظاهر البلقاء (معجم البلدان ٣ : ٤١٧) وهو وهم منه دعاه الى هذا الحسبان . والصواب « الخمان » وهو كما قال في موضعه « من نواحي البثينة من ارض الشام» (٢ : ٤٦٩)

٢) معجم البلدان ٣ : ١٠٥

٣) Waddinghton 2562 a. b.

٤) ديوانه ، طبعة ليدن ، ٥٥

سقتني من امية باقيات على الايام من بيض الوقائع
وأنستني وقيمة يوم سكا وما اعطيته يوم الصوامع[١]

ويؤخذ من مخطوط سرياني في خزانة بريتيش موزيوم رقم add. 14602 انه كان في سكا دير قديم لليماقبة يعرف بدير مار بولس ورئيسه الراهب يوحنا وقّع عنه الراهب اسطفان من دير مار سلمون ، في جملة الموقّعين من اساقفة فينيقية لبنان وحوران في جوابهم على رسالة احبار الكنيسة اليعقوبية سنة٥٦٩؛ وفي فهرست المخطوطات السريانية اسماؤهم بالتفصيل[٢]. ولعل دير مار سلمون هو « دير سلمان » القرية المعروفة اليوم في قضاء دومة .

ولم نقف في الآثار العربية على اقل اشارة الى هذا الدير ولا يخلو ان اسمه كان مذكورًا في بعض المخطوطات السريانية التي احرقها او اضاعها جهلًا بعض الحمقى والمتعصبين كمخطوطات دير صيدنايا وغيرها من القرى الارامية .

٥

دير مار تاودورس

في النيرب

ورد ذكره في مجموع من الرقوق وقفنا عليه في خزانة بريتيش موزيوم (Or. 5091, f° 100) في مفتتح « قصة وشهادة روح الشريف القرشي المسمى انطونيوس بالرقة » قيل فيها: « كان في زمان الرشيد ملك العرب رجل من اشراف العرب اسمه روح وكان نازل بدمشق في موضع يقال له النيرب في دير هناك على اسم الشاهد المبارك تاودورس » وقد اشار الى هذه القصة البيروني في كتابه « الاثار الباقية » قال : «ولانطونيوس عند النصارى قصة طويلة عجيبة ما سمعناها ولا قرأناها او مثلها في كتب الاخبار والتواريخ على ان النصارى قوم سماعون مصدقون لمثل ذلك » (ص ٢٩٢).

---

١) تحفة الالباب الصفدي ٥٢٢٧ باريس ٧٣٠

٢) Wright, T. II, p. p. 709-10

ومعلوم ان النيرب قرية قديمة كانت تتصل بقاسيون والربوة قد غطتها اليوم البساتين ولم يبقَ منها الا صدى اسمها في المناداة على الفواكه . وورد ايضاً اسم الدير في حكاية استشهاد القديس بطرس من مدينة بيت راس (Capitolias) كورة بالاردن اشتهرت بجودة خمرها[1] ، قيل فيها ان الدير المذكور كان في جبل (Kasia) اي قاسيون. وقد نشر الاب بيترس المستشرق البلجكي والعالم المشهور خبر هذا الاستشهاد نقلاً عن رواية كرجية[2] . ولكنه وهم في ظنه ان دير مار تاودورس هو دير مرّان وان الاسمين لمسمى واحد عُرف بهما في ازمنة مختلفة . ولا شك انه اغترّ بقول كاتب السيرة ان الخليفة الوليد بن عبد الملك امر ان يُقاد اليه القديس بطرس مغلولاً الى دير مران قبل وفاة الوليد فيه ببضعة ايام ، في النصف من جمادى الآخر سنة ٩٦ للهجرة (٢٦ شباط – فبراير ٧١٥) وانما يراد هنا بدير مران لا منزل الرهبان ولكن المحلة المتصلة به التي غلب عليها اسمه لجواره له ، ولدينا عدة شواهد تثبت صريحاً ان الدير كان في بقعة مأهولة تنسب اليه وهي البقعة التي اشار اليها السمعاني بقوله : « دير مران بقعة على باب دمشق نزهة بين الرياض والمياه »[3] . ومما يدل على ان اسم دير مران كان يطلق كذلك على المنازل التي تحيط به ان المؤرخين اجمعوا على ان المقبرة المظلمة في قاسيون كانت في دير مران[4] . فالدير اذن الذي قيد اليه القديس بطرس ومات فيه الوليد هو المحلة المشتهرة باسم دير مرّان ، وانما كان الوليد نازلاً في القصر الذي كان ينزله قبله ابوه عبد الملك بعد انسلاخ الشتاء « اذا مضت ايام من الشتاء »[5] .

ومما سبق يتضح ان دير مار تاودورس هو غير دير مران وان كلا الاسمين المسميين مختلفان . ولكن يتعذر اليوم تعيين موقع كل منهما وبعده عن الآخر بالضبط لاندراس آثارهما وقلة ما انتهى الينا من اوصافهما.

---

١) معجم البلدان ٤ : ٧٧٦

٢) Paul Peeters , *La passion de St. Pierre de Capitolias* in *Analecta Bollandiana*, T. LVII, fasc. 3-4

٤) كتاب الانساب ٥١٩

٥) الحادي عشر من تاريخ غفل من اسم مؤلفه ، طبعة غريفزوالد ، ص ٣٠

٦

دير القديسة تقلا

في منين بظاهر دمشق

منين اليوم قرية اسلامية في ضواحي دمشق ، وهي من امهات قرى الغوطة ، عذبة الماء ، كثيرة الاشجار والفواكه والنباتات والرياض . وكانت قبلًا حتى القرن السادس عشر بلدة نصرانية معظم سكانها من الروم الملكيين. اجتاز بها سنة ١٥٠٣ في ذهابه الى دمشق ، قادماً من حلب وحماة ، سائح فرنجي ووصفها بقوله : « وعلى مسافة ١٦ ميلًا من دمشق وجدت مدينة اخرى تدعى منين في قنة الجبل وسكانها مسيحيون من ملة الروم وهم رعية حاكم دمشق وفيها كنيستان في غاية الجمال يقال ان القديسة هيلانة بنتهما وهي والدة القيصر قسطنطين. وفي منين فواكه حسنة غزيرة واعناب طيبة وبساتين كثيرة زاهية وينابيع ماء . »[1]

وفي شمال البلدة صخور شاهقة ترى في باطنها بعض المغاور المنقورة في الحجر الصلد ، وفي سفحها عدة انقاض وبقايا عُمُد وابواب غُرَف عادية ورسوم ابنية داثرة تتبعها المستشرق الفرنسي تومان R. Toumin ووصفها في مقالة له نشرها في مجموع المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٢٩ ، ومثَّل فيها اهم آثارها[2]. ورجّح ان بعض هذه الابنية سبقت النصرانية ، وانه كان هنالك حصن ووثني قبل ان يتحوّل الى معبد مسيحي. ولا شك ان هذه الاطلال الظاهرة هي التي دعاها الشيخ حسن البوريني ديرًا في ابيات وقفنا عليها في ديوان له مخطوط في خزانة دير الشير بلبنان للرهبان الحلبيين جاء فيه ما نصّه :

---

١) *Les voyages de Ludovico di Varthema ou le Viateur*. Publié et annoté par Ch. Scheffer. Paris, 1888. p. 10-11

٢) *Mélanges publiés par la Section des Arabisants. — Le culte de Ste Thècle dans le Jebel Qalamun*, p.p. 163-180.

« وفات وقد مررت على دير قد امحّ وهدمت اركانه بقرية منين من نواحي دمشق وذلك في سنة ٩٨٦ (١٥٧٨ م) :

ليت شعريَ يا دير اين اهاليك واين الذين قد عمروكا
اتراهم نسوا مغانيك يوماً ام لامر الايام قد هجروكا
حكمت فيك حادثات الليالي لو يعيشون ساعة لبكوكا
لم تجد واقياً يقيك الرزايا بعد ما صار البلى اهلوكا
انت مثلي جفاك كل خليل وتخلفت بعده متروكا
هنتَ مثلي وكنت قبل عزيزاً نسيتَ من بعد انهم حفظوكا
فأجبْ نازحاً تذكر إلفاً فغدا دمع عينه مسفوكا
لا اغبّتك هاطلات الغوادي وافامت بغيثها تحبوكا »

ولم نعثر على ذكر آخر او إلماع الى هذا الدير في كل ما تيسر لنا مطالعته او التنقيب فيه من المطبوعات والمخطوطات العربية والآثار الرقية والكتابات النصرانية . ولا ندري هل كان هذا الدير احدى الكنيستين اللتين اشار اليهما السائح الفرنجي وهل كان وقتئذٍ فيما عداهما عامراً او خرباً . وعلى كل فقد عدَت عليه حادثات الليالي وكوارث الايام ، وتقلّص منه ظل النصرانية ومن منين بعد استيلاء الاتراك العثمانيين على الشام ، حين اشتد تحكّم ولاة دمشق وعمالهم في ارواح النصارى واموالهم حتى اضطروهم الى الجلاء عن منين او انتحال الاسلام .

٧

دير مارت تقلا

في قرية معلولا

يظهر ان هذا الدير لم يكن معروفاً قديماً . وانما كان هنالك مغارة اشتهرت بنسبتها للقديسة تقلا ، وكان فيها شقّ يقطر منه الماء . فاقبل بعض النصارى على جمعه والاستشفاء به لاعتقادهم انه من آيات شفاعة القديسة تقلا وكراماتها . ثم قام الدير من حولها في بعض السنين . ولذلك دعاه شهاب الدين العمري « دير شق معلولا » قال : «وهو في باطن جبة عسال وهو بناء رومي بالحجر

الابيض معلق بسقف به صدع فيه ماء ينقط نحو الذي بصيدنايا ويأخذه النصارى للتبرك معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر وانما الاسم الذي بصيدنايا »[1]

وفي سنة ١٦٤٢ طاف ملاتيوس الزعيم ، مطران حلب ، على الاديار والكنائس في طريقه الى دمشق ، وعرّج على معلولا وزار فيها« كنيسة اول الشهيدات تقلا وجسدها المقدس مخفي بها »[2] واشهر من زار المغارة من بعده من الرحالين في سنة ١١٠٥/١٦٩٣ الشيخ عبد الغني النابلسي وسماها بالمرتقلة قال : « وهي كلمة غير عربية وهي مغارة كبيرة في نصف الجبل والماء يقطر من اعلاها الى اسفلها في اماكن متعددة منها ويقولون ان ذلك الماء له خاصية النفع للارياح التي تعرض في بدن الانسان خصوصاً الاطفال ويحكون في ذلك الحكايات الطويلة »[3].

ولم نقف على وصف آخر لهذا الدير في كل ما تناولته يدنا من كتب الرحل والتواريخ الدينية والادبية .

٨

دير مار جرجس

في بلودان من ضواحي دمشق

لا ذكر لهذا الدير في كتب الديارات . وقد اغفل ياقوت تعريف بلودان نفسها بين قرى دمشق ولا شك ان بعدها عن الطريق السابلة وتوقلها في قنة الجبل وصعوبة المسير اليها قديماً كان من اهم العقبات التي حالت بين الدير والزوار ، ولا سيما انه لم يشتهر بوجود حانة فيه مع كثرة الكروم في القرية . ولذلك اعرض عنه ارباب اللهو والقصف ولم يتغنّ بذكره مجّان الشعراء من من حرفاء الحانات . وأوحد من نوّه به ممن تكلم على الديارات شهاب الدين

١) مسالك الابصار ٣٥٨

٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٥٨

٣) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، رقم ٥٥ من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وخزائن الكتب بدمشق ص ١٢٨

العمري ، وهو دمشقي المولد ، فلم يكن يفوته موقع الدير وإشرافه على جنة الزبداني وقد وصفه بقوله :

« بناؤه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري بقرية بلوذان وهي محاذية لكفر عامر تطلّ من مشترفها على جنّة الزبداني ببلاد دمشق وبه رهبان نظاف وغلمان من ابناء النصارى ظراف مررت به ونزلت اليه ورأيت به غلاماً يفوق الظبي حسناً ويشبه البدر او أسنى بخصر نحيل وطرف كحيل قد قطع الزنار بين خصره وردفه ونفث السحر بين جفنه وطرفه ثم ما كان باعجل ما استتر بدره ولاح ثم خفي فجره فقلت فيه :

حبذا الدير من بلوذان دارا ... اي دير به وايّ نصارى
فيهم كل احور الطرف احوى ... فائق الحسن في حياء العذارى
وغـلام رأيته كهلال ... ما بدا للعيون حتى توارى
بقوام اذا تمايل نشو ... اناّ فالحاظ مقلتيه سكارى
ناحل الخصر حلّ عقد اصطباري ... عندما شدّ خصره الزنارا
قبل رؤياه ما رأيت غزالا ... بات يسقي من مرشفيه العقارا (١

وهذا دأب الشعراء في الاسلام لا يحفلون من كل ما يمرّ بهم في الديارات التي يطرقونها او يضيفون فيها الّا بالتغزّل بولدانها وحورها ، او باطراء طيب خمورها ، فلا يكاد التاريخ يظفر بشيء يؤثر من اقوالهم فيها

ومعلوم ان العمري توفي سنة ١٣٤٨/٧٤٩ وقد شهد ان الدير كان يُعَدّ في زمانه « قديم البناء » ولكن هيهات ان يعرف متى كان انشاؤه وهو من اديار الروم الملكيين وقد غابت عنا اخبار روسائه ورهبانه . وغاية ما عثرنا عليه منها ان رئيسه سنة ١٥٩٦ كان الحاج داود دون ذكر أسرته ونسبته . وكان لقب الحاج يطلق على كل من زار بيت المقدس من رجال الدنيا والدين. ومن جملة رهبانه عامئذٍ القس شحاده ، والقس ميخائيل ، والشماس موسى ، ولا يُدرى ايّ الناس هم . ورد ذكرهم جميعاً في حاشية مرّت بنا في ظهر الورقة ١٥٩ من انجيل سرياني ملكي رقم ٢٠ في خزانة الفاتيكان كتب سنة١٥٢٧ للاسكندر اي ١٢١٦ للميلاد وهذا نصّ الحاشية بالفاظها :

رمّم هذا الانجيل واصلحه الولد الحقير يحنا ابن القس مداج من قرية بطرام من كورة طرابلس المحروسة الاله الرؤوف والرب الرحيم يغفر له خطاياه وخطايا والديه وخطايا

---

١) مسالك الابصار ١ : ٣٥٨

القس شحاده واخوه القس ميخائيل وخطايا الشماس موسى الذين اهتموا في عمله بشفاعة سيدة ام النور وجميع القديسين آمين آمين .

وكان ذلك في سنة سبعة الف ومائة واربعة لكون العالم وعمله في دير مار جرجس بلودان الله يعمره طول الازمان ويغفر خطايا الحاج داود ريس الرهبان . . . »

وفي خزانة اكسفرد مخطوط تريودي سرياني ملكي رقم ٨٤ ، كتبت عليه الوقفية الآتية دون تاريخ لها :

« هذا التريودي المبارك وقف مؤبد وحبس مخلد على دير القديس مار جرجس في قرية بلوذان » .

وفي هذين التعليقين شاهد صريح بان لغة دير مار جرجس في بلودان التي كان يُصلّى بها الطقس الملكي كانت السريانية كما في صيدنايا وسائر اديار الملكيين في القرى والجبال .

وكان في دير بلودان خزانة مخطوطات قديمة كانت باقية حتى اواخر القرن السابع عشر ، وهو ما يستفاد من قول البطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي :

« حصل لي خبر سمعان العامودي العجائبي في كتاب رميم جدا من كتب مار جرجس بمحروسة بلودان وكان آخره ناقص »(١)

ونقل مثل ذلك ابنه الشماس بولس في كتابه المخطوط تاريخ انطاكية فقال :

« لما جمع والدي لما كان مطراناً بمدينة حلب كتاب الدولاب اي اخبار جميع القديسين واكثرهم بخط يدي واوقفهم على القلاية المطرنية كان في اين ما سمع في كتاب قديم في اي بلد كان او دير يرسل يستحضره وبعد نساخته يرممه ويشده ويرسله لمكانه ومن جملة ذلك جاب كتاب قديم جداً من دير القديس مار جرجس المشهور بقرية بلودان بقربة مدينة دمشق الشام فيه خبر هذا القديس الشريف (سمعان العجائبي) لا غير الا انه ناقص منه بعض اوراق ومن آخره جانب كثير وبالجهد حتى احييناه واظهرناه للوجود بكل تعب ونصب ولم توجد له في بلاد العربية نسخة ثانية لنُكملها » .

ولا يعلم متى بدأ خراب هذا الدير في القرن الثامن عشر وكانت بعض جدرانه وابوابه لا تزال ماثلة في بدء القرن العشرين ، وفيه مذبح متهدم تقام فيه الصلاة احياناً . ولا يزال قوم في بلودان يتذكرون ابوابه السبعة متتابعة

---

١) كتاب النحلة رقم ١١ ، ١٩٠١ ، من مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت ، ص ٩٨

متصلة حتى مدخل الكنيسة وكل منها قائم من ثلاثة احجار ضخمة لا سقف لها وهي قصيرة قليلة الارتفاع سلم منها الباب الاكبر . وترى اليوم في العرصة امام الكنيسة عدة آثار وبقايا عُمُد ومعاصر للدبس والخمر واجران وانقاض شتى ملقاة على الارض . وكان للدير املاك واوقاف جليلة وبساتين تعرف الى اليوم بساتين الدير استولى عليها اهل بلودان ، وتقاسمتها الاطماع فتجزأت وتفرقت بالبيوع . وقد اشار اليها العمري بقوله « الدير وافر الغلة كثير الكروم والفواكه ».

وفي عهد الجنرال غورو (١٩٢٠) ادعى مسلمو بلودان ان الدير كان معبداً للشمس وحاولوا وضع ايديهم عليه ، ومنعوا النصارى من الصلاة فيه . فامر الحكام بكف اطماعهم عنه وان لا يعترض الروم في صلواتهم فيه . فتبرع المرحوم روفان مرقص الدمشقي بخمس مئة ليرة ذهباً لتجديد بناء الكنيسة واقتدى به بعض مواطنيه واعانهم قوم من المهاجرين في اميركة فبلغ المجموع ١١٩٧ جنيهاً انكليزياً ، وبوشر بالعمارة سنة ١٩٢٣ وانتهي منها سنة ١٩٢٤ وهذا نص الكتابة المنقوشة في لوح على يسار مدخل الكنيسة :

« تجدد بناء هذه الكنيسة المقدسة للقديس جاورجيوس للروم الارثوذكس سنة ١٩٢٤ باحسان الغيور روفان يوسف مرقص الدمشقي ومحسنين آخرين مقيدة اسماؤهم في اللوحة الثانية شقيقة هذه اللوحة والقائمة بجانبها وهمة واشراف اللجنة المؤلفة من حضرات نعمان بك ابو شعر رئيساً وعضوية الافندية سرحان شحفة وخليل الخوري وجورج لاذقاني سنة ١٩٢٤ »

وللكنيسة صحن واحد . وامام الهيكل حاجز من الخشب ولما زرناها في ٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٦ كانت ابوابها مقفلة للخلاف الذي كان قائماً بين الخوري سبيريدون بيطار واهل بلودان رعيته [1] .

---

(١) الخزانة الشرقية ٣ : ١٤٣ — ١٤٥

٩

دير الحكيم

في جوار مُقرى شرقي الصالحية

وقفنا على ذكره في قصيدة للقاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى قاضي العسكر المعروف بابن الفراش الدمشقي قال فيها :

اذا ما طفتَ حول ديار مُقرى فعرِّج بي الى دير الحكيم
وحيِّ النيربَين فكم مضى لي على الشرَفين من شجن قديم (١

ومُقرى قرية كانت شرقي الصالحية من اشهر متنزهات دمشق . ثم خربت وبني في مكانها مساكن واصبحت حارة من حارات الصالحية كما كتب ابن عبد الهادي . ويظهر ان دير الحكيم كان في جوارهـا . وقد زالت آثارهم وآثاره ،ولم يبقَ لنا الا اسمها وتذكاره . ويترجح انه كان منسوباً لاحد اطباء النصارى ، ولعله ترهب وانقطع فيه للزهد والعبادة فاشتهر بالنسبة اليه.

١٠

دير الحنابلة او المقادسة

في الصالحية

لا ندري ما كان اسمه النصراني قبل استيلاء الحنابلة عليه ونسبته اليهم. وقد خفي علينا ايضاً موضعه القديم لخرابه وعفائه ، فلا سبيل الى الاهتداء اليه . وغاية مـا نعلمه انه كان في الناحية الشرقية من الجبل . واوحد من اشار اليه ابن عبد الهادي المعروف بابن المِبرَد من علماء دمشق في بدء القرن العاشر للهجرة توفي سنة ٩٠٩/١٥٠٣ ، بعد ان كتب ما يـأتي في تاريخ له للصالحية لخصه محمد بن كنان ومسودته محفوظة في خزانة برلين بعنوان « المروج

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس .

السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية » رقم 2 ms. or. Wetzst. 11 n° 1117 قال الشيخ ابو عمر شيخ المقادسة والحنابلة بتاريخ ٥٥٤/١١٥٩ :

« لما سكنا الدير كان في الجبل الشيخ مسار وحمدان وسيدهم يعني في الدير الغربي – وابو العباس الكهفي . . . ولم يكن في الجبل الا بناية يسيرة من الناحية الغربية دير ابي العباس الكهفي ودار بنت القبّال . . . والكهفي ودير الحوراني وكان من الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابلة وكان فيه جماعة منهم عبد الرحمن المقايري وابو العلا واناس قليلون وكان اولا لناس من الرهبان فاتفق انهم احدثوا شيئاً فأخرجوا منه فسكنه ابن مستفاد واولاده واقاربهم طلبه لهم سابقاً الامام عبد الوهاب ابن الشيخ ابي الفرج الشيرازي الحنبلي وكانوا من اصحابه وكان الشيخ واعظاً عظيماً في البلد » (f°. 2r°)

وقال بعد ذلك :

« دير الرهبان وتقدم ذكره سكنه جماعة ابن الحنبلي ثم صار يعرف بدير الحنابلة » (f°.3v°)

واشار ابن شداد قبله الى مساجد الجبل فقال :

« مسجد مغارة الدم مسجد آخر فوق مغارة الدم مسجد مسجد الدير الذي كان لرهبان النصارى فجعل مسجداً خرب »[١]

فهل كان هذا المسجد الخرب هو مسجد دير الحنابلة المتقدم الذكر ، ام هو دير آخر تهدم مسجده قبل القرن السابع للهجرة ؟ وكان لا شك في سفح جبل قاسيون ، في ايام الروم ، غير دير واحد لما امتاز به الجبل من النزاهة وحسن المُطَلّ على رياض الغوطة . ويتضح من رواية ابن المبرد انه كان من الديارات القديمة في قاسيون ثلاثة اديار عُرف الغربي منها باسم دير ابي العباس الكهفي ، والشرقي بدير الحنابلة ، واشتهر الثالث بدير الحوراني ، وكان فيما يظهر في الناحية الغربية من الجبل[٢] . فأيّ هذه الاديار الثلاثة كان دير سمعان الذي خرب قبل القرن السادس للهجرة وتنوسي اسمه لغلبة الوهم الشائع انه في جوار حمص او معرة النعمان وانه مدفن الخليفة عمر بن عبد العزيز ؟ وما كان

١) الاعلاق الخطيرة، خزانة بريتيش موزيوم Add. 23385, f° 56

٢) في ذيل الروضتين لابي شامة في كلامه على ابي عمر شيخ الصالحية والمقادسة « قبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني عن يمين المار الى المغارة » (ص٧٥) .

قبل الاسلام اسم كل من الديرين الآخرين ؟ وسيبقى سر هذه الاديار الثلاثة مكتوماً في صدر الغيب الى ان يُفتح علينا ببعض خبايا الخزائن الخاصة المضنون بها على العلم .

وكان يقال احياناً لدير الحنابلة « دير المقادسة »[١] وهم قوم حنابلة من قرية جماعيل من بيت المقدس ، هاجروا في ايام الصليبيين الى دمشق ونزلوا في مسجد ابي صالح خارج الباب الشرقي مدة ثلث سنوات ، وعرفوا باسم «الصالحية» نسبة الى المسجد ، ثم خرجوا الى جبل قاسيون وتديّروه وعرف بهم فكان يقال جبل الصالحية اشارة اليهم ولم يكن مشهوراً قبل الا باسم قاسيون .

وقد عثرنا على اسم « دير المقادسة » في مجموع عربي رقم ٩٨٢ ، في خزانة باريس ، عُدّ غلطاً في المخطوطات التركية . وهو احاديث شتى وفيه « الجزء السادس من الموافقات في مشايخ مشايخ ابي دواد والترمذي وابن ماجه والنسائي جمع محمد بن عبد الواحد بن احمد المقدسي » وتحت عنوان هذا الكتاب في آخر سماع لكاتبه : « صحّ ذلك في يوم الجمعة ثاني رجب الفرد سنة سبع وثلاثين وثمان مائة بثنيات دير المقادسة من قسيون» (١٤٣٤م) .

وربّما قيل احياناً لهذا الدير « الدير المبارك » ومنه في ترجمة ابي عبدالله السعدي المقدسي الدمشقي الصالحي « ولد بالدير المبارك في سنة تسع وستين وخمسمائة »[٢] .

١) المروج السندسية لابن كنّان ، طبعة مديرية الآثار القديمة ، ٨١

٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي ، نسخة الجامعة المصرية بالقدس ، ٧ : ٣٠٤

١١

دير حَنَنْيا

بظاهر دمشق

في التقاليد المسيحية ان حنانيا الرسول هو اول اساقفة دمشق . فلا غرو اذا انتسب اليه احد الاديار في ضواحيها ، وقد تصرفوا في لفظ اسمه فقالوا حَنَيْنا بفتح الحاء والنون واسكان الياء ، وورد بهذا الضبط في الشعر ، ولا تزال الى اليوم تعرف به احدى حارات الباب الشرقي من ابواب المدينة حيث كان منزله . وربما الحقوا في الشعر المدّ بآخره فجعلوه حنيناء . وعليه قول الكميت يرثي معاوية بن هشام بن عبد الملك وقد مات عنده :

فأيّ فتى دنيا ودين تامَّت بدير حنيناء المنايا فذُلَّتِ
تملَّت الدنيا به بعد موته وكانت لنا حيناً به قد تملَّتِ [١]

وروى البكري فيما قيل ان الذي رُثي بهذا الشعر هو البطّال احد فرسان العرب المشهور بغزوات الروم في ايام الامويين مات بدير حنينا قافلًا مع معاوية بن هشام من غزوة ، فامر معاوية الشعراء برثائه . والصحيح ما اثبتناه . ومما يدل عليه ان قبر معاوية بن هشام كان ملجأ معروفاً في الدولة المروانية يستجير به الخائف فيؤمن لمحله من بيت الخلافة . ولما نظم الكميت قصائده الهاشميات وهجا بني امية امر الخليفة هشام بن عبد الملك ان يُقطع لسانه ويده فأُخذ وحُبس ثم افلت من السجن متنكرًا بثياب امرأته وقدم دمشق ، واستجار بعنبسة بن سعيد بن العاص ، فامره ان يعوذ بقبر معاوية بن هشام بدير حنينا وشفع فيه بعض رجالات امية فنجا من القتل[٢] .

وقد اهمل ياقوت والبكري والعمري ذكر هذا الدير في جملة الديارات . واشار ياقوت الى موضعه في حرف الحاء واقتصر على القول انه من اعمال

---

١) معجم ما استعجم للبكري ٢٧٣ – ٢٧٤
٢) الاغاني ١٥ : ١١٥

دمشق[1] ولا شك ان الناحية كلها كانت معروفة باسمه . ولذلك قيل ان معاوية ابن هشام قُبر فيه ، وولده عبد الرحمن هو الامير المعروف بالداخل منشئ الدولة الاموية في الاندلس ، ولد في ناحية الدير سنة ١١٣ للهجرة[2] (٧٣١ م) .

ولا سبيل اليوم الى الاهتداء لمكان هذا الدير وموقع ناحيته • وكان لا يزال معروفاً مقصوداً بالزيارة في اوائل القرن السابع ، في ايام الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم الايوبي . وقد وُفقنا للعثور على قصيدة من شعر عون الدين بن العجمي الحلبي الكاتب (٦٠٦ — ٦٥٦ ﻫ ١٢٠٩ — ١٢٥٨ م) في مدح الملك الناصر ذكر فيها ثلاثة من اديار الشام ومنها دير حنينا ننقل منها ما يأتي وغالبه في وصف خمرة الدير :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزت بالشام شِمْ تلك البروق ولا تعدل – بلغت المنى – عن دير مرّان . . .
واعبر بدير حنينا وانتهز فرص اللـذّات مـا بين قسيس ومطران
واستجلِ راحاتها تحيي النفوس اذا دارت براح شماميس ورهبان
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت بشُهبها من هومي كل شيطان
كم رحتُ في الليل أسقيها واشربها حتى انقضى وندبي غير ندمان
سألت توماس عن كانٍ عاصرها اجاب رمزاً ولم يسمح بتبيان
وقـال اخبرني شمعون ينقله عن ابن مريم عن موسى بن عمران
بانها سفرت بالطور مشرقـة انوارها فكنَوا عنهـا بنيران
وهي المدام التي كانت معتّقة من عهد هرمس من قبل ابن كنعان
وهي التي عبدها فارس فكنى عنها بشمس الضحى في قومه ماني
سكرت منها فلا صحو وَجُدتُ بها على الندامى وليس الشحّ من شاني
وسوف امنحها اهلا وانشده ما قيل فيها بترجيع والحـان
حتى قيل لهـا اعطاه طرباً وينثني الكون من اوصاف نشوان
خير الملوك صلاح الدين ليس له في الجود ثانٍ ولا عن جوده ثاني[3]

ولعل توماس هذا الذي ذكره كان وقتئذ رأس دير حنينا ، ام بالحري متولي بيع الخمر فيه • وقد اطلنـا البحث عن شاهد آخر يشير الى هذا الدير فذهبت اتعابنا ادراج الرياح •

١) معجم البلدان ٢ : ٢٥٠
٢) المقفّى للمقريزي ، خزانة باريس ٢١٣١ ، ص ٥٢
٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ : ٢٢٥ — ٢٢٦

١٢
دير الرصافة
هو دير حنينا

قال البكري هو بدمشق[١] ويظهر انه نقل ذلك عن ابي الفرج الاصبهاني وورد نظيره في كتاب الديرة للسميساطي كما جاء في معجم البلدان قال ياقوت ما ارى الا انه غلط منه . وبين الرصافة هذه ودمشق ثمانية ايام وقد اجتاز ابو نواس بهذا الدير وقال فيه :

ليس كالدير بالرصافة دير فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بتّهُ ليلة فقضّيت اوطا رًا ويومًا ملأت قُطريه لهوا[٢]

ولا يدرى ما كان اسم هذا الدير قبل قدوم العرب وبناء الرصافة بالقرب منه ولذلك تنوسي لقبه النصراني ككثير من القاب الديارات امثاله التي انتسبت في الاسلام الى مواقعها او الى جيرانها من ارباب الضياع والبقاع وتعرّت من اسمائها الرهبانية القديمة بحيث يتعذر اليوم على المؤرخ معرفة من كان يحتلها من الروم او السريان ولكن يؤخذ من قول البكري ان دير الرصافة من بناء الروم انه كان للروم الملكية.

وقد نشأ عن ضياع هذه الاسماء الرومية او السريانية وهم وقع فيه غير واحد من مؤلفي كتب الديارات لاعتبارهم الدير الواحد — اذا اتفق احيانًا معرفة اسمه القديم واشتهر مع ذلك باسمه الحديث — ديرين مستقلين لا صلة لاحدهما بالآخر ومن هذا القبيل عدُّهم دير الرصافة خلاف دير حنينا وقد اسعدنا الحظ بالوقوف على شهادة أُنف اصبناها في تاريخ ابن عساكر المخطوط يستدل

١) معجم ما استعجم طبعة مصطفى السقا ١٩٤٧ ج ٢ ٥٨٠ — ٥٨٢
٢) معجم البلدان طبعة اروبة ٢ : ٦٦١

من مقابلة ابياتها وخبرها بالابيات والخبر الواردة في اوصاف دير الرصافة ان هذا الدير هو بعينهِ دير حنينا الذي تقدم تعريفه وهذا نص ما نقله ابن عساكر في ترجمة الفرخ رجل من بني امية قال :

« له قصة مع المتوكل قرأت بخط أبي الحسين الرازي . . . حدَّث محمد بن سعيد الربعي قال : لما اراد جعفر المتوكل الخروج من الشام الى العراق احبّ ان يجعل طريقه على البرية لينظر الى آثار بني أُمية ومصانعهم وكان في طريقه دير يُعرف بدير حنينا فلما ازمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أُمية فقال والله لانغّصنّ عليه نزهته بأبيات اصيرها ثم تقدمه الى الدير فجعل لصاحب الدير جُعلًا على ان يدعه يكتب في صدر الهيكل ابياتًا فأذن له فكتب :

ايا منزلًا بالدير اصبح خاويًا	تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تقطنك بيض نواعم	ولم تتبختر في فنائك حور
وابناء املاك عباشم سادة	صغيرهم عند الانام كبير
اذا لبسوا تيجانهم فضراغم	وان لبسوا تيجانهم فبدور
على انهم يوم اللقاء قساور	ولكنهم عند السؤال بحور
ولم يصبح الصهريج والناس حوله	عليه فساطيط لهم وخدور
وحولك رايات لهم وعساكر	وخيل لها بعد الصهيل نخير
ليالي هشام بالرصافة قاطن	وفيك ابنه يا دير وهو امير
اذ الملك غضّ والخلافة لدنة	وانت خصيب والزمان طرير
وروضك مرتاض وربك رائع	ووجه بني مروان فيك نضير
بمسلمة الميمون وهو الذي له	تكاد قلوب المشركين تطير
بلى فسُقيت الغيث صوب سحائب	عليك بها بعد الرواح بكور
تذكرت قومي بينهم فبكيتهم	بشجو واني بالبكاء جدير
وعزّيت نفسي وهي نفس اذا جرى	لها ذكر قومي أنّة وزفير
رويدك ان اليوم يعقبه غد	وان صروف الدائرات تدور
لعل زمانًا جار يومًا عليهم	لهم بالذي تهوى النفوس يحور
فيفرح مرتاب ويأمن خائف	ويطلق من حبل الوثاق اسير

فلما قرأها المتوكل قال والله ما كتب هذا الّا رجل من بني أُمية يريد ان ينغّص عليّ ما انا فيه فمن اتاني به فله ديته فطُلب فأُتي به واذا هو رجل من بني أُمية من اهل دمشق يعرف بالفرخ فامر بقتله وقال : بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد . قال ابو الحسين راوي هذه الحكاية ان المتوكل لما قرأها بكى بكاء شديدًا وامر بهدم الموضع »[1] .

(١) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية بدمشق ١٩ : ١٤٥

وذكر ابو الفرج الاصبهاني في كتابه الديارات الذي نقل عنه الشهاب العمري في كتابه مسالك الابصار ان اول من قصّ هذه الحكاية هو ابن حمدون الذي صحب المتوكل الى دمشق ونقلنا من لفظه زيارته لديارات باب الفراديس وكنائسها في كلامنا على دير صليبا وهو شاهد عياني يوثق به كل الثقة ويظهر ان المتوكل لم يأمر بهدم الدير او الهيكل الذي زعم ابو الحسين الرازي انه كتبت في صدره الابيات ويبعد جدًا ان يكون الديراني اجاز لاحد كتابتها في صدر الهيكل ولعل الاصح قول ياقوت ان الابيات كانت في رقعة ملصقة في حائط من حيطان الدير حيث قرأها المتوكل ولا يتضح لنا السبب الذي دعا المتوكل الى البكاء عند قراءتها كما قيل ومما يثبت انه لم يكن هناك هدم في الموضع ان ياقوت رأى هذا الدير وشهد انه من عجائب الدنيا حسناً وعمارة وقد اتفق ياقوت والعمرى والبكري على ان كاتب الابيات ليس هو الفرخ الدمشقي كما روى الرازي ولكنه رجل من وُلد روح بن زنباع الجذامي من اخوال هشام بن عبدالملك ولم يقل احد منهم ان الخليفة امر بقتله.

١٣

دير الرهبان الروم

بدمشق

كان بدمشق ديارات للرهبان اشار اليها سعيد بن بطريق في تاريخه (٢ : ٨٣ طبعة بيروت) ولكنه اهمل تعدادها وتسميتها فلا سبيل لنا اليوم الى معرفة شيء منها ويؤخذ من شهادة المعلم علي بن محمد بن التقي المهندس الذي ذكره شهاب الدين العمري في كتابه مسالك الابصار انه كان في الرواق الذي كان يحيط بكنيسة يوحنا من الجهات الاربع قلالي وصوامع[١] كانت داخلة في الاديار التي حول الكنيسة.

وفي سنة ١٣٣٥ مرّ احد زوار فلسطين بدمشق وشاهد في اواسط المدينة

١) مسالك الابصار للعمري ١ : ١٨٩

ديرًا يسكنه بعض رهبان الروم[1] (caloyers) ولا يبعد انه كان بجوار كنيسة مريم ولعله كان ايضاً في جملة الديارات التي انتهبت سنة ٩٢٤ ومنها دير للنساء بجانب الكنيسة المذكورة كما سيجيء من كلام سعيد بن بطريق .

١٤
دير زكّى
بدمشق

زكى من الاسماء المعروفة بين النصارى واشتهر به دير في الرها وقيل في الرقة وقد انفرد ياقوت بذكر دير زكى في الشام وكان في زمانه « قرية بغوطة دمشق » قال : وقد مرّ بهذا الدير عبدالله بن طاهر ومعه اخ له فشربا فيه وخرجا الى مصر فمات اخوه بها وعاد عبدالله بن طاهر فنزل في ذلك الموضع فتشوق اخاه فقال :

ايا سروتي بستان زكى سلمتما ‌ ‌ ‌ وغال ابن امي نائب الحدثان
ويا سروتي بستان زكى سلمتما ‌ ‌ ‌ ومن لكما ان تسلما باءان[2]

وقد فاتنا ما قاله مؤلفو كتب الديارات في هذا الدير لضياعها كلها وسقوط اخبار اديار الشام في نسخة كتاب الشابشتي المحفوظ في برلين وفي خزانتنا صورة عنه ومع اننا طالعنا تاريخ ابن عساكر في مجلداته الضخمة السقيمة في ظاهرية دمشق فلم نوفق الى العثور مرة على اسم دير زكى بين اسماء القرى التي نزلها او نشأ فيها من مر بدمشق من رجال ابن عساكر.

١٥
دير سركيس وباخوس
في معلولا

لا يزال هذا الدير قائماً في ذروة جبل يشرف على معلولا يسمى مكانه

1) Jacques de Vérone : *Le Pèlerinage du moine Augustin Jacques de Vérone* (Revue de l'Orient Latin LII, 1895 Paris n° 2 p. 138

2) معجم البلدان ٢ : ٦٦٥

بالمعلولية « بلوطا عليا » اي البلد الاعلى والمرتقى اليه صعب شاقّ ولذلك لم ترد اقل اشارة اليه في الآثار الاسلامية. لبعده عن طريق الزوار والمتنزهين ولا يُدرى في الحقيقة متى كان بناؤه ومن اقام فيه من الرهبان وفي خزانة بريتيش موزيوم كتاب صلوات في السريانية (اكتويخوس) تم نسخه في ٢٩ شباط سنة ١٥٢٤ للاسكندر اي ١٢١٣ للميلاد كان موقوفاً على الدير[1] ويظهر ان مرضى النصارى ما فتئوا يترددون اليه طلباً للشفاء لاشتهاره بعجائب القديس سرجيوس سميّه كما نبّه على ذلك الشماس بولس الحلبي في كتابه « رحلة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية» حين زار اديار دمشق سنة ١٦٤٢ في صحبة والده ملاتيوس الزعيم مطران حلب[2]

والدير اليوم في ملك الرهبان المخلصيين من الروم الكاثوليك واول رئيس عليه عُرف منهم الخوري امبروسيوس زعرور سنة ١٧٥٣ ومن الغريب انه مع كل ما امتاز به من حسن الموقع وجمال المُطَلّ لا يزال مُطَّرحاً مهملاً خالياً من كل جمال ورياش في ابنيتهِ ومعبده لقلة اكتراث الرهبان له مع كونه الدير الاوحد الذي لهم في انحاء الشام وفي بقائه على هذه الحال من الاهمال عار على الرهبانية لقدرتها على ترميمه واصلاحه وبناء بعض غرف فيه تليق بها وبزواره ولهم في دير مارت تقلا للروم الارثذكس عبرة كافية.

١٦

دير سمعان

في جبل قاسيون

اشتهر هذا الدير بموت عمر بن عبد العزيز فيه ولكن اشتد الخلاف في موقعه وتعددت الاقوال والظنون في تعيين المكان الذي اعتلّ الخليفة الاموي فيه فروى الطبري[3] وتابعه ابن الاثير[4] انه قضى نحبه في خناصرة واضاف صاحب

١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٥٨

٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٢٤ — ١٢٨

٣) تاريخ الرسل والملوك المطبعة الحسينية القاهرة ٨ : ١٣٧

٤) الكامل لابن الاثير القاهرة سنة ١٣٠١ ج ٥ : ٢٧

كتاب البدء والتاريخ انه لما مرض فيها « دخل عليه بعض بني امية فرآه على فراش ليف تحته وسادة من أدم مسجّى كاسف اللون »[١] وهذا الوصف هو احد الاخبار الموضوعة لإطراء زهد الخليفة وفقره وتقواه .

وفي طبقات ابن سعد ان وفاته كانت بخناصرة ودفنه في دير سمعان[٢] ولم يقل اين كان الدير وورد مثل ذلك في سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٨٦) وفي كتاب العيون والحدائق انه توفي بخناصرة ودفن بدير سمعان من ارض المعرة (٣ : ٦٣) وعرّف ابن حوقل خناصرة بانها « حصن يحاذي قنسرين الى ناحية البـادية وعلى شفيرها وسيفها كان يسكنه عمر بن عبد العزيز »[٣] وممن ذهب ايضاً الى ان وفاة عمر كانت بخناصرة ابو الفداء وابن الوردي[٤] وآخرون من المؤرخين .

وحكى في ضد ذلك ابن واضح اليعقوبي ان عمر بن عبد العزيز« خرج الى دمشق فنزل دار ابيه التي كانت الى جانب المسجد[٥] واقام عشرين يوماً وكثر عليه الناس فارتحل الى مدينة حمص راجعاً يريد ان ينزلها فلما صار الى اوائل حمص اعتلّ فمال الى موضع يعرف بدير سمعان فنزله ويقال بل ارتحل اليه قاصداً يريد نزوله بسبب قطعة ارض كان ورثها عن امة فيه »[٦] واقتصر المسعودي على هذا الرأي ونص على ان دير سمعان كان من اعمال حمص مما يلي قنسرين وان قبر عمر كان في ايامه (سنة ٣٣٢=٩٤٤) الى هذه الغاية معظماً يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ولم يُعرَض لنبشه في ما سلف من الزمان كما عُرض لقبور غيره من بني امية »[٧] وروى ابن عساكر « ان عمر بن عبد العزيز مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب (سنة ١٠١ = ٧٢٠) بدير سمعان من ارض

١) كتاب البدء والتاريخ طبعة هوار ٦ : ٤٧
٢) طبعة اروبة ٥ : ٣٠١
٣) كتاب صورة الارض الطبعة الثانية القسم الاول ١٧٩
٤) المختصر في اخبار البشر ١ : ٢١٣ وتتمة المختصر ١ : ١٨١
٥) دار عبد العزيز بن مروان بدمشق هي « هذه الخانقاه الملاصقة للجامع المعروفة بالشميساطية » (تهذيب الاسماء واللغات للنووي طبعة اروبة ٣٩٣)
٦) تاريخ اليعقوبي طبعة ليدن ٢ : ٣٦٨ – ٣٧٠
٧) مروج الذهب طبعة باريس ٥ : ٤١٦ – ٤١٧ والتنبيه والاشراف طبعة ليدن ٣١٦

حمص[1] وعنه اخذ شمس الدين الذهبي[2] والنووي[3] وغيرهما من النقلة والرواة وتردد ابن الجوزي بين خناصرة كما تقدم وحمص بدير سمعان واشاروا الى ان قبره هناك مشهور يُزار ويتبرك به.

ورجح دفنه في حمص من المتأخرين الشيخ عبد الغني النابلسي وحكى في رحلته الحقيقة والمجاز « انه زار القبر وهو في مسافة ميل من بلدة حمص قال: واشرفنا عليه فوجدناه متهدم الجدران من الجهات الاربع في وطاءة من الارض ولم نجد هناك قبراً ولا شيئاً يدل على انه كان هناك قبر معلوم بل قيل لنا هذا مكان دير سمعان وآثاره تدل عليه ولوامع الانوار تشرق لديه...وهو مشهور عند اهل حمص انه مدفون في ذلك الدير»[4]

وكانت صحة القبر في حمص مشكوكاً فيها في ايام صلاح الدين الايوبي ولما مرّ بحلب سنة ٥٨٤=١١٨٨ وتوجه منها قاصداً معرة النعمان احب فيها زيارة الشيخ الزاهد ابي زكريا المغربي وعنده مشهد يقال انه لعمر بن عبد العزيز فتبرك بزيارة الحي والميت ثم قفل راجعاً وبعد ان اجتاز حماة وقلعتها « اصبح راحلًا ولم يقم بحمص»[5] واعرض عن القبر المنسوب فيها للخليفة الاموي وهو ما يدل على ان هذه النسبة كانت قد ضعفت في زمانه ولذلك لم يحفل بها.

وهذا المشهد الذي آثر صلاح الدين التبرك به كان في ضواحي معرة النعمان في دير يقال له النقيرة زعموا ان عمر بن عبد العزيز كان مدفوناً فيه لاعتقادهم ان دير سمعان هو اسم مدفن الخليفة حيثما كان من الامكنة وقد دافع غير واحد عن صحة مدفن عمر في النقيرة وفي طليعتهم شهاب الدين العمري الدمشقي وتصحف اسم النقيرة في كتابه مسالك الابصار ورُوي فيه « البقرة »[6] وتقدمه في هذا الوهم القاضي جمال الدين بن واصل ووافقه عليه ابن الوردي واليافعي

١) تاريخه المخطوط في دار الكتب الظاهرية (رقم ٢٣ تاريخ) ٧ : ١٢٠ – ١٢١
٢) دول الاسلام طبعة حيدر اباد ١ : ٥٢
٣) تهذيب الاسماء واللغات طبعة اروبة ٣٩٣
٤) دار الكتب الظاهرية (٥٥ ادب) ص ٥
٥) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ٢ : ١٢٤
٦) مسالك الابصار الجزء الاول المطبوع ٣٥٢

وابن الشحنة . قـال صاحب مراصد الاطلاع : « قبر عمر بن عبد العزيز في قرية تعرف بالنقيرة وكان موضعه ديرًا فخرب وسألت بعض اهل المعرة عنـه فقالوا الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز يعرف بدير النقيرة ودير سمعان دير آخر قريب منا ولعل الدير الذي بالنقيرة قد كان يسمى دير سمعان »[1]

ومن الرحـالين الذين زاروا قبر النقيرة الشيخ علي بن ابي بكر الهروي مؤلف كتاب الزيارات قال: دير النقيرة من بلد المعرة به قبر عمر بن عبد العزيز وقبر الشيخ ابي زكريا المغربي من كبار الصالحين وقيل قبره بدير سمعان والمشهور هذا »[2] ثم مرّ من بعده ابن بطوطـة بمعرة النعمان وقال : بخارجها على فرسخ منهـا قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية له ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولعن متبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي »[3]

وقد تعددت في انحاء الشام الاديار المتَّسمة باسم سمعان واشتهر معظمها في جوار حلب وانطاكية ودمشق وحمص والمعرة ولذلك حار المؤرخون في تعيين مدفن عمر في احدها واجمعوا كلهم انه لم يكن في انطاكية في الجبل المعروف قديمـاً بالجبل العجيب وانفرد كاتب ترجمة عمر في معجم الموسوعات الاسلامية بالظن خطأً ان الخليفة دفن في نواحي حلب[4] اي بين جبـل عُلَيم والجبل الاعلى في الدير المعروف اليوم بسمعان العمودي الغني باطلاله ودِمَنه العجيبة.

وقد اطلنا البحث في ما تناولته اليد من الآثار النصرانية الباقية فلم نقف على اقل اشارة الى دير لسمعان بجوار حمص ولا ندري متى حلّ الخراب به وتحولت بقعته الى شبه قريه اشتهرت بالنسبة اليه كاشتهار غيرهـا من بقاع الاديار ومن اجلها صرّح النووي ان دير سمعان كان « قرية قريبة من حمص » وهي التي وجدها النابلسي خاوية خالية ليس فيها اثر للدير او القبر.

١) مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع طبعة اروبة ٣: ٤٣٢

٢) كتاب الزيارات في مجموع (رقم ١٠ تصوف) في دار الكتب الظاهرية بدمشق

٣) رحلته طبعة باريس ١ : ١٤٥

٤) Encyclopédie de l'Islam p. 1046

وفي ضد ذلك اسعدنا الحظ بالعثور على ذكر لدير سمعان في النقيرة وجدناه في كتاب للشماس بولس الحلبي ابن البطريرك مكاريوس الزعيم بخط قلمه في تاريخ انطاكية المحفوظ عندنا وقد وصف فيه سمعان مرة « بالقديس الناسك وانه كان اولًا في الجبل الاوسط ثم انتقل الى معرة النعمان ويدعى سمعان النقيري صاحب الجبل الاوسط » ثم نعته مرة اخرى « بالبارّ سمعان المسمى بالعتيق » ولما أرخ تذكاره في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني قال « انه منذ صباه آثر العيشة الفقرية واحبّها وسكن في مغارة صغيرة... وذهب الى الجبل ودخل في باطن المغارة التي اختفى فيها موسى قديمًا . ثم عاد راجعًا من الجبل وعمر ديرين » وهذا القول يؤيد شهادة صاحب مراصد الاطلاع انه كان في النقيرة ديران باسم سمعان اشتهر الواحد وعفى الدهر على الآخر وجهل مكانه .

ومما تقدم يتبين جليًا تعدد الاديار السمعانية في الديار السورية وفيه حجة كافية لعذر كل خطاء في تعيين الدير الحقيقي الذي في ارضه كان قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز ومن اجله اضطربت اقوال المؤرخين وتناقضت اراؤهم في النص على موضع واحد وقد كان يكفي احدهم ان يقع على اسم دير لسمعان ليعتقد انه كان مدفن عمر حيثما وجد من البلاد دون اقل بحث عن موقعه او انتقاد وقد اجمع الرواة على ان هذا الاسم هو اسم اللحد الذي اختاره عمر بنفسه ليكون مثوى له ومرقدًا وابتاع هو مكانه من اصحاب الدير ونقدهم ثمنه على اختلافهم في تقدير هذا الثمن اختلافًا تعمدوا فيه النقص والمبالغة الى حد السخف ليوهموا زهد الخليفة الخارق الحد وفقره المدقع حتى زعم صاحب كتاب العيون والحدائق انه اشترى قبره بدينارين وعجز عن ادائهما فدفع اليهم دينارًا وقيصًا[1] وكأن ابن سعد استحيا ان ينقل في طبقاته مثل هذا الهزل والتهويل فروى ان الثمن كان عشرة دنانير[2] وابلغه ابن عساكر الى ثلاثين دينارًا قال ثم دعا بالدنانير فوضعها بيد النصراني[3]

١) كتاب العيون والحدائق . ليدن ٣ : ٦٣

٢) طبقات ابن سعد طبعة اروبة ٢٩٩

٣) تاريخ ابن عساكر المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق المجلد السابع الورقة ١١٨

ومن راجع نصوص الروايات القديمة التي نقلها ابو الفرج الاصبهاني والخالديان في كتاب الديارات واخذها عنهما لا شك البكري في معجم ما استعجم وياقوت في معجم البلدان يعلم حق العلم ان دير سمعان مدفن عمر كان دون اقل ريب « بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور »[1] وبساتين لبني امية[2] بالقرب من الغوطة على قطعة من الجبل يطل عليها[3] وهو وصف ينطبق على جبل قاسيون ولكن يتعذر الاهتداء منه الى مكان الدير بالضبط لقلة احتفال الرواة والمؤرخين بالاجمال بالتخطيط والتحديد وقد بقيت لنا لحسن الحظ شهادة بلدية تعين على الدلالة على موقعه بوجه التقريب نقلها لنا ابن طولون احد علماء دمشق في المئة العاشرة في كتابه « القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية » في اثناء كلامه على المدرستين المعظمية والعزيزية وكان بناء الاولى سنة ٦٢١/١٢٢٤ والثانية سنة ٦٣٥/١٢٣٧ قال: شمالي هاتين المدرستين حوش عظيم بحيطان عالية يقال انه دير سمعان كان . وله باب يفتح الى الشرق وداخله عدة قبور معظمة »[4]

وفي موضع التربة المعظمية في قاسيون كان في قول غير واحد من المؤرخين دير مرّان المشهور كما سيجيء في الكلام عليه فكان الديران اذن متجاورين وربما وقع الاشتباه والخلط بينهما كما يدل على ذلك قول الزبير ان معاوية وجّه يزيدًا ابنه لغزو الروم فاقام يزيد بدير سمعان[5] بدلًا من دير مران في اشهر الروايات .

ويجب ان يكون الخراب قد اسرع الى دير سمعان بدمشق قبل منتصف القرن الثاني للهجرة لان صالح بن علي العباسي « حين قدم الشام سأل عن قبر عمر بن عبد العزيز فلم يجد احدًا يخبره حتى دُلّ على راهب فسأل عنه فقال :

---

١) معجم البلدان طبعة اروبة ٢ : ٦٧١ – ٦٧٢
٢) معجم ما استعجم للبكري طبعة القاهرة ١٩٤٧ ج ٢ : ٥٨٥ – ٥٨٦
٣) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٥١ – ٢٥٢
٤) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق الشيخ محمد احمد دهمان ١٣٣
٥) معجم ما استعجم للبكري ٢ : ٥٨٥ – ٥٨٦ وتاريخ ابن عساكر في الظاهرية ١٨ : ١٦٨ ظهر و١٩ : ٢٠٩

« أقبر الصديق تريدون ؟ هو في تلك المزرعة »[1] كذا دون اقل ذكر لمكانها ويستدل من قول المسعودي بوجود دير سمعان في اعمال حمص ان خبر موت عمر في غير دمشق كان قديماً سبق القرن الثالث وان مكانه في قاسيون كان قد تنوسي وزال ذكره من كل علم واثر حتى زعم البصروي في كتابه فضائل الشام انه « دفن بالباب الصغير من مقابر دمشق وهناك ضريح مشهور انه قبره »[2] ولا حاجة الى التنبيه على غرابة هذا القول ولم نجد من تابعه عليه بين كل من أرّخ دمشق .

وقد انكر شهاب الدين العمري وجود دير سمعان بقاسيون وزعم انه « ليس يسمع بدمشق لهذا الدير نابسة ولا يعرف لمكانه في الغوطة خضراء ولا يابسة » وعنده ان الدير هو في قرية تعرف بالبقرة (النقيرة) من قبلي معرة النعمان وبه قبر عمر بن عبد العزيز لا ينكر »[3] وفاته ان ياقوت نفى قبله نفياً باتاً وجود القبر في النقيره وجزم ببقائه بين قومه في حاضرة الامويين . ومن العجيب ان يجهل العمري ما علمه بلديّه ابن طولون بعده بقرنين ويقدم على تخطئة ابي الفرج الاصبهاني والخالدي لقولهما بقِدَم دير سمعان بدمشق .

وربما استعظم من ليست له مشاركة في تاريخ الاديار دفن خليفة اموي في دير نصراني والحقيقة ان اسم دير سمعان كان يطلق ليس على منزل الرهبان فقط بل على كل ما احاط به وجاوره من الدور والقصور والجنان والمزارع كما كانت تعرف بقعة دير مران بنفس الاسم دون تمييز ومن احدى قِطع الارض التي كانت تحدق بدير سمعان وكانت جارية في ملك الرهبان اشترى عمر محل قبره كما سبق ويظهر انه كان له دار في بقعة دير سمعان مجاورة لهذه الارض فاختار ان يدفن فيها ليكون غير بعيد عن منزله وقد شهد خصي اسود كان له بوجود هذه الدار وقال : « دخلت على عمر بن عبد العزيز في يوم شات في داره بدير

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٩

٢) الحقيقة والمجاز لعبد الغني النابلسي دار الكتب الظاهرية بدمشق (٥٥ ادب) الورقة ٣٠

٣) مسالك الابصار ٢٥١ – ٢٥٣

سمعان فألفيته قاعدًا في زاوية الدار في الشمس »[١] ولا تخفى قيمة هذه الشهادة التي حفظها لنا انس بن مالك .

ومن عرف دير سمعان من الشعراء جرير دخله في يوم عيد فرأى النساء والصبيان يقبلون الصُلُب ويسجدون لها فقال :

رأيت بدير سمعان صليبا تقبّله الشوادن والظباء
نعظّمه الفسوس ونحتويه فترشفه ويخنقها البكاء
فقلت من هل غير عود تملّكه اعوجاج واستواء[٢]

ولا يُخفى ظرف هذه الابيات ولعلّه دخل الدير في احدى زياراته باب الفراديس حين كان يؤرّقه فيه صوت الدجاج وضرب النواقيس . ومن بعده مرّ بدير سمعان ابو فراس بن ابي الفرج البزاعي واحزنه ما رآه عليه من الخراب فقال يخاطبه في ظن ياقوت والارجح عندنا انه كان يعني دير سمعان بالقرب من حلب :

يا دير سمعان قل لي اين سمعان وابن بانوك خبرني متى بانوا
وابن سكانك اليوم الألى سلفوا قد اصبحوا وهم في الترب سكان
اصبحت قفرًا خرابًا مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عُمر وعُمران
وقفت اسأله جهلًا ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
اجابني بلسان الحال انهم كانوا ويكفيك قولي انهم كانوا[٣]

ولم نستطع ان نعرف الى اي سمعان كان ينتسب دير قاسيون ألى سمعان الحلبي المشهور بالعمودي ام الى سمعان الانطاكي ولا نذكر انه مرّ بنا قط في تاريخ الاديار وقبور الخلفاء ما سبق مثاله من الخبط والتخليط في تعريف مدفن عمر بن عبد العزيز وموقع ديرسمعان وزاد في الطين بلة ما نشأ على تتابع الازمان من الاسماء واخبار القصاص في كل ما تناول القبر والدير من الصلات والجوار كالخبر الذي نقله صاحب كتاب مراصد الاطلاع ان « دير مران على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة وبه قبر عمر بن عبد العزيز مشهور يُزار

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابي محمد عبد الله بن عبد الحكم ١٦٣
٢) مسالك الابصار ٢٥١ - ٢٥٣
٣) معجم البلدان ٢ : ٦٧٢

به »[١] وفي هذه النغمة الجديدة ايماء ظاهر الى ان دير سمعان الدمشقي كان في جوار دير مران في قاسيون اي في جبـــل الصالحية اليوم وان سائر الاديار المنسوبة لسمعان في حمص وخناصرة والنقيرة ليس توهم وجود القبر فيها الا صدى لوجوده في دير سمعان بدمشق.

١٧

دير صليبا

في ظاهر دمشق

ويعرف ايضاً بدير السائمة ودير خالد لنزوله فيه عند حصاره دمشق وقـد اختُلف في موقعه في الحقيقة وفي رواية لابن عساكر « ان دير خالد كان خارج الباب الشرقي مما يلي بيت الآبار فخرب »[٢] وليس اليوم في جوار قرية بيت الآبار افل ولا طلل او رسم باق يدل على موقع الدير وتبعد القرية عن دمشق زهاء نصف ساعة وفي قول ابن الكلبي ان الدير كان على ميل من الباب الشرقي[٣]

ويترجح من اوصاف كتب الديارات ان دير صليبـــا كان مقابل باب الفراديس المعروف اليوم بباب العمارة مطلاً على الغوطة وكان بناؤه حسناً عجيباً في بقعة « نَزِهة كثيرة البساتين والاشجار والمياه دلّ عليها اسمها «الفراديس» اي الجنان وكانت ارضه مفروشة بالبلاط الملون والى جانبـــه دير ثانٍ للنساء الرواهب »[٤] والى هذين الديرين اشار جرير بقوله :

اذا تذكرت بالديرين ارّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

واستشهد الخالدي على ان دير صليبا كان يلي باب الفراديس بقول جرير في هذا الشعر :

فقلت للركب اذ جدّ النجاء بهم يا بعد يبرين من باب الفراديس[٥]

---

١) مراصد الاطلاع ١ : ٤٣٩ – ٤٤٠

٢) تاريخ ابن عساكر في الخزانة الظاهرية بدمشق ٤ : ٢٢١ ظ

٣) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٥٧

٤) الاعلاق الخطيرة لابن شداد خزانة بريتش موزيوم لندرة Add. 23335 f° 108

٥) مسالك الابصار لشهاب الدين العمري ٣٤٩

وفي رواية البلاذري ان اهل هذا الدير اتوا خالد بن الوليد بسلّمين وعليها رقي بعض جنده الى اعلى سور الباب الشرقي ونزلوا اليـه وليس عليه الا رجل او رجلان وتعاونوا عليه وفتحوه[1] قال هشام « سمعت الوليد بن مسلم يذكر ان خالدًا بن الوليد شرط لاهـل الدير الذي يعرف بدير خالد شرطًا في خراجهم بالتخفيف عنهم حين اعطوه سلمًا صعد عليه فانفذه لهم ابو عبيدة »[2]

وهذه الرواية ترجح كون الدير في مقابل باب الفراديس لقرب هذا الباب من الباب الشرقي خلافًا للدير المجاور قرية بيت الآبار وبينه وبين الباب الشرقي ميل فيما ذكروا .

ولا يُعلم الى اي زمن استمر الدير في الاسلام بعد زيارة المتوكل له سنة ٨٥٧/٢٤٣ ولا متى استولت الايدي عليه في اثناء الفتن والحروب التي اجتاحت دمشق وذهبت باديارها ومصانعها وآثارها وعرّتها من معظم محـاسنها ومفاخرها قال العمري «واليوم لا عين له ولا اثر وانما صار دورًا وابنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس»[3]

وليس في الآثار والكتابات النصرانية الباقية اقل اشارة الى هذا الدير فلا يعرف متى بني قبل الاسلام ومـا كان اسمه في الحقيقة في دولة الروم البيزنطيين ونظرًا لحسن موقعه وجمال مُطلّه على جنان الغوطـة كثر غشيان المتطربين له واقبال ارباب الشراب والقصف عليه شأن امثاله من الديارات في الاسلام « وحُكي ان الوليد بن يزيد (الخليفة الاموي) كان كثير المقام في هذا الدير يخرج اليه ومعه حُرَمه استحسانًا له وانه كان يجلس في ايام مقـامه فيه في صحنه كل يوم ساعة من النهار ثم يأكل ويشرب في مواضع منه طيبة حسنة »[4] واشتهر الدير به حتى قيل له « دير الوليد » وجهل ياقوت هذه النسبة فقال لا ادري اين هو الا ان مفسري قول جرير قـالوا اياه اراد بقوله « لما

١) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اروبة ١٢١
٢) فتوح البلدان ١٢٩
٣) مسالك الابصار ٣٥٦
٤) مسالك الابصار ٣٥٦

تذكرت بالديرين ارّقني »[1] وجهل ابن قتيبة وجود ديرين باسم صليبا للرهبان والرواهب فقال هو المقصود ببيت جرير وانما ورد بالتثنية كعادة الشعراء في تثنية الاعلام للضرورة[2]

ولم ينتهِ الينا من خمريات الاديار والحانات الا ما يأتي في اوصاف هذا الدير قال الشابشتي : أنشدت فيه :

يا دير باب الفراديس المهيّج لي بلابلا بقلاليه واشجاره
ومفلساً لي من مالي ومن نشبي بما أباكره من خمر خمّاره
لو عشت تسعين عاماً فيك مصطبحاً لما قضى منك قلبي بعض اوطاره [3]

ومن الشعراء الذين زاروا هذا الدير واطنبوا في مدحه والثناء على موقعه وجماله ابو الفتح محمد بن علي المعروف بابي اللقاء حدث عنه وقال :

« اقمت بدمشق مدة فاحببت ان امضي الى هذا الدير يعني دير صليبا الذي يعرف بدير خالد فتواعدنا انا واخوان لي على المضي اليه والمقام فيه يوماً وليلة فلما رايناه وحسنه وكثرة رياضه وحدائقه وبناءه اطربنا واعجبنا فاقمنا به شهراً نصطبح ونغتبق وقلت فيه :

جنة لُقّيت بدير صليبا مبدعا حسنه جمالا وطيبا
جئته للمقام يوماً فظلْنا فيه شهراً وكان امراً عجيبا
شجر محدق به ومياه جاريات والروض يبدو ضروبا
من بديع الالوان يضحي به النا ظر مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدرا به فوق غصن مائس قد علا بشكل كثيبا
وشربنا بـه الحياة مداما تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأن الظلام فيهـا نهار من سناها يسرّ منا القلوبا
لست انسى ما مرّ فيه ولا اجـ ـمل مدحي الا لدير صليبا [4]

وقد نقل ابن عساكر هذا الخبر وهذه الابيات من كتب الديرة لابي الحسن علي بن محمد بن المظفر السميساطي وقال ان ابي اللقا الشاعر مرّ بدمشق وذكر بعض ديرتها في شعره.

---

١) معجم البلدان ٢ : ٧٠٥
٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة ليدن ٣٠٠
٣) الاعلاق الخطيرة لابن شداد بريتيش موزيوم
٤) تاريخ ابن عساكر الخزانة الظاهرية بدمشق ١٩ : ١٢٨ ومعجم البلدان ٢ : ٦٧٤

وكانت شهرة هذا الدير وروعة موقعه وطيب ما حُفَّ به من الرياض والاشجار والمياه قد ترامت الى بغداد وبلغت اسماع الخليفة العباسي المتوكل على الله ولمـا قدم دمشق سنة ٨٥٧/٢٤٥ في من صحبه من الوزراء والقواد والحجّاب والكتّاب لم يدع زيارة هذا الدير في جملة الاديار والكنائس الدمشقية « في الموضع المعروف بالفراديس » وقد وُفقنا للعثور على وصف هذه الزيارة في مجموع مخطوط في خزانة بريتيش موزيوم في لندرة وهو أُنف لم يستخرج بعد من سَفطه وفيه من الطرافة والظرف والدلالة على احوال النصرانية في القرن الثالث للهجرة « بين كنائس عظيمة وآثار قديمة » ما حدانا الى نسخه هنا بغاية الحرص والاعجاب لجلالة روايته وعظم فائدته حدث به ابو عبد الله بن حمدون نديم المتوكل وشاهده العياني قال :

« كنت مع المتوكل لما شخص الى الشام فمنَّ له ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس ثم قال انى كنت اسمع بطيب هذه المواضع فقلت الرأي ما رآه امير المؤمنين فترلنا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة ترتاح النفوس اليها ويشتهي من يترلها ان لا يرتحل عنها فلما استراح من تعب الركوب استدعاني وقال هل لك في الركوب قلت كما يأمر امير المؤمنين فاخذ بيدي ولم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات ويشاهد ما فيها من عجائب الصور ويرى من (f° 126^b) احداث الرهبان وبنات النصارى وجوهاً كأنها اقمار على غصون تتثنّى في تلك الاروقة والصحون وكلما مرَّ بنا شيء منهم يقول لي : ويحك ترى ما نحن فيه ؟ ما شاهدت مثل هذا قط ثم خلونـا براهب من قُوَّام الكنيسة فلم يزل المتوكل يسأله عن كل جارية وغلام يمرّ به واسمه ونسبه اذ لمح كتابة على حائط الكنيسة فقرأها واذا هي « حضر الغريب المشتّت الحزين وهو يقول : شُتّت شملي بعد الألفة وبقي جسمي بعد الترفّه ومشيت من العراق الى هذا الرواق وارتحلت عنه في ذي الحجة سنة احدى ومائتين وانا اقول :

آل امري الى اخسّ الامور ونبدلتُ كربة بسروري
واعترتني من الزمان خطوب تتبارى في هتكة المستور
نفس صبرًا لحادثات الليالي كل شيء يذلّ للمقدور

فقـال لي : ويحك ترى ما اظرف حال هذا المسكين ومـا احرق هذا الانين ؟

ومرَّت به جارية مـا رات عيني لها شبيهاً وعليها جونا (كذا) وبيدها

مبخرة تبخر بها[١] فقال لها المتوكل : تعالي يا جارية فاقبلت بحسن ادب وكال فسأل المتوكل الراهب عنها فقال : ابنتي قال : وما اسمها قال : شعانين فقال لها المتوكل : يا شعانين اسقيني ماء فقالت : يا سيدي ماؤنا ههنا ماء الراهبات القذرات ولست استنظف ماءهم ولا آنيتهم ولو كانت حياتي ترويك (127° f) لجدتُ لك بها ثم اسرعت فجاءت بكوز من فضة فيه ماء فاومأ الي ان اشربهُ فشربت واشتد عجبه بها وشهوته لها فقال لها : يا شعانين ان هويتك تساعديني؟ فتنفّست ثم قالت : اما الآن فانا عبدتك فاما اذا عرفت صحة حبك وتمكنت من قلبك فما اخوفني من حدوث الطغيان عند تمكن الشيطان او ما سمعت قول الشاعر :

كنت لي في اوائل الامر عبدا ثم لما ملكت صرت عدوًا
اين ذاك السرور عند التلاقي صار مني تجنبـاً ونبوًا

فطرب المتوكل وكاد يشق قميصه ثم قال لها : هبي لي نفسك اليوم حتى نشرب انا وانتِ فانا ضيفك فقالت : على الرحب والسعة ثم اصعدت بنا على علّية مشرفة عـلى تلك الكنائس فرأينا منظر اهالنا حسناً ثم مضت فجاءت بأشياء من المأكول مستظرفات وكأن المتوكل عاف ذلك لعزّة الخلافة فاستأذنها في احضار طعام فاتونا بخروف محشوّ وسنبوذج واشياء قريبة المأخذ من طعام مثله فاستظرفت ما جيءَ به واستهولت الآلة وفطنت لامير المؤمنين فقامت قائمة بين يديه تخدمه وتكفّر له فنمها ثم جاء ابوها بشراب من بيت القربان

---

١) تقدم القول انه كان في دير صليبا دير آخر للنساء الرواهب فلا عجب اذا كانت ابنة قس الكنيسة تخدم او تبخر في بعض الصلوات والاحتفالات وكان للنساء في بعض الكنائس الشرقية نصيب في خدمة البيعة كالتلاوة والتبخير وما اشبه من نوافل الخدم في ديارات النساء ومعلوم ان القسوس غير الرهبان كانوا يتزوجون مرة واحدة ولا يزالون كذلك في بعض القرى في لبنان والشام وفي كنائس المدن في البطريركيات الغير الكاثوليكية . وقد دعا ابن حمدون قس الدير راهباً لظنه ان كل سكان الدير رهبان وراهبات وان الراهبات « بنات القسيسين » ولم تكن شعانين ابنة القس القائم بكنيسة الدير راهبة بوجه من الوجوه ولذلك وصفت ماء الدير بانه « ماء الراهبات القذرات » فإسلامها رهبةً من المتوكل لا يعد عارًا على راهبات دير صليبا .

ذكر المتوكل انه لم يرَ مثله قط فشرب وشربتْ معه فاستعفيتُ من حمى كانت لحقتني تلك الليلة فاعفاني وسرَّ بها وبظرفها سرورًا عظيمًا تامًّا

فلما اخذ الشراب منها قالت له : يا سيدي اغنّيك من غنائنا على ضعف الصنعة ؟ فكاد يهيم وقال : ان فعلتِ كل والله ظرفك (f° 127ᵇ) فقامت فجاءت بشيء يسمّونه القيثارة (القيثارة ؟) وصرخت واندفعت تغنّي :

يا خاطبًا مني المودة مرحبا سمعًا لامرك لا عدمتك خاطبا
انا عبدة لهواك فاشرب واسقني واعدل بكأسك عن حلبائك ان ابى
قد والذي رفع السماك ملكتني وتركت قلبي في هواك معذّبا

فنعر المتوكل وقال : ويلكَ اميتٌ انت ؟ فانتبهت وعلمت اني اخطأت في مساعدته فاخذت رطلًا ولم ازل اشربه حتى لحقته ومضى لنا يوم كان في الايام فردًا ثم ارغبها المتوكل فاسلمت وتزوجها ولم تزل عنده حتى قتل رحمه الله

« ورأيت في بعض النسخ ان شحرورًا وقريًا كانا يصيحان على اعالي اشجار الدير فاصغى اليها المتوكل فلما تحقّقت اصغاءه اليهما انشدته هذه الابيات الاربعة :

وكأنما الشحرور راهب بيعة ألهاه طيب الوقت من ترميره[١]
جُعلت له تلك الغصون صوامعًا يتغنى في انجيله وزبوره
وكأنما القمريّ يندب شجوه بانينه وحنينه وزفيره
صبٌّ شجته بلابل لما دنت منه ديار انيسه وسميره

فاعجبه ذلك منها وزاد بها سرورًا ولها محبة ثم انه ارغبها الى ان اسلمت وتزوجها رحمه الله »[٢]

ومما يجب ان ينتبه عليه ان ابن حمدون على مكانه من منادمة المتوكل كان غنيًّا عن كل مجاملة او اطراء في ما حكاه من هذه الزيارة ويزيد في قدر شهادته انها الاثر الفرد الذي بقي لنا من الاشارة الى الاديار والكنائس في القرن التاسع بدمشق والدلالة على بعض ما اتصفت به النصرانيات في حاضرة الامويين من جمال الخَلق والخُلق وكمال الادب والعلم ودقة الفطنة والفهم حتى بين « بنات القسيسين » ولا دليل يدعو الى الريب بان الابيات التي غنّت بها

١) الترمير هنا يراد به تلاوة مزامير داود
٢) الدر الملتقط من كل بحر وسفط لجامع شتاته محمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي بريتيش موزيوم لندرة Add. 14908

شعانين — وهذا الاسم لا يزال معروفاً في لبنان — هي من نظمها وارتجالها وبنت ساعتها وعفو قريحتها وهو ما يزيد في الاعجاب بذكائها وظرفها وبلوغها الغاية من حسن التربية والعشرة والمشاركة في ضروب من العلم كالغناء. والنظم وهي صفات تحلّى بها كثير من الفتيات والجواري والاماء. والقيان من كل الملل والنِحل في الاسلام كما يعلم ذلك كل واقف على تاريخ الحضارة العربية في الخلافة العباسية[1]

١٨

دير السيدة

بصيدنايا

هو فيما يظهر اقدم الاديار في دمشق وضواحيها وكان ذكره في ايام الصليبيين قد شاع وملأ الافواه والاسماع فكان محطاً للقوافل والركبان وقبلة للحجاج والعبّاد ومقصداً للزمنى والمرضى ومزاراً لكبراء الافرنج لمكان ايقونة العذراء. والاعتقاد الشامل انها من رسم القديس لوقا الانجيلي مع ما كان يُعزى لها من الاشفية والمعجزات بفضل الزيت السائل منها . وفي سنة ١٩٣٢ نشرنا تاريخاً خاصاً حافلاً لصيدنايا والدير توسعنا فيه جداً وضمّناه كل ما وقفنا عليه من اوصافها واخبارهما في طوافنا على خزائن المخطوطات والمطبوعات في الشرق والغرب فليراجع

واشتهرت صيدنايا قديماً بجودة خمرها كاشتهار الدير بايقونته واول من تغنّى بطيب مدامتها ابو نواس امير لواء السكارى فقال :

قم فاسقني واشرب فقد ولّى الدجى ... وانت ذكاء بنورها المتوقد
واسبأ لنا بنت الكروم وهاتها ... صرفاً متى تُقطَب بماء تزبد
مما اصطفوه بحمص او مما عتّقوه ... بصيدنايا او خبوه بصرخد
خذها على دين المسيح اذ نهى ... عن شربها دين النبي محمد[2]

---

[1] الخزانة الشرقية ٢ : ١٢ — ١٦

[2] الدر الملتقط من كل بحر وسفط رقم ٢١ من الخزانة الخالدية المقدس ص ١٣ — ١٤ ولم نجد هذه الابيات في ديوانه

وزاد في اطرائها من بعده ابن عُنَين فقال يخاطب اخاه من الهند :

يا سيدي واخي لقد اذكرتني عهد الصبى ووعظتني ونصحت لي
اذكرتني وادي دمشق وظله الضافي على صافي البرود السلسل
ووصفت لي زمن الربيع وقد بدا هرم الزمان الى شباب مقبل
وتجاوب الاطيار فيه فطرب يُلهي الشجيّ ونائح يشجي الخلي
ومدامة من صيدنايا نشرها من عنبر وقميصها من صندل
مسكية النفحات يشرف اصلها عن بابل ويجلّ عن قُطرُبُّل (١

وله ايضاً فيها :

اجتلي بنت كرمة خزنتها الروم دهرًا ما بين طين وقارِ
صيدنائية المناسب لكنّ اباها اذا اعترى كان قاري (٢

ووصف الشهاب العمري خمر دمشق بقوله : «هي الموصوفة في الآفاق المعروفة في مغارسها بكرم الاعراق ... وصيدنايا معدن ذهبها وافق كوكبها»[٣] وزعم بعض السفّار من الفرنج ان شاربها يأمن من الخمار

وبقيت ايقونة الدير ملجأً للاعلاء والاصحاء حتى اوائل القرن الخامس عشر دون ان يتوجّه لاحد شك في وجودها حتى شهد بعض الفرنج الزوار الثقات بسرقتها وشاهد صندوقها فارغاً[٤] ولكن الراهبات حرصن غاية الحرص على كتمان فقدانها وتحيّلن في ذلك بكل الحيل لئلا تنقطع النذور عن الدير فكان المصلون والراكعون يسجدون حتى اليوم امام صندوق خالٍ من الصورة القديمة التي كانت دهرًا طويلًا ظاهرة للعيان ثم :

خَفِيَت على «عبّادها» فكأنما يجدون ربّاً من اناء فارغ

وكان في الدير خزانة قديمة حافلة بالمخطوطات ولا سيا السريانية فخشي بطريرك الروم الارثوذكس ان يحتج السريان بكثرتها لاثبات حق لهم على الدير فجمعها الوكلاء واضرموا فيها النار وخبزوا عليها خبزتين بقلب راض.

---

١) ديوانه ٨٤

٢) ديوانه ٧٥

٣) مسالك الابصار ٥٠٣٤ باريس ١١٢

٤) *Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant.* Paris, 1704 pp. 310-313

ونفس مطمئنة وباؤوا بالاثم والعار وسوء السمعة ولا يخفى على احد ما فقده العلم والتاريخ من الفوائد والقيود الدينية والبلدية التي كان يمكن تعليقها على تلك الذخائر المغضوب عليها

وفي ثورة سنة ١٨٦٠ اوشك الدير ان ينهب ويحرق فتداركت رئيسة الراهبات الامر ورشت عصابة اللصوص فارتدّوا على اعقابهم راجعين بعد ان كانوا على مقربة من الدير واشاعت الرئيسة ان هذا الانقلاب كان باعجوبة من الايقونة.[١]

١٩

دير قانون

بظاهر دمشق

ذكره ياقوت في جملة الاديار النصرانية واقتصر على القول انه من نواحي دمشق[٢] وموقعه اليوم تجاه قرية كفر الزيت وفيه محطة السكة الحديدية على بعد زهاء ٢٥ كيلومترًا من دمشق واسم قانون او قونن (Conon) من اسماء قديسي النصارى ويعرف به موضعان من اعمال صور يقال لكل منهما دير قانون قال ياقوت: « القانون بنونين منزل بين دمشق وبعلبك»[٣] ولم ينتبه الى انه هو دير قانون الذي اشار اليه سابقاً.

والدير قديم لا يدرى متى كان بناؤه وقد اضمحلت آثاره ورسومه وكان يعد من متنزهات دمشق ذكره ابن منير الطرابلسي في قصيدته:

حيِّ الديار على علياء جيرون مهوى الهوى ومغاني الخُرَّد العين

وبعد ان عدد فيها معظم منازه دمشق وقراها المشهورة بالطيب والقصف جعل دير قانون بعد آبل السوق فقال:

فالماطرون فداريا فجارتها فآبل فمغاني دير قانون[٤]

١) Souvenir de Syrie 1903 p. 176-177

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٨٤

٣) معجم البلدان ٤ : ٢١

٤) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس

واشار ايضاً الى الدير محاسن الشوّا الحلبي في قصيدة له طويلة تكاد تبلغ مئة بيت سرد فيها كل مغاني دمشق في زمانه ومواطن اللهو والفرح فقال:

حَيَّيا ساكني بلوذان عني ورجا لا بدير قانونَ زُمرا (١

ويظهر ان الدير كان عامراً في زمان ابن الحجاج الشاعر المشهور لانه المح في بيت له الى خمر الرهبان للقربان فقال في الحث على شرب الصهباء:

اشربوها عما اقتناها آل دير القانون للقربان (٢

٢٠

دير القسّيس

في جوار بُقَّين ومضايا

اشار اليه محاسن الشوّا الحلبي في قصيدته التي عدّد فيها اشهر قرى دمشق ومتنزهاتها فقال:

والثُنا لي ثرى مضايا وبُقَيّـنا ودير القسيس شبراً فشبرا (٣

ورواه شهاب الدين فينان الشاغوري بتخفيف السين اي قسيس لضرورة الوزن فقال بعد ان ذكر قرية عين حور في بيت سابق:

ودير قَسيس جنّة اي جنّة مشاربها مشفوعة بالمآكل (٣

ولولا هذين الشاعرين لجهلنا اسمه وموقعه.

دير القس

بدمشق

كذا ورد في تاج العروس (٤ : ٢١٨) دون اقل تعيين او وصف ولم نقف على ذكر آخر له في مطبوع او مخطوط مما تناولته اليد في الخزائن ولا يبعد ان يكون هو دير القسيس المشار اليه آنفاً.

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس

٢) ارشاد الاريب ٤ : ١١ ٣) عيون التواريخ لابن شاكر ١٥٨٧ باريس

٢١
دير الماطرون

روى ياقوت عن ابي محمد حمزة بن القاسم انه قرأ على حائط من بستان الماطرون هذه الابيات :

أرقتُ بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس
واعرضتِ الشعرى العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سُهيل عن يميني كأنه شهاب نحاه وُجهة الربح قابس [١]

قال ياقوت : وهذه الابيات قديمة لارطاة بن سُهيّة[٢] ولا شك ان هذا الدير سبق الاسلام وكان من جملة الاديار العديدة التي كانت منتشرة لليعاقبة في كل برّ دمشق ولو كان انتهى الينا اسمه النصراني ربما كنا نهتدي الى ذكر له بين الديارات التي وقّع عنها رؤساؤها في بعض المجامع القديمة وأُشير اليها في المخطوطات السريانية كالتي نبَّه عليها مؤلف فهرست المصاحف الارامية في خزانة بريتيش موزيوم.

وفي تاريخ ابن عساكر ان هذه الابيات لجواس بن قعطل الكلبي[٣] وكانت النصرانية فاشية في بني كلب ولا شك انه كان منهم قوم في الماطرون

وقد اقتصر ياقوت وصاحب القاموس على القول ان الماطرون موضع او قرية قرب دمشق وزعم ابو الحسن القفطي انه بستان بظاهر دمشق يسمّى اليوم الميطور[٤] ولا ريب انه اشتبه عليه الاسمان فجعلها واحدًا وهما متباينان والميطور بين قاسيون وبرزة وقد جمعها عرقلة الدمشقي حبًّا بالجناس والطباق فقال في بيت له ناطق بالتمييز بينهما :

وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم الى الميطور وهو مطير [٥]

---

١) في الاصل المطبوع « نحاة وجهه » وفي تهذيب ابن عساكر « نجاه وجهة » والمعنى لا يستقيم في كلتا الروايتين والصواب : نحاه اي اماله وصرفه

٢) معجم البلدان طبعة اوربة ٢ : ٦٦٤

٣) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية ٤ : ٢٤ ظ

٤) خزانة الادب للبغدادي طبعة بولاق ٣ : ٢٧٩

٥) معجم البلدان طبعة اوروبة ٤ : ٧١٦

وعدّه ابن منير الطرابلسي مع داريا في جملة متزهات دمشق في قصيدته التي مطلعها: «حيِّ الديار على عليـاء جيرون» فقال بعد ان سرد اشهر ما عُرف منها في زمانه:

فالماطرون فداريا فجارتها فآبل فمغاني دير قانون[١]

وحار كل من تكلم على الماطرون من المستشرقين في تعيين موقعه فاجترأ دوسّو بالقول ان ضالّة المـاطرون يجب ان تُنشد حوالي دمشق[٢] وتردد الاب لامنس بين ان يكون في الغوطة او في وادي بردى[٣]

وذكر ابن عُنين الماطرون دون اقل اشارة الى موضعها فقـال من قصيدة يمدح بها الملك المعظم:

فيا من لراجٍ ان تبيت مُغِذَّة بيبدا دون الماطرون ركابه[٤]

وسبق ابن الرقيات فعدّ الماطرون بعد ضُمير فقال:

اقفرت منهم الفراديس فالغو طة ذات القرى وذات الظلال
فضمير فالماطرون فحورا ن قفار بسابس الاطلال[٥]

ولما شبب ابو دهبل الجمحي بعاتكة بنت معاوية قال في قصيدة له:

طال ليلي وبتُّ كالمجنون واعترتني الهموم بالماطرون[٦]

وفيه إلماع الى ان معاوية كان يصطاف احيـانًا بالماطرون وما يزيد ذلك ايضًا ابيات لابنه يزيد في فتاة هويها كانت تقضي الربيع في جلق والخريف في الماطرون قال فيها:

ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذي جمعا
خرفة حتى اذا ارتبعت ذكرت من جلق بيعا
في جنان ثَمَّ مؤنقة حولها الزيتون قد ينعا[٧]

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ ومعجم البلدان ١ : ٥٧
٢) R. Dussaud : *Topographie historique* p. 306
٣) P. Lammens : *Etudes sur le règne de Mo'awia* p. 378
٤) ديوانه ١٩
٥) معجم البلدان ٣ : ٤٨١
٦) الاغاني وخزانة الادب للبغدادي ٣ : ٢٧٩
٧) انساب الاشراف للبلاذري ٣ : ٢ ومعجم البلدان ٤ : ٣٩٥

ويروى في البيت الثاني « خرفة » بدلًا من « منزل » وفي عجزه ايماء الى بيَع جلق وهي غير كنائس دمشق ولعل ذكر البيع هو الذي اوهم ان يزيدًا تغزل في نصرانية ترهبت في دير خراب عند الماطرون[1] والارجح عندنا ان لفظة « بيعاً » هي تحريف « بقعاً » وهي بقع الجنان التي ينع فيها الزيتون المذكورة في البيت التالي ·

وفي عقد الجمان لليافعي[2] وكتاب البدء والتاريخ للبلخي[3] ان يزيد بن معاوية ولد في الماطرون وفي هذا المولد كان سرّ هواه في بلدتها وبما جاورها من القرى وسبب اختياره لها لاصطيافه ولهوه وصيده وفيها ايضاً فاجأه نعي الخليفة والده ولنا على ذلك شاهد يرشدنا الى تعرف موقع الماطرون وهو قول سبط بن الجوزي :« لما مات معاوية كان يزيد بحوّارين وذَنبة والماطرون مشغولًا بلهوه وصيده »[4] وفي حوّارين ايضاً ادركه الاجل والى قبره فيها اشار الاخطل بقوله في رثائه :

مقيم بحوارين ليس ببارحٍ سقته الغوادي من ثويٍّ ومن قبرِ[5]

ومما يؤيد قرب الماطرون من ذَنَبة قول سبط ابن الجوزي ايضاً في كلامه على نهر يزيد :« كان يمتدّ في القديم الى الماطرون وذنبة والقناطر في لحف الجبل باقية الى الآن (منتصف القرن السابع للهجرة) وذنبة هي « دانافا » التي وَهم كتاب الروم وظنوا انها هي صيدنايا وموقعها في الارجح في موضع قرية مهين[6] فلم يبقَ من ثم ريب ان الماطرون كانت قبلها للقادم من دمشق قريباً من حوارين ·

وليس لدينا اليوم من اخبار دير الماطرون ما يكشف لنا طرفاً من الحجاب المسدول على غابر ايامه فلا ندري كيف تطرق اليه الخراب واندرست آثاره

١) الاغاني وخزانة الادب للبغدادي ٣ : ٢٧٩
٢) دار الكتب المصرية ١١ : ٤٦
٣) طبعة فرنسة ٦ : ١٦
٤) مرآة الزمان في خزانة اكسفرد Marsh. 289
٥) انساب الاشراف ٣ : ٤
٦) R. Dussaud : *Topographie* p. 271

وغاية ما نعرفه من اوصافه كثرة الاعناب في بقعته وجواره من القرى والدساكر وقد اشتهرت خمرته بالجودة والإطراب ولذلك قال محاسن الشوّا الحلبي :

يا نديمي اسقني بالماطرون خمرة تجلب افراح الحزين (١

وكان القيان والمغنون يرددون احياناً في مجالسهم قول يزيد : « ولهـا بالماطرون اذا » ولذلك اقترح ابو نواس هذا الصوت فقال :

غنّني يا ابنَ أذينٍ ولها بالماطرون (٢

ولعل اضمحلال الماطرون كان في اثنـاء القرن السابع للهجرة بعد وفاة محاسن الشوّا الحلبي

٢٢

دير متى

بظاهر دمشق

انفرد عون الدين بن العجمي الكاتب المتوفى سنة ٦٥٦/١٢٥٨ بالاشارة الى هذا الدير وحرّض على زيارته بعد دير مرّان وهو ما يدل على قربـه من دمشق وهذه هي الابيات التي ورد فيها ذكر الديرين من جملة قصيدة له يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين داود الايوبي قال :

يا سائقاً يقطع البيداءَ معتسفاً بضامرٍ لم يكـن في سيره واني
ان جُزتَ بالشام شِمْ تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن دير مران . . .
وعُج على دير متى ثم حيِّ به الر بأن بطرس فالربأن رباني
فهمتُ منه اشارات فهمتُ بها وصنتُ منثورها في طي كتمان (٣

ويظهر ان عون الدين ولد وتوفي بدمشق وكان متأهلاً للوزارة فهو اعرف بديار مدينته وما في برّها وضواحيها ومما يجدر التسآل عنـه هل كان الربان بطرس الذي ذكره رئيسَ الدير في ذلك الوقت وهل في قوله : « الربان رباني » تلميح الى انه درس عليه بعض العلوم ام انه اراد به مجرد المجـاملة او حب

١) عيون التواريخ للكتبي ١٥٨٧ باريس

٢) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢١٢ وقوله : « ولها بالماطرون » اشارة الى بيت معاوية في الفتاة النصرانية السابق الذكر

٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ : ٢٢٥ - ٢٢٦

الجناس؟ ولولا هذه الابيات لجهلنا كل الجهل وجود هـذا الدير وكم للشعراء عندنا من ايادٍ وحسنات في التنبيه على ما اخلّ الكتاب والمؤرخون البلديون بالاشارة اليه او التنويه به من مـآثر البلاد ومصانعها ومغانيها ومتنزهاتها كما يتضح ذلك مما رويناه من اقوالهم وشهاداتهم في كتابنا الديارات النصرانية في الاسلام.

ويصعب تعيين موقع دير متى في ظاهر دمشق لغياب كل اشارة اليه في ما عدا الابيات الآنفة الذكر ولعله هو المعروف اليوم في قرية كفر العواميد شرقي سوق وادي بردى وآثاره هنالك بادية باقية[١]

٢٣
دير مُرّان
في قاسيون

ضُبط اسمه بالإجماع بضم الميم وتشديد الراء « تثنية المُرّ »[٢] قال البكري: «وهناك عقبة المُرّان سميت بذلك لانها تنبت شجرًا طوالًا مستوية تشبه المُرّان. ومَرّان بفتح الميم موضع آخر ولكنه ليس الشام»[٣] وفي كتب اللغة ان المُرّان شجر الرماح والواحدة مرّانة فيكون من ثم اسم الدير أُطلق عليه بعد الفتح لجواره للعقبة المذكورة كما أُطلق اسم دير البُخت على دير ميخائيل بظاهر دمشق لان عبد الملك بن مروان كان ارتبط بقربه بختًا له[٤] ويترتب على هذا القول ان اسم الدير العربي حلّ في الخلافة الاموية محل اسمه القديم في الدولة البيزنطية فما كان يا ترى اسمه الرومي قبل ان ينادي فيه يزيد بن معاوية لاول مرة مشيرًا الى ما لاقاه جيش غزاة العرب امـام خالقيدونية (الغدقدونة) من الامراض والجوع ويقول :

١) منتخبات التواريخ لمحمد اديب آل تقي الدين الحصني ٣ : ١٠٤٩
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٩
٣) معجم ما استعجم طبعة وستنفلد ٣٦٢
٤) الديارات للشابشتي ٩٣

ما ان أُبالي بما لاقت جموعهم بالفذ قدونه من حُسنى ومن موم
اذا انكأت على الانماط مرتفقاً بدير مرّان غدي ام ڪلثوم (١

وقد يتطرق الى الوهم ان اسم مران اصله في السريانيــة « ماران » اي سيدنا عُرف به في ايام الروم لغلبة اللغة الارامية على سكان برّ دمشق وجبالها ومنهم كان على هذا الرأي بُناة الدير ولكن هذا الزعم ليس الا مجرد افتراض وحدس لا يؤيده شيء من الآثار السالفة ولم تتقدم بمثله عادة ولا تقليد لاننا لا نجد بين كل اسماء الديارات التي تُعدّ بالمئين ديرًا واحــدًا دُعي « ماران » كذا مختزلًا مقتطعاً دون تعيين آخر وانما اعتاد الرهبان والنساك ان يتبركوا بنسبة الاديار الى مار فلان وفــلان من الحواريين والشهداء والقديسين والاستشفاع بهم لحماية الاديار فكيف انفرد قاسيون بتسمية شاذّة وكيف لا نجــد اليوم بين كل هذه الآثار السريانية والمصاحف الدينية الحافلة في الخزائن الكبرى في الشرق والغرب مصحفاً واحدًا من تركة دير قاسيون يكون قــد خُطّ فيه بالارامية او حُبس عليه كالمصاحف الأُخر الشاهدة بتغلب السريانية على بعض اديار الملكيين وقــد كان دير مُرّان مشهورًا حتى في الاسلام بصبغتهِ الرومية وانتسابه الى رجال الدولة وكتّاب الخراج وعُمّال الخلافة الاموية كآل سرجون واشياعهم من البيزنطيين او المتأدبين بآداب الروم اللاحقين بهم والمنتمين اليهم ولذلك قال ابن منير الطرابلسي من قصيدة له يذكر فيهــا متنزهات دمشق وضواحيها واعياد الشعانين التي اكثر الشعراء من وصفها وكانوا يعدّونهــا من اكبر المواسم :

وبطّيبني لدار الروم ما شُهِرت بدير مرّان اعياد الشعانين (٢

وقال ايضاً عرقلة الكلبي متشوقاً الى بعض الحانات اللاحقــة بدير مران ومن كان فيها من بنات الروم:

وفي دير مرّان خمّارة من الروم في يوم شنينها
سقتني على وجهها المشتهى ارق واعتق من دينها (٣

١) الكامل لابن الاثير ٣ : ١٨١
٢) تحفة ذوي الالباب للصفدي باريس ٨٣٧ الورقة ٦
٣) خريدة القصر لعماد الدين الكاتب باريس ٣٣٢٩ ص ٣٦

وقد تتبعنا اكثر المخطوطات الملكية السريانية المحفوظة في اشهر الخزائن الشامية والاوروبية فلم نجد بينها سفرًا واحدًا كُتب بمدينة دمشق نفسها او حُبس على احدى بيَعها الملكية وانما معظم ما هنالك مصاحف شتى نُسخت او وُقفت على كنائس القرى كالزبداني وصيدنايا ومعلولا وقارة والنبك ودير عطية وهو يؤيد ما كنا اول من بادر الى اذاعته واثباته من شواهد الصلاة بالارامية في كنائس برّ دمشق الملكية[1] وكل واقف على تاريخ دمشق يعلم ما كان للروم البلديين فيها من النفوذ والجاه والتفوق اذ كان اكثر كتاب السلطان وعمّال الدواوين في الاعم الاغلب منهم في زمن كانت حسبانات الخلافة الاموية ونقودها لا تعرف من اللغات الا الرومية وحدها وما من احد يجهل ايضاً ما كان لآل سرجون بن منصور مستشار معاوية وابنه يزيد من المنزلة والمكانة في الدولة الناشئة وان سليلهم المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي كان من اشد خصوم البِدَع النصرانية واكبر انصار الامانة الكاثوليكية وهو لم يكتب مقالاته ومصنفاته الطائرة الصيت الا باللسان الرومي ولا نعلم انه وُجد له الى اليوم سطر واحد في السريانية او العربية فكيف يُعقل ان امثال هؤلاء الحماة الساهرين على الكنيسة يغفلون لحظة عن شد ازر لغة الدين ويدعَون الطريق واسعة لاحبة لتغلب النبطية عليها وتسلطها على اعظم اديارهم في قاسيون مع معرفتهم ان السريانية كانت وقتئذٍ مطية البِدَع والضلالات ولسان الشِيَع والخوارج ولم تكن تعوزهم رهبان للروم لإسناد دير مران اليهم ومنهم كثيرون كانوا متوزّعين في كنائس دمشق الخاصة كما حكاه ابن عساكر نقلًا عن ابي مسهر قال وقوله حريّ بان يحتفظ به : « اقام بدمشق بعد فتحها اثنا عشر بطريقاً من بطارقة الروم فأُقِرّوا في منازلهم وكان لكل بطريق منهم في منزله كنيسة »[2] ولا يخفى قدر هذه الشهادة الراجحة ومنها يتّبين جلياً غلط الذين يزعمون ان الروم باجمعهم جلوا عن دمشق ولم يبقَ فيها الا سكان البلاد من الاراميين والانباط في حين انه كان يكفي الرومي ان يدفع الجزية ليظل

---

١) تاريخ صيدنايا لنا ص ٢٤ – ٣١

٢) تاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية ١ : ١٧٢ – ١٧٣

وادعـاً مطمئناً في موضعه لا يخشى حيفاً ولا بأساً ولذلك تخلف بدمشق من البيزنطيين واتباعهم كل من كانت مصلحتهُ او مصلحة المدينة تدعوه الى الاقامة وعدم الجلاء. ولنا ايضاً على ذلك شاهد آخر من ابن عساكر لا يُجادل ولا يُمارى وهو ما نقله عن سمرة بن فاتك احد من شهد فتح دمشق قال :« هو الذي تولى قسمة المساكن بين اهلها بعد الفتح... فكان يـترك الرومي في العلو ويترك المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي»[1] اي خصَّص الطبقات العالية من بيوت دمشق للروم الراضخين للجزية الداخلين في الذمة وهـذا القول شاهد صريح بتخلف كل من اراد البقاء من البيزنطيين كالرهبان ورجال الدين والتجار والصناع والأكرة وارباب العقارات من ذوي العلائق فضلًا عن عمَّال الدواوين الذين كان الفاتحون لا يستغنون عنهم وهؤلاء كلهم اصل من اصول الاعاجم المستعربين فى الاسلام وفرع من فروع الكنيسة الملكية وانضم اليهم في مـا بعد جماهير اسرى الروم العديدين في الحروب والنـاقلةُ من المماليك والخدام والفراشين والغلمان والجواري الذين لم يكن يخلو منهم بيت من بيوت الاشراف والمثرين في الاسلام وليس هنا محل الإفاضة في هذا الباب واقامة الحجج على تألف الروم الملكيين من عنصرَي البيزنطيـين والاراميين المتخلقين باخلاق اليونانيين واللاتينيين مدة تناهز عشرة قرون منذ قدم الاسكندر والسلوقيون سنة ٣٣٣ قبل المسيح وخلفهم الرومان والروم الى سقوط دمشق سنة ٦٣٤ وانما استطردنا الى ذكر ما تقدم للتنبيه على امتناع ارامية دير مرّان ولعلنا ابلينا عذرًا في تصوير الواقع وتبديد كل شكٍ ووهم.

ومن الاوهام التي تعرض لمن طالع اخبار قاسيون ان كل مـا جاء باسم الدير من الحوادث والاشعار واوصاف مجالس القصف والشراب كان واقعاً في داخل الدير وازاء مساكن الرهبان وانما هو في الحقيقة كان في المحلة التي نشأت بعد الفتح في جوار الدير ونُسبت اليه لطوافهـا به وكان بعض العرب المحتلين قد أُعجبوا بما رأوه من محاسن بقعته وإشرافها على وادي دمشق وراقهم مـا اجتمع فيها من طيب الهواء وعذوبة الماء فاقتنوا لهم في ما حوله منـازل لهم

[1] تاريخ ابن عساكر ٧ : ٢١

وجنات تألف منها على ترادف الايام ناحية عُرفت بدير مران لوقوعها بقربة منه واتصالها به والارجح ان اتكاء يزيد على الانماط بجنب ام كلثوم كما سبق من لفظه لم يكن وراء اسوار الدير ولكن في قصر له اتخذه ليخلو فيه بمن احب اذا جلس للشراب ونُقل عن عبد الملك بن مروان انه كان « يشتو بالصِّنَّبْرَة من الاردن فاذا انسلخ الشتاء نزل الجابية... فاذا مضت ايام من اذار دخل دمشق فنزل دير مرّان »[١] ومعلوم ما يصحب الخليفة عادة من الحاشية والحَرَم والاتباع والثَّقَل في حلّه وترحاله فيبعد جدًا ان يكون عبد الملك رضي ان ينزل ضيفاً ثقيلاً في كل ربيع على رهبان الدير ان لم يكن ابتنى له جوسقاً في بقعة الدير ولو لم ينصّ على ذلك احد من المؤرخين ولا شك ان ابنه الوليد توفي في هذا القصر وحُمل منه على اعناق الرجال ليدفن في الباب الصغير[٢] كما نقل غير واحد من الاخباريين ومن هنا يتضح غلط ابن الازرق الفارقي الذي زعم انه مات ودفن في دير مرّان[٣] وبعد وفاة الوليد صار هذا القصر الى ابنه عبد العزيز وفيه كان يستقبل ندماءه وشعراءه كما رواه ابو الفرج الاصبهاني عن عبد الرحمن بن سعيد الجرمي قال :

« قدم جرير على عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك وهو نازل بدير مرّان فكنّا نغدو اليه بَكَرًا فيخرج الينا ويجلس في برنس خزّ له لا يكلمنا كلمة حتى يجيء طباخ عبد العزيز اليه بقدح من طلاء مسخّن يفور وبكتلة من سمن كأنها هامة رجل فيخوّضها فيه ثم يدفعه اليه فيأتي عليه ويقبل علينا ويحدّثنا في كل فن وينشدنا لنفسه ولغيره حتى يحضر غداء عبد العزيز فنقوم اليه جميعًا »[٤]

وفي هذا القصر او غيره « شهد عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس عرساً بدير مران لبعض بني مروان »[٥]

وفي دير مرّان ايضاً مات قتيلاً خمارويه بن احمد ابو الجيش بن طولون قال الصفدي : « قتله الخدم في ذي الحجة من السنة (٢٨٢ = ٨٩٦ م) بدير مران

١) الجزء الحادي عشر من تاريخ طبعة غريفزولد سنة ١٨٨٣ ص ٢٠٠

٢) العيون والحدائق طبعة ١٨٧١ ص ١٢ والكامل لابن الاثير ٥ : ٣

٣) تاريخ ميافارقين خزانة بريتيش موزيوم Or. 5803 f° 76b

٤) الاغاني طبعة بولاق ٧ : ٥٥—٥٦

٥) تاريخ ابن عساكر ١٩ : ١١ بدمشق

ظاهر دمشق وهربوا »[1] ولا حاجة الى القول انه لو كان بين الرهبان لما استطاع خدمه ذبحه ولما تمكنوا من الهرب وقد صرّح سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان انه كان « قد بنى قصراً بسفح قاسيون اسفل من دير مران يشرب فيه فدخل تلك الليلة الحمام به فذبحه خدمه »[2] وهو ما يؤيد ما رجّحناه من نزول الخلفاء الامويين في قصور لهم خاصة في قاسيون في جوار دير مرّان في المحلة المشهورة به .

وقد نقلنا في الكلام على دير مار تاودرس تعريف السمعاني دير مرّان بأنه « بقعة نزهة » على باب دمشق اي باب الفراديس واوردنا شهادة ابن الاثير في اقبال اهل دير مران والأَرْزَة وسَطْرا برئاسة حميد بن حبيب النخمي لمبايعة يزيد بن الوليد وكانت الارزة وسطرا قريتين في جوار محلة مران من اشهر متنزهات قاسيون البائدة وهذه شهادة اخرى للمدائني في المعنى نفسه قال : « واقبل حميد بن حبيب اللخمي في اهل دير مرّان والارزة ودخلوا من باب الفراديس »[3] وفي زمان عبد الملك بن مروان « كان الحارث الكذاب من اهل دمشق . . . وكان يريهم الاعاجيب . . . وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أريكم الليلة فيخرجهم الى دير مران فيريهم رجالاً على خيل فتبعه بشر كثير . . . فامر عبد الملك بطلبه »[4] ولما مات المعتصم سنة ٢٢٧ / ٨٤٢ « ثارت القيسية بدمشق وعاثوا وافسدوا وحصروا اميرهم فبعث الواثق اليهم رجاء بن ايوب الحضاري وكانوا معسكرين بمرج راهط فنزل رجاء بدير مران ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا فواعدهم الحرب بدومة »[5]

ومن هذه الشواهد يتضح جلياً ان اسم دير مران كان يطلق قديماً على العُمر نفسه اي جماعة قلالي الرهبان وعلى ناحية محدقة به حافلة بالغُرف والجواسق والقصور والجنان والحدائق كان ينتابها الخلفاء والامراء والمتنزهون والشعراء

١) الثامن من الوافي بالوفيات للصفدي . باريس ٢٠٦٤ ص ٣٥

٢) الثاني من النجوم الزاهرة باريس ١٧٧٤ ص ١٩ وتاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٥٤

٣) العيون والحدائق ١٣٧

٤) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٦٦ – ٦٦٧

٥) الكامل لابن الاثير ٦ : ١٧٩

وعشاق الخور النصرانية مأهولة بادبابها من اهل دمشق والغوطة والغرباء. وقد مرَّ بنا في جملة هذه الادلة التي نقلنا لفظها بضعة حوادث يخال قارئها لاول وهلة انها حدثت في العمر نفسه وانما هي صدى من احداث محلة مران فلا بد اذن من التروي في النصوص والاستدلال من قرائن الاحوال لردّ كل خبر الى نصابه ونسبتهِ الى موقعه الحقيقي .

ولا يُعلم بالضبط متى تم خراب الدير نفسه ولكن يترجح ان كل ما روي فيه من الاخبار والاشعار بعد القرن الخامس والسادس يجب ان يعزى بالاحرى الى محلة مران ويظهر ان اثار الدير بقيت شاخصة الى ما بعد القرن الحادي عشر كما يستفاد من ابيات لعبد الرحمن بن حمزة رواها المحبي[1]

وقد اتفق كل المؤرخين والبلدانيين والشعراء على وصف الدير بالنزاهة والنضارة وحسن الموقع وطيب المُطَلّ لامتداد النظر منه الى حدائق دمشق ورياضها وسهولها وانهارها ونصّوا خصوصاً على مزارع الزعفران تحته[2] وهي ولا شك كانت لاحقة بالدير لتخصّص الرهبان قديماً بزراعة الزعفران لشدة الطلب عليه في الاسواق ودخوله في الطيوب والاصباغ والمآكل كما نبهنا على ذلك في فصل عقدناه له في كتابنا « الديارات النصرانية في الاسلام »(ص٥٠—٥٧) ولما تقوض الدير ودرست آثاره بقيت شهرة ناحيتهِ بالحسن والبهاء متصلة مشهوداً بها في اجلّ متنزهات دمشق ولا غرو فان مرأى دمشق من تلعة قاسيون من المشاهد الخلّابة التي تفعم الصدر حبورًا والعين بهجة ونورًا ويقلّ جدًا وجود نظائر لها في الامصار الشرقية ويكفي تلاوة ما خطّه قلم لامرتين الشاعر الفرنسي الطائر الصيت في وصف قاسيون[3] ومُستشرَفه على الغوطة والمدينة معاً للوقوف على شدة إعجاب الغربيين بمنظر من افتن مناظر دمشق:

بحيثُ هواء الغوطتين معطَّر النسيم بانفاس الرياحين والزهر

ولا سبيل اليوم لمعرفة شيء من وصف بناء الاديار قديماً وتخطيطها وما

١) خلاصة الاثر للمحبي ٢ : ٣٢٣

٢) معجم ما استعجم للبكري ٣٦٢ ومعجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٦٩

٣) Oeuvres Complètes de M. A. de Lamartine T. VI. Paris 1850 p. 49-50, 74

كانت تشتمل عليه عادة من المعابد والهياكل وقلاليّ الرهبان وحُجر الضيوف وبيوت الموائد ومستودعات المؤن والاشربة والغلال والمطاحن والافران والحدائق والخانات وسائر ما يلحق بالبيَع والاعمار فلا ندري من ثم من وصف دير مران سوى ما ذكره الخالدي من ان « بناءه كان بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملوّن وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به»[1] وزاد العمري على هذه الرواية « ان قلاليه دائرة به واشجاره متراكبة وماءه يتدفق»[2] ويؤخذ من حكاية البّغاء الشاعر الآتية ان بعض قلاليه كانت غاية في التنوّق والزخرفة والاعتناء. ونعت بيتاً منها دخلهُ بانه كان « فضيّ الحيطان رخامي الاركان يضمّ طارمة خيش»[3] وهو ما ينبئ عن غنى الدير واتساعه وحسنه وجلالته واتقان تشييده وكان الى جانبه دار للضيوف ينزلها من شاء من العابرين وابناء السبيل والمتنزهين واللاجئين الى الدير للاستشفاء او الاختفاء عن الغرماء. قال سعيد بن بطريق « ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلون فيها ويسكنون فيها »[4] ولما كان الدير كما قال البغاء « مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر » كان عدد الطارئين عليه او المتطرّحين فيه غير قليل ووصف البغاء ليلته فيه فقال : « اقبل الليل فطلع القمر فتُتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدّى الينا محاسن الغوطة وحبانا بذخائر رياضها من المنظر الجنانيّ والنسيم العطري » ومع ذلك فلم ينتهِ الينا من مدائح الشعراء له الا النزر النادر جدًا بالنسبة الى ما رُوي من الخمريات والغزليات التي قيلت في ديارات العراق مثلًا .

ولعل ذلك كان لأن اكثر مزروعات دير مران كانت من الرياحين والازهار وخصوصاً الزعفران ومن الاشجار وقليلًا بينها الكروم والاعناب كما هو الحال اليوم في حدائق الصالحية المعروفة بالحواكير فلذلك لم يتغنَّ الشعراء كثيرًا بدير لم يشتهر بخموره شهرته بطيب موقعه ورياضه ولا سيا لغنائهم عنه

١) معجم البلدان ٢ : ٦٩٩

٢) مسالك الابصار ٣٥٣

٣) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ١٧٧

٤) تاريخه طبعة بيروت ٤٦

بما اجتمع لهم من اسباب التنزه واللهو في المغاني المجاورة له مثل سطرا ومُقرا وبيت لهيا والنيرب من القرى البائدة وهذا ما وقفنا عليـــه من اقوال الشعراء الذين مرّوا به او ضافوا به قال الببغاء :

يا صباحا بدير مران راقا ... هيجت منا القلوب والاحداقا
ومشت نسمة نؤمك حتى ... رفعت بالعبير فيك رواقـا
واتينا اليـك نقطع ارضـاً ... ملأتنا الى اللقـا اشواقـا
وسمعنا الطيور تصدح زهوا ... حيث سكران طيبها ما افاقا
وصبا قاسيون تنفح فينـا ... سكبت من هبوبهـا رقراقا
فجلسنا في مجلس مستطـاب ... فيه كأس السرور كان دهاقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى ... قلبنا لم يزل لـه مشتاقا

ولابن ابي جبلة الدمشقي من قصيدة :

يا دير مران ما لي عنك مصطبر ... وفي فنائك احسان واكرام
عمر بـه للصبا واللهو معتمر ... وللصبابة اجـلال واعظام
تسحّبت فيه اذيال السحاب فقد ... تفتحت عن جنيّ الورد اكمام
وللحمائم إفصاح يذكّرنا ... احبابنا ولنـا بالسكر إعجام
دير نعمتُ زمانا في مسارحه ... كأن ايامه في الحسن اعلام
شمامسه هـو وزّان ومنتقد ... وقسّه هو خمّار وكرّام (١
فيه جنيت ثمار اللهو عن طرب ... وصاحبا رحليّ الابريق والجام
اشتاقه شوق صبّ لا يفارقه ... فكل يوم لنا في الدير إلمام
يا دير لا فارقتك الساريات لها ... على ثرى ربعك الفيّاح الـهام (٢

١) تاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٩ : ١٢٤

روى ابن عساكر هذه القصيدة بزيادة خمسة ابيات بعد البيت الخامس وذكر في عجزه « معاراته » بدلاً من « قسّه » وهذه هي الزيادة في وصف العنب الاسود والحمرة قرأها في كتاب الديرة للسميساطي :

كأنما بينه من رحمة وهوى ... وبين معترشات الكرم ارحام
حتى اذا الكرم امسى عنده سبجاً ... وكان درا ولم ينظمه نظام
غدا وراح له من دونه خلف ... وبين منظومه نقض وابرام
وظل يبطل في بيع امانته ... فهن بين عدات يومها عام
وجاة خطابها الاكفاء فاجتليت ... حسنا وليس لها عاب ولا ذام

٢) مجلد فيه مختارات من الاعلاق الخطيرة لابن شداد خزانة ليدن Arab. 1466 f° 63

ولابي بكر الصنوبري من قصيدة :

امرُ بدير مران فاحيا واجعل بيت لهوي بيت لهيا
ويبرد غلّتي بردى فسقيا لايام على بردى ورعيا
ولي بباب جيرون ظباء أعاطيها الهوى ظبيا فظبيا
ونعم الدار داريا ففيها حلا لي العيش حتى صار أريا(١

وله ايضاً :

متى الأرحُل محطوطه وعَير الشوق مربوطه
بـاعلى دير مران فداريا الى النوطه
فشطّي بردى في جنـ ـب بُسط الروض مبسوطه
رباع غبط الاخضـا رُ منها خير مهبوطه
وروض احسنت تكتيـ ـبه المزن وتنقيطه
ومدّ الورد والآس لنا فيه فساطيطه
ووالى طيره ترجيـ ـعه فيه وتمطيطه
محل لا وَنَتْ فيه مزاد المزن ممطوطه(٢

ولكشاجم عدة قصائد ومقطعات في الدير اشهرها قصيدة في مديح الدير ورهبانه وتنسب ايضاً الى ابي بكر الخالدي ولعلها من الابيات التي دسّها السري الرفاء في ديوانه:

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي(٣ وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اقمت فيه الى ان صار هيكله بيتي ومفتاحه للانس مفتاحي
منادماً من قلاليه رهابنة راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل ابدان بمعرفة منهم لخفة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الاداب فلسفة وحكمة بعلوم ذات اوضاح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي نحو المبرّد اشعار الطرمّاح
ومنشد حين يبدها البزال لنا « ألمع برق سرى ام ضوء مصباح

١) معجم البلدان ٢ : ٦٦٦

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٦

٣) في الاصل « وتصباحي » وفي رواية اخرى « وتسباحي » ولم يرد مصدر تصباح او تسباح في اللغة كقولهم تجواب او تجوال وما نظن الاصل الا « مسباحي » بلفظ الآلة بمعنى مسبحة مقابلة لقوله في الشطر الثاني مصباحي .

اخلقت في العمر عمري حين راح الى — غير البطالة قلبي غير مرتاح
ما نور احداقنا الا حدائقه — لام اللوائم فيها او لحى اللاحي
بُسط البنفسج والمنثور تبسط في — صحون آس وخَيريات تفاح
بدائع لا لدير الملك هنّ ولا — لدير حنّة من ذات الأكيراح
فكم حننت الى حاناته وغدا — صوتي يكاثر اصواتاً باقداح
حتى تخمر خمّاري بمعرفتي — وحيرت مُلحي في السكر ملّاحي
يا دير مران لا تعدم ضحى ودجى — سجال كل ملثّ الودق سحّاح
ان تُغنِ كأسك اكياسي فان بها — يفل جيشَ همومي جيشُ افراحي
وان أُقم سوق اطرابي فلا عجب — هذا بذاك اذا ما قام نوّاحي[1]

وله ايضاً :

هل احد . نال لذتنا — بدير مران ليلة الاحد
يا طيب يومي به وامسي ويا — حسن غدي بعده وبعد غد
جداول فوق جدول صخب — وبانة تحت طائر فرد[2]

وله ايضاً :

لا تُغنِ عمر الزمان الا — ما بين قلاية وعُمر
يا دير مران كم غزال — فيك وكم جنة وزهر
فكم تعاريت مستهاما — اليك اذ عيل فيك صبري
وفي يميني شمال شمس — وفي شمالي يمين بدر[3]

وله كذلك :

سقيا لليل قصّرت مدته — بدير مران مر مشكورا
يوم اتيناه زائرين فما — دفنا به روضة وماخورا
وبات بدر الدجى يشمشمها — نورية تملأ الدجى نورا
غارت على نفسها وقد سفرت — فعاد جيب الحَباب مزرورا
حتى رأيت الظلام يدرجه الغر — ب وندرج الصباح منشورا
فاختلط الليل والنهار كما — تخالط كفّ مسكا وكافورا[4]

---

١) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٣٦-٣٧ ويتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ٥١٢

٢) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٥٦

٣) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٨٥ – ٨٦ وتاريخ ابن عساكر بالظاهرية ١٦ : ١٤٤ ظهر

٤) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٨٧ وزهر الاداب للحصري بهامش العقد الفريد ٣ : ٥١ وبين الديوان وزهر الاداب نقص وزيادة واختلاف في الرواية.

ولمحاسن الشوّا الحلبي يذكر مستنزهات دمشق :

عاطياني حديث سطرا ومقرا وابسطا لي في هجري الكأس عذرا
انا مالي وشرب كاسات خمر شغلتني عنهنّ كأسات ذكرى
كم نعمنا في بيت لهيا باهو وعلونا بالقصر والسهم قصرا
ومررنا بدير مران نشدو فيه نظما وتسجع الورق نثرا[1]

وروى البكري والعمري وغيرهما ابياتاً للحسين بن الضحاك ذكروا انه قالها للرشيد في دير مران واولها فيما زعموا :

يا دير مران لا عُرّيت من سكن قد هجتَ لي حزنا يا دير مرانا

والصواب يا دير مِديانا بالدال والياء. وهو دير على نهر كرخايا قرب بغداد[2] ومن العجب ان العمري استشهد ببعض هذه الابيات في كلامه على الديرين باسم كل منهما دون ان ينتبه الى ما في احدهما من التحريف وما في استشهاده بها في الموضعين من الذهول والتناقض.

وقد تقدم قول سعيد بن بطريق ان دير مران كان المسلمون ينزلونه ويسكنون فيه وهذا القول ينطبق ايضاً على سائر الديارات في الاسلام ولذلك كان في اكثرها دور او حُجر للضيافة بمعزل عن القلالي وغالب من ينتابها قوم من المتنزهين عشاق المدام . واحياناً من المرضى المنتجعين للعافية لان الرهبان كانوا يحسنون طب النفوس وطب الاجساد وقد وصفهم الخالدي بالتفوق في « الفلسفة والحكمة وطب بقراط » ويظهر ان بين المصابين اللاجئين الى الدير بعض الموسوسين والمجانين وقد نقل العمري حكاية عن المبرّد قال فيها : « وافيت الشام وانا حدث في جماعة احداث لاكتب الحديث والقى اهل القلم فاجتزت بدير مران فاحببت النظر اليه فصعدناه فرأيت منظرًا حسناً واذا في بعض بيوته كهل مشدود حسن الوجه عليه اثر النعمة فدنونا منه وسلمنا عليه فردّ السلام» وانشد ابياتاً في البكاء من الفراق والحنين الى الاحبة قال في آخرها :

اني على العهد لم انقض مودتهم فليت شعري لطول العهد ما فعلوا

قال المبرّد فقال له فتى من المجّان الذين كانوا معي : ماتوا فقال : فأموت ؟

---

١) الثالث من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس ٦٦

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٥

فقال له : مُتْ فتمطّى وتمدّد وما برحنا حتى دفناه »[1] ولم يذكر العمري عمن نقل هذه الحكاية كعادته في كل ما يرويه وساقها النويري بالفاظ أخر وحكى انه خرج وجماعة من اصحابه مع المأمون ومرّ بهم بدير كبير في الرقة وسرد بقية القصة بالمعنى نفسه[2] ورواها ايضاً الخالدي في دير هِزقل بين البصرة وعسكر مكرم[3] وهو كافٍ لاثبات ان الحكاية من الاقاصيص الموضوعة للهو والسمر وهي متناقضة فلا يُلتفت اليها ولكن روى ابن عساكر قصة رابعة لا يبعد ان تكون وقعت حقاً اسندها الى ابي عثمان النصيبي من اهل التصوف قال :

« كنت سائحاً ببلاد دمشق وعلي خرقتان واحدة في وسطي واخرى على كتفي فانتهيت الى دير مران والثلج يسقط مثل الورق فاطّلع الي راهب من غرفة وقد لويت عن باب الدير فقال : بحق من خرجت من اجله الّا عدلت الى الدير فرجعت نحو باب الدير فاستقبلني منه واخذ بيدي وصعدنا الى غرفة حسنة الآلة فاقمت عنده ثلاثاً في حسن عشرة فاستحسنته فقلت يا راهب اراك عاقلاً فكيف اقمت على النصرانية فقال : قد قرأت المسطور يعني القرآن ولو قُضي شيء لكان وهممت بالسير فرام وقوفي فقلت : قال نبينا صلوات الله عليه وسلامه للضيف ثلاثة فما زاد فهو صدقة فقال : صدق نبيكم ولكن من الضيف على صاحب البيت فقلت اراك اديباً أسألك عن شيء فقال : قل فقلت : ما صفة المحبة فقال : المحبة لا صفة لها ولكن ان اردتَ اصف لك شيئاً من ادب المحبة فقلت : قل قال : ادناه ان لا يزيد بالبرّ ولا ينقص بالجفا ونهضت فقام معي ونزلنا الى صحن الدير واذا باب مردوم. فقال لي : ادفعه فدفعت الباب واذا شاب حسن الثياب في عنقه سلسلة مشدودة الى السقف تمنعه من الجلوس فقلت ما هذا فقال كلّمه فقلت ما اسمك يا فتى ؟ فقال عبد المسيح فقلت ما وقوفك ههنا ؟ فقال عبد المسيح فقلت اما تؤلمك السلسلة ؟ فقال عبد المسيح فالتفت الى الراهب فقلت ما هذا ؟ فقال : هذا العيان وذاك الخبر او كما قال »[4]

ومن انكد حظوظ الديارات النصرانية واسوإها مغبّة واثراً الشروط المشترطة على الرهبان في الاسلام بضيافة كل مجتاز بهم من المارّة وابناء السبيل[5] دون ان يكون لهم اقل حق في التمييز بين الاشراف والسفلة فكانت

١) مسالك الابصار ٣٥٣ – ٣٥٤

٢) نهاية الارب ٢ : ١٦٠ – ١٦١

٣) معجم البلدان ٢ : ٧٠٦ – ٧٠٧

٤) مجلد من مختصر تاريخ ابن عساكر لابن ابي شامة ، باريس ٢١٣٧ ص ١٩٤

٥) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف ١٦٥

مساكنهم من ثم وخَلَواتهم في نظر العابرين والمسافرين كالخانات والحانات ينزلها الاصحّا. المغرمون بالقصف والشراب والاعلاء المبتلون بالعاهات والاسقام وربما كان بينهم المفاليس الذين قعدت بهم حالهم عن اداء ما وجب عليهم من بقايا الضمانات السلطانية او ديون لزمتهم للغرماء فكانوا يؤثرون حبس نفوسهم في الاديار في ضيافة الرهبان بدلًا من التعرض لاخطار احكام القضاء والاعتقال في مضيق السجون وذلك ريثما يتسع الوقت لاهلهم واصحابهم لتسوية امرهم وحط بعض المال عنهم ومن اغرب ما روي في هذا الصدد وابلغه رقة وظرفًا ما حكاه بلفظه الببغاء شاعر سيف الدولة وقد اتفق لهُ مرة بدمشق ان عاشر في الدير احد هؤلاء الهاربين من وجه السلطان من ابناء المادرائيين بيت رئاسة ووزارة ووصف ليلة قضاها معه ذكر فيها لقاءه له في الخفاء في « بيت فضي الحيطان رخاميّ الاركان » وشرح بافصح عبارة منادمته له ومبيته عنده شرحًا تتمثل من خلاله حياة هؤلاء الاضياف الذين أباحت لهم عزّة السلطان وذلّة الرهبان التبسّط وعدم الانقباض في جوار المصلّيات والمعابد عن كل ما تطالبهم به النفس من الملاذ والشهوات وهذا اهم ما خطه قلم الببغاء برواية الثعالبي قال الثعالبي: « لم اسمع اظرف من حكايته في فنها ولا الطف ولا اعذب ولا اخف وان كان فيها بعض الطول والبديع غير مملول ». قال ابو الفرج :

« تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرهًا وقد سار عنها في بعض وقائعه وكان الخطر شديدًا على من اراد اللحاق به من اصحابه حتى ان ذلك كان مؤديًا الى النهب وطول الاعتقال واضطررت الى اعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من جا من رؤساء الدولة الاخشيدية وكان سنّي في ذلك الوقت عشرين سنة وكان انقطاعي منهم الى ابي بكر علي بن صالح الروزباري لتقدمه في الرئاسة ومكانه من الفضل والصناعة فاحسن تقبلي وبالغ في الاحسان بي وحصلت تحت الضرورة في المقام فتوفر علي قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطرفة تسليًا وتعلّلًا فلما كان بعض الايام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر فاستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه اخذنا في شأننا وقد كنت اخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع وسجاحة الخلق حسباجرى به الرسم في غشيان الاعمار وطروق الديرة من التطرف بشرة اهلها والانسة بسكانها ولم تزل الاقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة الى ان فضّ اللهو ختامه ولوّح السكر لصحبي اعلامه وحانت مني نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابي متوثبًا ولنظري اليه مترقبًا فلما اخذته عيني اكبّ يزعجني بخفي

الغمز ووحيّ الايماء فاستوحشت لذلك وانكرته ونهضت عجلًا واستحضرته فاخرج الي رقعة مختومة وقال لي : قد لزمك فرض الامانة فيما تتضمنه هذه الرقعة ووني وسقط ذمام كاتبها في سترها بك عني ففضضتها فاذا فيها باحسن خط واملحهِ واقرإهِ واوضحه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

لم ازل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاي بين حزم يحثّ على الانقباض عنك وحسن ظن يحضّ على التسامح بنفاس الحظ منك الى ان استنزلتني الرغبة فيك على حكم الثقة بك من غير خبرة ورفعت بيني وبينك سُجُف الحشمة فأطمت بالانبساط اوامر الأنسة وانتهزت في التوصل الى مودتك فأتت الفرصة والمُستاح منك – جعلني الله فداك – زورة ارتجع بها ما اغتصبتنيه الايام من المسرة مهنأة بالانفراد الا من غلامك الذي هو مادة مسرتك « وما ذاك عن خلق يضيق بطارق » ولكن لاخذي بالاحتياط على حالي فان صادف ما خطبته منك ايدك الله قبولًا ولديك تلاقًا فُتْنية غفل الدهر عنها او فارق مذهبه في ما اهداه الي منها وان جرى على رسمهِ في المضايقة في ما أُوثره واهواه وارتقبه من قربك والغناه فذمام المروّة يلزمك ردّ هذه الرقعة وسترها وتناسيها واطّراح ذكرها »

واذا بابيات تتلو الخطاب وهي :

يا عامر العُمر بالفتوة والقصف وحث الكؤوس والطربِ
هل لك في صاحب تناسب في الـ غربة اخلاقُهُ وبالادبِ
اوحشه الدهر فاستراح الى قربك مستنصرًا على النُوَبِ
فان تقبلت ما اتاك به لم تَشِنِ الظن فيه بالكذبِ
وان أبى الزهد دون رغبتنا فكن كمن لم يقُل ولم يُجِبِ

قال ابو الفرج : فاتى علي ما حيرني واسترد ما كان الشراب حازه من تمييزي وحصل لي في الجملة ان اغلب الاوصاف على صاحبها الكتابة خطًا وترسلًا ونظمًا فشاهدته بالفراسة من الفاظه وحمدت اخلاقه قبل الاختبار من رقعتهِ وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه فقال : اما ذكر حاله فاليه اذا اجتمعتما واما السبيل الى لقائه فتسهّل ان شئت قلت : دُلّني قال : نظهر فتورًا وتنصب عذرًا تفارق به اصحابك منصرفًا واذا حصلت بباب الدير عدلت بك الى باب خفيّ تدخل منه فرددت الرقعة عليه وقلت : ارفعها اليه اكد انسه بي وسكونه الي وعرّفه ان التوفر على إعمال الحيلة في المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد اولى من التشاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته ومضى الراهب وعدت الى اصحابي بغير النشاط الذي نهضت به فانكروا ذلك فاعتذرت اليهم بشيء عرض لي واستدعيت ما اركبه وتقدمت الى من كان معي ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم وقد كنا عملنا على المبيت فاجمعوا على تعجل السكر والانصراف وخرجت من بـاب الدير ومعي صبي كنت آنس به وبخدمته وتقدمت الى الشاكري برد الدابة وستر خبري ومباكرتي وتلقاني الراهب وعدل بي الى طريق في مضيق وادخلني الى الدير من باب غامض وصار بي الى باب قلاية متميز عما يجاوره من الابواب نظافة وحسنًا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة فابتدرنا منه غلام كأن

البدر رُكّب على ازراره . . . ثم اجفل كالظبي المذعور وتلونهُ والراهب الى صحن القلاية فاذا انا ببيت فضي الحيطان رخامي الاركان يضم طارمة خيش بحصير مستعمل فوثب الينا منه فتى مقتبل الشبيبة حسن الصورة ظاهر النبل والهيئة مُثرٍ من اللباس بزيّ غلامهِ فلقيني حافياً يعثر بسراويله واعتنقني ثم قال : انا استخدمت هذا الغلام في تلقيك يا سيدي لاجل ما لملك استحسنته من وجهه مصاناً عما ترد عليه من مشاهدتي فاستحسنت اختصاره الطريق الى بسطي وارتجاله النادرة على نفسه حرصاً في تأنيسي وافاض في شكري على المسارعة الى امره وانا اواصل في خلال سكناته المبالغة في الاعتداد به ثم قال يا سيدي انت مكدود بمن كان معك والاستمتاع بمحادثتك لا يتم الا بالتوصل الى راحتك وقد كان الامر على ما ذكر فاستلقيت يسيراً ثم نهضت فخُدمت في حالتي النوم واليقظة الخدمة التي ألفتُها في دور اكابر الملوك واجلّة الرؤساء .

واحضرنا خادم له لم ارَ احسن منه وجهاً ولا سواداً طبَقاً يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف فقال : الأكل مني يا سيدي للحاجة ومنك للمالحة والمساعدة فنلْنا شيئاً واقبل الليل فطلع القمر ففُتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدّى الينا محاسن الغوطة وحبانا بذخائر رياضها من المنظر الجناني والنسيم العطري وجاءنا الراهب من الاشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ثم اقتعدنا غارب اللذة وجرينا في ميدان المفاوضة فلم يزل يناهبني نوادر الاخبار ومُلح الاشعار ويخلط ذلك من المزح باظرفه ومن التودد بالطفه الى ان توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له :

يا مُقترَف ان مولاك ما ادّخر عنا السرور بحضوره وما يجب ان ندخر ممكناً في مسرته فامتقع وجه الغلام حياءً وخفراً فاقسم عليه بحياته وانا لا اعلم ما يريد ومضى فعاد يحمل طنبوراً وجلس فقال لي : يا سيدي تأذن لي في خدمتك ؟ فهممت بتقبيل يده لما تداخلني من عظم المسرة بذلك فاصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكي وهو ملكي وسالي ثوب نسكي
تَرّه يقين الهوى فيـ لك عن تعرّض شك
لولاك ما كنت أبكي الى الصباح وأبكي

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت ان الشعر له فكدت والله اطير طرباً وفرحاً بملاحة خلقه وجودة ضربه وعذوبة الفاظه وتكامل حسنه فاستدعيت كيزاناً فاحضرنا الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سروراً بوجهه وشرب بمثل ما شربت ثم قال لي : انا والله احب ترفيهك وان لا اقطعك عما انت متوفر عليه ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد ان تشيَ ليلتنا بشيء يكون لها طرازاً ولذكرها معلماً فجذبت الدواة وكتبت ارتجالاً وقد اخذ الشراب مني :

وليلة اوسعتني حسناً ولهواً وانسا
ما زلت اللثم بدرا بها واشرب شمسا
اذ اطلع الدير سعدا لم يبقِ مذ بان نحسا
فصار للروح مني روحاً وللنفس نفسا

فطرب على قولي « الثم بدرا واشرب شمسا » وجذب غلامه فقبّله وقال : ما جهلت ما يجب لك يا سيدي من التوقير وانما اعتمدت تصديقك في ما ذكرته فبحياتي الا فعلت مثل ذلك بغلامك فانبعت ايثاره خوفًا من احتشامه واخذ الابيات وجعل يرددها ثم اخذ الدواة وكتب اجازة لها :

ولم اكن لغريبي والله ابذل فلسا
لو ارتضى لي خصمي بدير مران حبسا

فقلت اذًا والله ما كان احد يؤدي حقًا ولا باطلًا وداعبته في هذا المعنى بما حضر وعرفت في الجملة انه مستتر من دين قد ركبه وقال لي : قد خرج لك اكثر الحديث فان عذرت والا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها فتبينت ما يؤثره من كتمان امره فقلت له : يا سيدي كل ما لا يتعرف بك نكرة وقد اغنت المشاهدة عن الاعتذار ونابت الخبرة عن الاستخبار وجعل يشرب وينخب علي من غير اكراه ولا حثّ ولا استبطاء الى ان رأيت الشراب قد دبّ فيه واكبّ على مجاذبة غلامه والفطنة تثنيه في الوقت بعد الوقت فاظهرت السكر وحاولت النوم وجاء الغلام ببردعة ففرشها لي بازاء بردعته فنهضت اليها وقام يتفقد امري بنفسه فقلت له ان لي مذهبًا في تقريب غلامي مني واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذا الحال في غلامه فتبسم وقال لي بسكره : قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لي بك واظهرت النوم . . . وغلبتني عيناي الى ان ايقظني هواء السحر . . . فاردت توديعه وحاذرت إنباهه وازعاجه فخرجت ولقيني الخادم يريد ايقاظه وتعريفه انصرافي فاقسمت عليه ان لا يفعل ووجدت غلامي قد بكر بما اركبه كما كنت امرته فركبت منصرفًا وعاملًا على العود اليه والتوفر على مواصلته واخذ الحظ من معاشرته ومتوهمًا ان ما كنت فيه منام لطيبه وقرب اوله من آخره واعترضتني اسباب أدّت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على اتم حسرة لما فاتني من معاودة لقائه وقلت في ذلك :

ويوم كأن الدهر ساعني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه افراس الصبابا بارتياحنا الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطَّر النسيم بانفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالفيض يجري الى نهر
وفي الهيكل المعمور منه اقترعتها وصحبي حلالا بعد توفية المهر
وتزّهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها اشرب التبر بالتبر
وحلّ لنا ما كان منها محرّما وهل يُحظر المحظور في بلد الكفر
فاهدت لي الايام فيه مودة دعتنيَ في ستر فلبّيت في ستر
الى من شريف الطبع اصدق رغبة تخاطبني عن معدن النظم والنثر
وكان جوابي طاعة لا مقالة ومن ذا الذي لا يستجيب الى اليسر
فلاقيت ملء العين نبلا وهمة على السجايا بالطلاقة والبشر
واحشمني بالبر حتى ظننته يريد اختداعي من حياتي ولا ادري
وتزّه عن غير الصفاء اجتماعنا فكنت واياه كقلبين في صدر

وشاء السرور ان يلينا بثالث فلاطفنا بالبدر او بأخي البدر
يعطي عيونٍ ما اشتهت من جماله ومُضني قلوبٍ بالتجنب والهجر
جنينا جنيّ الورد في غير وقته وزهر الربى من روض خديه والثغر
وقابلنا من وجهه وشرابه بشمسين في جُنحي دجى الليل والشَّعر
وغنّى فصار السمع كالطرف آخذاً باوفر حظ من محاسنه الزهر
وامتعنا من وجنتيه بمثل ما تمزّج كفّاه من الماء والخمر
سرور شكرنا منّة الصحو اذ دعا اليه ولم نشكر به منّة السكر
كأن الليالي غِرنَ عنه فعندما تنبّهن نكّبن الوفاء الى الغدر
مضى وكأني كنت فيه مُهَوَّماً يحدّث عن طيف الخيال الذي يسري
وهل يحصل الانسان من كل ما به تساعده الايام الا على الذكر

ولم ازل على اتم قلق واعظم حسرة واشد تأسف على ما سُلبته من فراق الفتى لا سيما ولم احصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبر يؤدياني الى الطمع في لقائه الى ان عاد سيف الدولة وانا في جملته فما بدأت بشيء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الي مرعوباً وهو لا يعرف السبب فلما رآني استطار فرحاً واقسم ان لا يخاطبني الا بعد النزول والمقام عنده يومي ذلك ففعلت فلما جلسنا للمحادثة قال لي : ما لي لا اراك تسأل عن صديقك قلت : والله ما لي فكر ينصرف عنه ولا اسف يتجاوز ما حُرمته منه ولا سررت بعودي الى هذه البلدة لا من اجله ولذلك بدأت بقصدك فاذكر لي خبره فقال لي : اما الآن فنعم هذا فتى من المادرائيين جليل القدر عظيم النعمة كان ضَمِنَ من سلطانه بمصر ضياعاً بمال كثير فخاس به ضمانه لقعود السعر واشرف على الخروج من نعمته فاستتر ولما اشتد البحث عنه خرج متخفياً الى ان ورد دمشق بزي تاجر فكان استتاره عند بعض اخوانه ممن اخدمه فاني عنده يوماً اذ ظهر لي وقال لصديقه اني اريد الانتقال الى هذا الراهب ان كان علي مأموناً فذكر له صديقه مذهبي واظهرت السرور بما رغب فيه من الانس بي . وانا لا اعرفه غير ان صديقي قد امرني بخدمته وحصل في قلايتي فواصل الصوم فلما كان بعد ايام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفاتج وعليهما ثياب رثّة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حلّ الفطر وجاء العيد ووثب اليه فاعتنقه وجعل يقبّل عينيه ويبكي ووقف على السفاتج فانفذها مع درج رقعة منه الى صديقه فلما كان بعد يومين حمل اليه الفي دينار وقال له : ابتع لنا ما نستخدمه في هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشاً ولم يزل مكبّاً على ما رأيت الى ان ورد اليه بالبغال والآلات الحسنة وكتب اهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم اياه بالحال في بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يُطالب به والتوقيع بحطيطة المال عنه مقترن بالكتب فلما عمل على المسير قال لغلامه سلّم ما بقي معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه في مصالح الدير الى ان نواصل تفقده من مستقرنا وسار وما له حسرة غيرك ولا اسف الا عليك يقطع الاوقات بذكرك ولا يشرب الا على ما يغنّيه الغلام من شعرك وهو الآن بمصر على افضل الاحوال واجلّها ما يبخل بتفقدي ولا يُغبّ برّي فتعجلت

بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره واقمت يومي عند الراهب وكان آخر العهد به(١ .

ولا يخفى على احد ان الرهبان الذين كانوا يخالطون الزوار والاضياف ويتولّون تفقدهم وقضاء حاجاتهم كانوا في الاعم الاغلب من الشمامسة المرصدين لخدمة الدير والسعي في مصالحهِ بينما كان الرهبان القسوس معتزلين في قلاليهم منقطعين الى اشغالهم عاكفين على التلاوة والعبادة واستثمار ما لديهم من الحدائق وقد اطنب كشاجم الشاعر المشهور في وصف رهبان دير مران عامة بحسن الُخلق ورقة الطباع ومتانة الدين واخلاص التقوى واشار الى تضلعهم من علوم الفلسفة والحكمة والطب والالحان والنحو والشعر وقال من قصيدة تقدم الاستشهاد ببعض ابياتها :

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي ... وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
انأت فيه الى ان صار هيكله ... بيتي ومفتاحه للحسن مفتاحي
منادماً في قلاليه رهابنةً ... راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل اديان ومعرفة ... فيهم بخفة ابدان وارواح
وشحوا غرر الآداب فلسفة ... وحكمة بعلوم ذات ايضاح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي ... نحو المبرّد اشعار الطرمّاح(٢

وناهيك بمثل هذا المديح من احد مؤرخيهم العارفين بهم للدلالة على ما تحلّوا به من الفضل والفضيلة والنزاهة عن ملابسة العار والبعد عن كل ريبة .

ويظهر انه كان الى جانب دير الرهبان بنيّة خاصة بالراهبات وهو ما يتحصّل من قول عون الدين بن العجمي من قصيدة له في مدح الملك الناصر صلاح الدين داود الايوبي :

يا سائقا يقطع البيداء معتسفاً ... بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزت بالشام شِمْ تلك البروق ولا ... تعدل بلغت المنى عن دير مرّان
واقصد علالي قلاليه تلاقِ بها ... ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا ... ماست فيا خجلة المرّان والبان
وكل اسمر قد دان الجمال لهُ ... وكمل الحسن فيه فرط احسان(٣

---

١) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ١٧٤ – ١٨٢ . ومطالع البدور في منازل السرور للغزالي ١ : ٢٥١ – ٢٥٧

٢) يتيمة الدهر ١ : ٥١٢ – ٥١٣

٣) فوات الوفيات للصلاح الكتبي ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦

ولا غرو في هذا الوصف فقد اشتهر اهل دمشق في كل حين بالصباحة والجمال وهذه الابيات هي الشاهد الفرد الذي وقفنا عليه بوجود الراهبات في دير مران .

ومن نزل دير مران من بني امية بعد يزيد بن معاوية وامرأته ام كلثوم كما ذكرناه آنفاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك واخوه الغمر ونزله ايضاً من العباسيين الرشيد والمأمون وحكي عن ابرهيم الموصلي انه قال :

« مرّ الرشيد بدير مران فاستحسنه ونزله وامر ان يؤتى بطعام خفيف فأتي به وأُتي بالشراب والندماء والمغنيين فخرج اليه صاحب الدير وهو شيخ كبير هَرِم فوقف بين يديه ودعا له واستأذنه في ان يأتيه بشيء من طعام الديارات فاذن له فاتاه باطعمة نظاف وإدام في غاية الحسن والطيب فاكل منها اكثر اكل وامره بالجلوس فجلس معه يحدّثه وهو يشرب الى ان جرى ذكر بني امية فقال له الرشيد : هل نزل بك احد منهم فقال : نعم نزل بي الوليد بن يزيد واخوه الغمر فجلسا في هذا الموضع وشربا وغنّيا فلما دب فيهما السكر وثب الوليد الى ذلك الجرن فلأه وشربه وملأه وسقى اخاه الغمر فما زالا يتعاطيانه حتى سكرا وملأه لي دراهم فنظر اليه الرشيد فاذا هو عظيم لا يقدر ان يُقِلّه ولا يقدر ان يشرب ملأه فقال ابى بنو امية الا ان يسبقونا الى اللذات سبقاً لا يجارجم فيه احد ثم امر برفع النبيذ وركب من وقته »(١) .

وفي تاريخ ابن كثير ان في سنة ٢١٥ (٨٣٠ م) « سار المأمون في جحافل كثيرة الى بلاد طرسوس فدخلها في جمادى الاولى وفتح حصناً هناك عنوة وامر بهدمه ثم رجع الى دمشق فنزلها وعمر دير مران بسفح قاسيون واقام بدمشق مدة »(٢)

ولا ريب ان ابن كثير يريد بقوله « عمر الدير » ما رواه ابن عساكر عن احمد بن الخير الوراق الدمشقي قال :

« لم يزل ملوك بني العباس تخف الى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر منهم المأمون فانه اقام بها واجرى اليها قناة من ضرمنين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران وبنى القبة التي في اعلى جبل دير مران وصيّرها مرقباً يوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى ما في عسكره اذا جنّ عليه الليل »(٣).

---

١) مسالك الابصار للعمري ٣٥٥ – ٣٥٦
٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢٦٩
٣) تاريخ ابن عساكر ١ : ١٧٦

ونقل الاصبهاني عن الصولي وعمرو بن بانة ان المعتصم زار ايضاً دير مران[١] ويؤخذ من الابيات التي انشده فيه الحسين بن الضحاك ان الزيارة كانت لدير مديان على نهر كرخايا كما سبقنا ونبهنا على ذلك .

وتتابع الامراء والقواد على احتلال محلة دير مران كلما اضطرتهم الاحوال الى نزول دمشق وقد اشرنا قبلًا الى القصر الذي بناه في محلة الدير خمارويه ابو الجيش بن طولون ولما نشبت المعركة بين خمارويه والامير محمد بن ابي الساج في ثنية العقاب وانهزم ابن ابي الساج قال البحتري يمدح ابا الجيش :

اما كان في يوم الثنيّة منظر ومستمع ينبي عن البطشة الكبرى
وعطف ابي الجيش الجواد بكرة مدافعة عن دير مران او مقرى[٢]

ومن الغريب الذي يحار فيه فهم اللبيب ان دير مران على شهرته وتقادم عهده وجلالة بنائه لم تذكر كنيستهُ في جملة الكنائس الاربع عشرة التي أُخذ عليها العهد بعد الفتح ولذلك زعم بعض المؤرخين ان عمر بن عبد العزيز لما شكا اليه النصارى خروج كنيستهم الكبرى من ايديهم وإحلال الجامع الاموي محلها خيّرهم بين ردّهـا عليهم وهدم كل الكنائس التي حول دمشق والغوطة كدير مران وباب توما والراهب في العقيبة وبين التخلي عنها وتسجيل بقية الكنائس لهم انهم آمنون عليها ان تخرب او تسكن[٣] فاختاروا التسجيل

ومن تدبّر اقوال الرواة في هذه المصالحة واختلافها في تعيين الكنائس التي أُقطعت عوضاً عن كنيسة يوحنا يدرك جلياً ان معظم هذه الروايات وُضع بعد الفتح في القرن الثاني للاعتذار عن اغتصاب مار يوحنا وتنزيه الجامع الاموي عن كل شبهة حيف وظلم وحسبك من الشواهد على مـا هنالك من التباين والتناقض انهم اتفقوا جميعاً على ان كنيسة مريم كانت في عداد الكنائس الاربع عشرة المُصالَح عليها ومع ذلك فقد نقل العمري عن المغيرة المقري وكان في ايام الوليد ان الوليد اعطى النصارى في نظير نصف كنيستهم الكبرى اربع

١) الاغاني ٦ : ١٥٩
٢) . . . .
٣) مسالك الابصار ١٩٠

كنائس هي كنيسة حُميد بن درة وكنيسة سوق الجبن وكنيسة مريم وكنيسة المصلّبة[1] فكيف تكون كنيسة مريم داخلة مع الكنائس الثلاث المذكورة في العهد ثم تعطى بعد كأنها خارجة عنه ثم اختلفوا ايضاً في اسما. هذه الكنائس المعطاة وعددها وقد مر بنا آنفاً انها دير مران وباب توما والراهب ومع ذلك حكى ابن عساكر ان الوليد اعطى النصارى مكان الكنيسة التي في المسجد الكنيسة التي تعرف بحمام القاسم بحذاء دار ام البنين في الفراديس[2] وفي كل هذه الاقوال من الاختلاف والارتباك والتردد ما يوضح لكل ذي بصيرة ان مسئلة الكنائس في صلح دمشق لا تخلو من التخليط والتلفيق حباً بالدفاع عن حرمة الجامع وحِلّ بنائهِ وتبرئتهِ من كل وصمة وعيب .

بقي الكلام على خراب الدير وتعيين موقعه في سفح قاسيون وقد تتابعت علينا عدة اعوام ونحن نرتاد حلّاً قاطعاً لهذه المشكلة دون ان نهتدي اليه فلا ندري كيف درج الدير وتهدم بنيانه وتشتت رهبانه ودرست رسومه ومحاسنه وهل كان زواله في بعض الفتن والحروب التي توالت دائماً على دمشق وسلبتها كل مصانعها ومعاهدها ام ذهب فريسة المطامع والاحقـاد كغيره من الاديار وآخر ما وقفنا عليه من الاشارات اليه خصوصاً — دون بقعتهِ — قصيدة لعون الدين بن العجمي وصف فيها ثلاثة من اديرة دمشق والغوطة وتقدم لنـا الاستشهاد بابياتها للاستدلال على وجود دير للراهبات في جوار دير مران ومعلوم ان عون الدين توفي سنة ١٢٥٨/٦٥٦ فهل كان الدير لا يزال ماثلًا مأهولًا في اوائـل القرن السابع للهجرة كما زعم دوسّو في قول عزاه غلطاً الى ياقوت[3] وكنا نرجح ذلك الى ان تسنّى لنا مطالعة تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي في خزانة بريتيش موزيوم فعثرنا فيه على الشهادة الآتية للمؤلف حكاهـا بعد المعاينة وأرّخها لحسن الحظ بقلمه وهذا نصها بالحرف:

« سنة ٩٦ في السبت منتصف جمادي الآخرة مات الوليد بن عبد الملك . . . ودفن بدير مران بباب دمشق على النهر الذي يعرف بنهر يزيد تحت الموضع المعروف بكهف جبرائيل

---

١) مسالك الابصار ١٨٠

٢) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ١ : ١٥٥

٣) Topographie Historique de la Syrie, p. 298.

ولقد كنت بدمشق في سنة خمس وستين وخمس مئة (٥٦٥/١١٦٩م) واتفق ان رجلًا متزهدًا مضى الى تحت الكهف ليبني له زاوية ينقطع فيها فحفر في موضع هناك فخرج عليه اثر بناء قديم وعمارة واثر دير وحيطان فيها صور اليونان والنصرانية والصلبان مصورة فخرج خلق كثير ومضوا وابصروا الموقع وساعدوا الزاهد ونقضوا معه فقال جماعة من مشايخ دمشق وعلمائها والشيخ العالم الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وعلمائها ان هذا دير مران الذي كان في ايام بني امية ودفن فيه الوليد بن عبد الملك ثم بنى ذلك الزاهد له هناك موضعاً واقام فيه وهو موضع مليح يطلّ على غوطة دمشق والبساتين تحته ونهر يزيد بالقرب منه»[1]

ومن الشقاء والخسران ان لا يكون اتصل بنا شاهد آخر يشفي لنا غلة لمعرفة شيء آخر من بناء الزاهد واثاره وتعيين موقعه تقريباً .

وفي هذه الشهادة الراجحة برهان قاطع على ان دير مران كان قد دثر باسره وامّحت رسومه قبل ايام عون الدين بن العجمي وقبل عصر ابن عساكر ولولا ذلك لما كان ابن عساكر عرف انقاضه واطلاله المستخرجة ولا شك ان ابن العجمي لم يتغزل بالبيض والسمر من حور دير مران وولدانه الا تفنناً بالشعر واقتداء باسلوب من اساليبه المعروفة في اطراء الخور النصرانية والاطناب في وصف علالي القلالي الرهبانية ومن ثم لا ينتفي ان يكون خراب الدير قد تم قبل القرن الخامس للهجرة ولعلنا نقف يوماً على اشارة اليه في بعض المخطوطات الأُنُف يمكن ردها الى تاريخ معلوم تقطع بـه جهيزة قول كل خطيب كالتي سبقت من كلام ابن الازرق الفارقي.

ويظهر انه كانت لا تزال منه بقايا في زمان شهاب الدين العمري في القرن الثامن للهجرة فانه لما اشار الى الدير قال : « بدمشق في سفح جبل قاسيون الصالحيةُ ... وبجانبها ... كان دير مران المشهور مكانه الآن من المدرسة المعظمية الى عقبة دُمَّر ومنه هناك بقايا اثار »[2] وقال ايضاً في كتاب الديارات من مسالك الامصار : « والناس في اختلاف اين كان دير مران فمن قائل انه كان بمشارق السفح نواحي برزة والاكثر على انه كان بمغاربه والى مكانه الآن المدرسة المعظمية واما الذي بمشارق السفح فهو دير السائحة المسمى دير صليبا»[3]

١) تاريخ ميا فارقين ، خزانة بريتيش موزيوم Or. 5803 f° 76ᵇ

٢) مسالك الابصار ٣ : ٢١ خزانة باريس ٢٣٢٥

٣) مسالك الابصار ، طبعة الدار ٣٥٥

وفي هذه المدرسة المعظمية كانت القبّة التي دفن فيها الملك المعظم عيسى ابن العادل ابي بكر بن ايوب وامه وابناؤه وغيرهم من البيت الايوبي[١] واشار اليها النويري فقال : هذه التربة هي دير مران المذكور في اشعار المتقدمين[٢] وورد مثل ذلك في كتاب البداية والنهاية لابن كثير فقال : كنيسة دير مرّان بسفح قاسيون وهي بتربة المعظمية (٩ : ١٥١)

وذكر ابن شاكر الكتبي دير مران فقال : هو احد مستنزهات دمشق وهو في سفح قاسيون نزله جماعة من الخلفاء ومدحه جماعة من الشعراء. وهو على تل عال وتحته رياض زعفران وتُنبت في زمن الربيع من سائر الالوان قيـل انه قرية دمر اليوم[٣]

والى جانب هذا الدير كانت الدكّة المعروفة بالدوّاسة احـدى عجائب دمشق فوق يزيد وفيها كان ينزل جعفر بن فلاح احـد قواد المصريين واول امير ولي لهم دمشق[٤]

٢٤

دير مار موسى الحبشي

بجوار النبك

هو دير قديم مبني بالحجر الصلد فوق قمة جبل عال يقاد له «الجبل المدخن» وتسمى هذه القمة في بعض المخطوطات السريانية «القمة الكبيرة ܘܡܥܠܘܬܐ» وهو شرقي النبك يبعد عنها مسافة ساعتين ويشرف منها على سهل افيح يتصل ببادية تدمر وفلسطين وهو اليوم في حوزة السريان الكاثوليك وصفه بطريركهم مار افرام الرحماني في مجلة الآثار الشرقية وقال :

«كان هذا الدير مرحلة للقوافل الغادية والرائحة من بلاد ما بين النهرين وفيه كنيسة جميلة قديمة وعلى جدرانها داخلًا وخارجًا تصاوير وكتابات سطرنجيلية وسريانية سطّرها غير

١) الذيل على الروضتين لابي شامة ، باريس ٥٨٥٢ ص ٥٧ – ٥٨ و٢١٩

٢) نهاية الارب ، خزانة ليون Arab. 19ᵇ Goul. fᵉ 112

٣) عيون التواريخ ، باريس ١٥٨٧ ص ٤٣

٤) مختصر مرآة الزمان لابي المظفر الجوزي ، باريس ١٥٨٦٦ ص ٣

واحد من الرهبان والزوار الذين كانوا يحجون الى الاراضي المقدسة فكانوا يمرّون بذلك الدير ذهاباً واياباً »[1]

وورد ذكر الدير في عدة مخطوطات سريانية سبق بعضها تاريخ الهجرة وتف منها البطريرك المشار اليه على مصحف خُطَّ في الدير سنة ٥٧٥ في عهد ابي كريب الغساني[2] وهو ما يشهد بتوغل بنائه في القدم وفي خزانة بريتيش موزيوم مخطوط سرياني رقم ٥٨٥ جاء فيه ان في سني ٩٢٠ الى ٩٣٠ حضر الى الدير القس موسى النصيبيني واخذ منه بعض مخطوطات نقلها الى دير والدة الاله في الصعيد بمصر وفي خزانة كمبريدج كتاب رقم Add. ٢٢٨٠ خُطّ سنة ١٤٩٤ واصله من كتب الدير وفي خزانة باريس كتاب القداس رقم ٧٢ كتبه ديسقورس مطران اورشليم ، حين زار الدير سنة ١٤٦٢

واكثر التعليقات التي علّقها النساخ على مصاحف الدير خالية من كل فائدة تاريخية وليس هناك مـا يستفاد سوى ان الدير اصبح كرسياً اسقفياً لازدياد رهبانه واقبال الزوار والحجاج عليه وان اللصوص من الاعراب كانوا ينتهبون احياناً امتعته ومخطوطاته .

ومن اسماء الاساقفة الذين اتفق ذكرهم فيها مـار جورجي رئيس الدير اسقف مدينة تدمر (مخطوط رقم ٥٨٥ بريتيش موزيوم) وديسقورس صروخان اسقف مار موسى (١٧٢٧ — ١٧٦٩)[2] ويوانيس الياس الاصفر الموصلي مطران النبك(١٧٩٧ — ١٨٣٢)[3] وفي الدير سجل محفوظ جاء فيه اسم المطران الياس رئيس الدير سنة ١٨١٠ وعدّدت فيه بالتفصيل اوقاف كثيرة حبسها اصحاب النذور من القرى المجاورة في جبل قلمون والغوطة وبرّ دمشق والزبداني وجبل لبنان وبعض قرى طرابلس وهي شاهدة باشتهار هذا الدير ووفود الزوار اليه من كل حدب وصوب وربما كانت بعض النذور لقوم من المسلمين كما اعتـادوا امثالها في دير السيدة في صيدنايا.

١) مجلة الاثار الشرقية ٢ — ١١ — ٣٢٦

٢) مجلة الاثار الشرقية ١ — ٩ — ٣٦٢

٣) نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران للاب افرام برصوم ص ١٢٢ و١٢٣

ومما هو حريّ بالتنبيه عليه هنا انه لم يبقَ من كل الاديار القديمة التي كانت في دمشق وبرّها فيما عدا دير مار يعقوب المقطّع الذي غلب الخراب عليه في قارة الا ثلاثة اديار عامرة وهي دير السيدة بصيدنايا ومارجرجس في بلودان ومار موسى بالنبك ولعل بعدها عن المدينة وبناءها فوق قمة جبل وصعوبة التوغل اليها وعدم اعتصار الخمور فيها للحانات زهّد المتنزهين وابناء السبيل في طروقها وارتياد الشراب فيها كسائر الاديار المشهورة ولذلك لم ينته الينا اقل شعر في مار موسى او اشارة اليه في الادبيات الاسلامية ولولا معرفة شهاب الدين الدمشقي بحسن موقع دير بلودان وذكره اياه في ابيات اراد ان ينحو فيها منحى الشعراء المتطرحين في الديارات والمعجبين بجمال حورها وولدانها كما يقولون لكان نصيب دير مار جرجس في بلودان لا يختلف عن نصيب دير مار موسى في النبك من الإغفال والاهمال

٢٥

دير ميخائيل او دير البُخت

بظاهر دمشق

اغفله العمري في كتاب الديارات من مسالك الابصار واقتصر ياقوت في معجم البلدان على نقل ما رواه الشابشتي في النسخة اليتيمة المحفوظة من كتاب الديارات في خزانة برلين وهذا نص ما جاء فيه :

« هذا الدير بدمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمّي : بهذا الاسم لبخت كانت لعبد الملك بن مروان مقيمة هناك فعرف بها . وكان لعلي بن عبدالله بن عباس بذلك الموضع جنينة مقدارها اربعة اجربة فكان يخرج اليها ويتنزه فيها ايام مقامه بدمشق » (الورقة)

وقد فات الشابشتي ان يذكر في اى ناحية من دمشق كان هذا الدير وفي جوار اي قرية من قرى الغوطة لنهتدي الى اثر من اثاره ومثل هذا التقصير والغموض في التعريف هو آفة معظم المؤرخين والبلدانيين فلا نكاد ننتفع بكثير من اقوالهم واوصافهم على قلتها وايجازها

ولم نجد اشارة واحدة في الاشعار الخمريات واوصاف الحانات الى هذا الدير فهل كان بعيداً عن دمشق ومنازهها وكان الوصول اليه عسراً طويل الشقة ام كان خالياً من الكروم والاعناب فلم يشتهر بشيء من الخمور التي نوّهت بسائر الديارات وجلبت لها ضروب المخازي والفضائح

ويؤخذ من رواية لابن عساكر انه كان حول دير ميخائيل بقعة مأهولة من منازل بني امية كانت تعرف باسم دير البخت قال في الكلام على داود بن يحيى بن الحكم بن ابي العاص «كان يسكن دير البخت من اعمال دمشق»[١] وذكر ايضاً من ساكنيه قبلاً سليمان بن داود بن مروان بن ابي الحكم[٢]

٢٦

دير النساء

بجانب كنيسة مريم بدمشق

انفرد بذكره سعيد بن بطريق وهو افتيشيوس بطريرك الملكيين في الاسكندرية واغفل اسمه فقال :

« ثار المسلمون في دمشق فهدموا كنيسة مريم الكاثوليكية وكانت عظيمة كبيرة حسنة أُنفق فيها مائتا الف دينار ونهب ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلي وستور ونهبت ديارات وخاصة دير النساء الذي كان جانب الكنيسة وشعّثوا كنائس كثيرة وهدموا كنيسة النسطورية وذلك في نصف رجب سنة اثنتي عشرة وثلثمائة[٣] » (١٧ تشرين الاول = اكتوبر ٩٢٤) .

ولا شك انه لما أُعيد بناء الكنيسة بعد سكون الثورة جُدّد ايضاً دير النساء. ولم نجد اقل خبر عنه لضياع كل الكتابات النصرانية بدمشق وبرّها بتوالي النكبات والفتن والتهام النيران مصاحف الكنائس وخزائن الاديار ولا سيا مخطوطات دير السيدة في صيدنايا التي اتلفها الروم الارثذكس جهلاً وتعصباً.

---

١) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ٦ : ٣٣
٢) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ٧ : ٢٠٣
٣) نظم الجوهر ، طبعة بيروت ٢ : ٨٣

٢٧
دير هند في الغوطة

وهو دير محمد عند المنيحة

اشتهر ديران في الحيرة باسم هند الصغرى وهند الكبرى ولكن لا نعلم من هي هند التي قام باسمها دير دمشق ولا متى كان بناؤه او في ايّ وقت أُقطِع لبعض رجال بني امية واصبحت بقمته قرية عدّها ياقوت من قرى الغوطة نقلًا عن ابن عساكر وابن ابي العجائز وقالوا انها كانت من اقليم بيت الآبار[١] ويغلب على الظن ان هذا الدير هو الذي اشار اليه ابن عساكر في كلامه على محمد بن الوليد بن عبد الملك قال « واليه تنسب المحمديات التي فوق الارزة ودير محمد الذي عند المنيحة من اقليم بيت الآبار »[٢] وفي مراصد الاطلاع « عند المسجد من بيت الآبار » (١ : ٤٣٩—٤٤٠) وهو تحريف ظاهر.

٢٨
دير مار يعقوب المقطع

غربي قارة

كانت قارة من امّهات القرى في جبل قلمون واهلها كلهم نصارى كما نبّه على ذلك ياقوت[٣] وكانوا ذوي منَعَة وجرأَة وشجاعة ولذلك استعان بهم احياناً بعض النواب والملوك لاغتيال مناوئيهم من رجال الدولة[٤] وكانت تطيف بقارة عدة اديار لم يشتهر بينها الا هذا الدير لقِدم بنائه وحسنه واتساعه ووفرة رهبانه واملاكه وإقبال الحجاج والزوار اليه من كل الانحاء المجاورة ولا سيما من حوران وكثرة ما يُحمل اليه من النذور والصدقات ولهذه الاسباب

١) معجم البلدان ٢ : ٧١٠ ، وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٦ : ٤٦ظ. و٩ : ٦٢
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٥ ، وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٦ : ٤٦ ظ.
٣) معجم البلدان ٤ : ١٢
٤) نهاية الارب للنويري ، خزانة ليون Arab. 2' Col. n°319

كان مطمح ابصار اللصوص وتتابعت عليه غارات التركمان وقطّاع الطريق فظل حيناً يتراوح بين اليسر والعسر الى ان جرّد عليه وعلى قارة السلطان بيبرس البندقداري سيف النقمة والبغي سنة ١٢٦٦/٦٦٤ وكان قادماً من دمشق فقيل له ان اهل قارة يتخطّفون احياناً المسلمين ويبيعونهم للافرنج الصليبيين[1] قال النويري : « وكان قد حضر من قارا رهبان بضيافة الى الدهليز (اي الخيمة السلطانية) فامر السلطان بالقبض عليهم وركب بنفسه وقصد الديرة التي خارج قارا فقتل من بها ونهبها ثم عاد وامر العسكر بالركوب وقصد التلّ الذي بظاهر قارا من جهة الشمال واستدعى ابا العزّ الرئيس بها وقال لهُ : نحن نقصد الدير فَمُرْ اهل قارة بالخروج باجمعهم فخرج منهم جماعة الى ظاهر القلعة فلما بعدوا عنها امر بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم الا من هرب واختفى بالمغاير والآبار . . . ثم امر بتوسيط الرهبان الذين حضروا بالضيافة فوسّطوا وتقدم الى العسكر بنهب قارا فنهبوها ثم امر ان تجعل كنيستها جامعاً ونقل اليها الرعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس ورتّب فيها خطيباً وقاضياً وكانت قبل ذلك تسكنها النصارى »[2] .

ومنذ ذلك الحين ضعف حال الدير وافتقر بقلة من انضوى اليه من الرهبان وكثرة ما تتابع عليه من تسلط التركمان وفي سنة ١٤٠٣/٨٠٥ « اغار التركمان على قارة وما حولها من القرى ونهبوا ثلث البلد[3] وذهب للدير عدة ذخائر من النذور والاواني البيعية والمصاحف النادرة والمؤن والغلال وتفاقمت الحال عليه في ايام الدولة العثمانية فكان لا يخلو من التعديات والنكبات ومن اشنعها وافظعها ما حلّ به وبرهبانه في اوائل القرن السابع عشر وقد وقفنا على شرح هذه الواقعة في ذيل كتاب الدر المرصوف في تاريخ الشوف لحنانيا المنيّر في نسخة منه مخرومة في خزانة الآباء اليسوعيين في بيروت وهذا نصّها كما وردت بالفاظها وعاميّتها وعنوانها وهي حافلة بالفوائد والاخبار :

١) نسب ابن خلدون تخطف المسلمين وبيعهم للفرنج لا الى نصارى قارة ولكن الى « عدوان الاحياء الرحالة » (العِبَر ٥ : ٨٦) .

٢) نهاية الارب ، باريس ١٥٧٨ ص ٧٣ – ٧٤

٣) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٩ ص ٢٠٤

« خبرية دير مار يعقوب المقطع في قارا وكيف قتلوا رهبانه وعن خرابه »

« ان هذا الدير بنيانه قديم وعماره حصين وله تاريخ وضيح ونظروه اناس كثيرين وبعده فقد وانما في زماننا حصّلنا رهبان قليلين وكانوا ذو عمر طويل لان مناخ هذا الدير جيد جدًا وقريب اليه قرية تدعى قارا فاخبرونا هؤلاء الرهبان انه حين ترهبوا في ابتدا عمرهم كان الدير عامرًا قديمًا وكان قبلًا يحوي رهبان كثيرين وهم روم ماسكين قانون باسيليوس الكبير وكان هذا الدير يقصدوا زيارته كثيرين وفيه نهر ماء يدوّر به طاحون وكامل القرايا اللايذين بالدير المذكور يطحنوا بها وله اراضي متسعة اذا كانت تزرع جميعها فيحصل ارباح وافرة وبالنتيجة ان مداخيل هذا الدير كافية لرهبانه معاش ولو كانوا كثيرين وله سمعة مشهورة ويطعم عيش النصارى وللغادي وعماره في نصف السهل ولكن عالي محصّن جدًا فاتفق من غدرات الزمان من نحو ماية وخمسون سنة على التقدير باطن سنة الف وستماية وكسور مسيحية جاء للدير بيرق عسكر نحو ثلاثين نفر منطوع جرائتهم مروا على الدير وقت العصر وقايدهم مغضوب شيطان فنزلوا عن خيلهم وطلبوا ان الريس يقدم لهم اكل وشرب وعليق فقدم لهم حسب العادة ثم بعد برهة وهم خارج الدير طلب قايد العسكر مواجهة الريس وافهمه ان اخص مجيه للدير بقصد زيارة البطل ماري يعقوب ويريد يزور الكنيسة ويقدم النذر الذي معه وأراه قطعة ذهب ستة فانطفى لكلامه وفتح له باب الدير ودخل معه اثنين عسكر فزار المقام واعطى النذر وصار يتفرج على الدير ونظر حالة الرهبان وعيشتهم واحوالهم ثم اظهروا وداد ومحبة للريس وبعض الرهبان حتى ان جميعهم انحظوا منه وقصدوا ان يبات عندهم داخل الدير عدا العسكر واكرموه كثيرًا وثاني يوم ودعهم والرهبان مشغوفة لحبه لهم وطلبوا منه يقيم عندهم يومين فاعتذر ان الوزير ارسله في مصلحة ولكن ان شاء الله تعالى بعد قضاها نجتهد ان يرجوعنا نمر عليكم وهكذا ذهب من عندهم فغاب يومين وحضر لعندهم آخر النهار وصحبة نحو خمسين عسكري وينوف فخرج الريس للاقاته وفتح له باب الدير وادخله الى وسطه مع جملة عسكر وبقي الباب مفتوح ضد العادة وهو سايب والعسكر يدخل ويخرج من غير تكلف والاغا مع الرهبان سالك سلوك عجيب حتى كان يسميهم اخوته.

ثم قدموا العشاء داخل الدير وعليقًا وافرًا لخيلهم حتى كان العسكر داخل الدير والرهبان مطمئنين من نحوهم فقام العسكر نصف الليل تسلحوا وهجموا اولًا على اوضة الريس ذبحوه ثم داروا على الرهبان ذبحوهم جميعًا وكان عددهم انوف من ماية وعشرين راهبًا ونهبوا الدير والكنيسة تمامًا وذهبوا حالًا واغلقوا الباب خلفهم . ففي الصباح لحظوا اهل قارة بما صار فاعرضوا للشام وخرج عسكر وافر يطلب هولاء الاشرار الارديا فما وجدوا لهم اثر ومن وقته زال رونق الدير من الدثار والخراب.

ثم حضر بعض رهبان الذين كانوا دايرين بالقرايا والشام لمصالح تخص الدير ايضًا حضر رهبان القاطنين بدير سيدة رأس بعلبك الذي تابعًا لدير مار يعقوب وهذا الدير في يومنا بيد رهبنة الشويريين بدير مار يوحنا وقبلًا ما كان رهبنة في الشرق غير مار يعقوب كان كرسي وتبعه دير السيدة المذكور فلما نظروا الرهبان ما حدث بديرهم من النهب والقتل

فاتنسوا جدًّا ما يدهم حيلة غير الصبر غير انه حصل جفل للناس الذين يرغبون دخولهم بالرهبنة لان الدير افتقر نوعيًا وصار مَعيون ما بقي امان واذا كان احد يترهب فهو نادرًا جدًّا وخفّت الرهبان لان الذي يموت ليس له عوض ثم بعد مدة من السنين وهي سنة الف وسبعماية وتسعة وخمسون حصل زلزلة هائلة في بلاد الشرق فغرق الذي بالدير وغار النهر بالارض كليًا وبطلت الطاحون وهكذا وهذا مما جسّم خراب الدير والرهبان حين غار الماء فصاروا قليلين وقضوا معيشتهم بالفقر والقهر.

واخيرًا حدود سنة الف وسبعماية فجاؤا لدير مار يوحنا واشتركوا معهم وتركوا ديرهم سايب ما به احد وهؤلاء الرهبان شاهدناهم بالجبل اسمائهم منسى وسمعان وارسانيوس وجميعهم من عمر تسعين سنة وطالع واهل قارا نلاحظ الدير من الخراب وهم روم كاثوليك وبعد كم سنة حضر راهب شويري وهو متزيي زي الرهبان واشاع انه كاهن وسارق كتب طقسية وكان يخدم بالمذبح وهو لص سارق وحين لحظ فحص اهل قارة عنه فهرب من الدير ومسكوه بالجبل وفلت منهم ولا نعلم كيف جرى بامره وهكذا بقي سايب دير مار يعقوب زمانًا طويلًا . اخيرًا من ايام قريبة توجه اليه راهبين من دير مار يوحنا الشوير كاهن وراهب نظّفوه والتفتوا لمار رزقه وقيل انه ظهر فيه عين ماء زهيدة مكان العين التي غارت بالزلزلة قديمًا وثبتوا فيه الرهبان الى يومنا هذا.

وبقي الدير في حوزة الرهبان الشويريين الى زمان البطريرك مكسيمس مظلوم وفي خزانتنا منشور له بتاريخ ٣ آب سنة ١٨٣٦ هذا نصه :

« اننا قد اتفقنا يوم تاريخه ادناه مع حضرة ولدنا العزيز الخوري فلابيانوس رئيس عام الرهبنة الحناوية البلدية الجزيل الاكرام على ما يأتي ذكره بخصوص دير القديس يعقوب الذي في قارة اذ ان هذا الدير هو مختص بكرسي قارة وبالابرشية وهو الاساس لاسعاف معاش اسقف الكرسي من المداخيل التي تفيض من ارزاقه عن مصاريفه ومن ثم عدلًا وذمة يلزم ان يستمرّ كما كان وكما هو الآن تحت ولاية اسقف الابرشية من دون توسط ولا يباح اصلًا تخصيصه برهبنة من الرهبنات وذلك للسبب المذكور اي لان اساس معاش اسقف الابرشية هو من مدخوله فالرئيس العام المذكور قد ارتضى لمجد الله وخير الابرشية المذكورة وتتميمًا لرغبتنا بان يرسل من قبله احد كهنة رهبنته الذي هو ولدنا القس باديكتوس فرح الاكرم مع ولدنا راهبه انثيموس المكرم الى الدير المرقوم ليقيما فيه ويقبلا ارزاقه مع كل ما يخصه ويستوليا مداخيله من اليوم الحاضر فصاعدًا الى مدة ثلث سنوات . . . (التي غايتها تكون في اول تشرين الاول سنة ١٨٣٩) . . .

ثم ان الوكيل المذكور يلزمه ان يحفظ عنده اولًا قايمة الموجودات المختصة بالدير التي يتسلمها من يد ولدنا العزيز الشيخ ابرهيم مسرور وتبقى صورتها مختومة منه بيد ابرهيم المذكور . ثانيًا ان يرتب له دفترًا خصوصيًا ليدوّن فيه جميع المداخيل والمصاريف . . . من حيث انها عادة قديمة هي ان تجمع له خصوصية باسم هذا الدير تكريمًا لصاحبه القديس يعقوب من ابرشية حوران ومن المحلات الاخر المجاورة من نذورات وحسنات. . .

ومن اخباره التي تلقطناها انه في سنة ١٧٩٠ اغار الامير جهجاه الحرفوش على الدير ونهب ما اجتمع فيه لاهل الرأس والفيكة من الودائع والحرير والدواب[١] وفي سنة ١٨٥١ نقب اللصوص احد جدرانه وسلبوا الراهب المقيم فيه امتعته ونقوده واتُّهم اثنان من الروم الارثذكس فأُخذا واقرّا بالسرقة[٢].

وفي ايام البطريرك مكسيموس مظلوم رُمّ الدير وجُدّد ما غلب عليه الخراب ولما زرناه سنة ١٩١٣ وجدنا في ارض الكنيسة وكانت مهملة مهجورة حجراً مطروحاً قرأنا فيه الكتابة التالية في اربعة اسطر :

قد تجدّد هذا الدير مزهرًا بناه بعناية قدس السيد السامي فضله مكسيموس مظلوم البطريرك الانطاكي ادام الله طهره وبرّه وعلاه.

وقبلًا تولى استقفية حمص وملحقاتها السيد يوسف سفر وكانت قارة والدير في حكمه فاقام على الدير الخوري بطرس مسلم ولكنه لم يلبث فيه الا قليلًا وخرج منه لخلاف حدث بينه وبين حاكم الناحية ثم تقلد الاسقفية غريغوريوس عطا فاسند رئاسة الدير الى الراهب اناطوليوس شاهيات وخلفه القس بناديكتس فرح كما ذكرنا آنفاً وصُرف بالقس فلاسيوس بسيريني وبقي الدير مطّرحاً متهدماً الى ان دخله في ١٥ ايلول سنة ١٩٠٨ الخوري غريغوريوس بندق فوجد الدير خراباً وارض الكنيسة ملأى بالبعر والاقذار لأنها جعلت حظيرة وزريبة تأوي اليها اسراب الجداء والماعز والغنم فاشتغل بتنظيفها مدة ثمانية ايام ولم يبلغ الغاية وكان بالدير قديماً مطحنة وفرن ومعصرة دبس وحمّام وصهريج ماء وبرج حمام لم يبقَ من الاوكار فيه الا نحو الثلث وفي الدير ايضاً عين ماء زلال وبستان وامامه جفان وكروم وله اراضٍ بعل نحو من مائتي فدان يتصرف اهل قارة بها من نصارى ومسلمين ويستأثرون بغلالها ولو رُزق من يحسن سياسته والقيام عليه لكان في مقدمة اديار الروم الملكيين طيب بقعة وصفاء هواء وعذوبة ماء واصبح معهدًا من معاهد التثقيف والتعليم وملجأً للعجزة وشيوخ الرهبان.

---

١) تاريخ الخوري روفائيل كرامة ص ١١٧

٢) حوض الجداول المخطوط للمطران عطا ص ٢١٥

ولا شك انه كان في الكنيسة قديماً عدة صور ومصاحف ثمينة انتُهبت واغتالتها ايدي الحوادث والكوارث والتهمتها افواه النيران ولم نجد فيها الا صورة واحدة من القرن الثامن عشر كُتب عليها :

« اوقف هذه الايقونة المباركة العبد الفقير المقري عبدالله بن يوسف مسرة الدمشقي اصلًا على دير مار يعقوب المقطع من قرية قارة بيد جرجس بن حنانيا المصور سنة ١٧٥٢ ».

ومن كتب الدير المحفوظة في الخزائن « كتاب السواعي رقم ٨٤ وقف برباريني على خزانة الفاتيكان » سطره ... الحقير في الرهبان ديونيسي ابن رزق بن داود من قرية الراس عمرها الله تعالى وهو قاطن يوم يذا في الدير المبارك دير مار يعقوب المقطع غربي قارا ... » وتاريخ كتابته نهار الجمعة عاشر شهر ايار سنة ٧٠٦٨ للعالم (= ١٥٦٠ للميلاد)

وفي خزانة برلين :

١ كتاب تريودي سرياني ملكي خُطّ سنة ٦٩٩٩ لآدم = ١٤٩١ للميلاد بيد « حبيب بالاسم قسيس ابن الاب السيد الاسقف مقاريوس بن حبيب بن داود » رقم ٣١٠ كان قبلًا موقوفاً على كنيسة دير عطية ثم « أُوقف وحُبس عن روح القس يونان بن القس يعقوب لدير القديس المجيد مر يعقوب بقارا » .

٢ كتاب ميناون سرياني ملكي رقم ٣٢١ كُتب في الورقة ٣٢١ منه « هذا الكتاب لدير مار يعقوب » ويظهر ان تاريخه لا يتجاوز القرن الرابع عشر وفي مكتبة دير السيدة بصيدنايا « كتاب قرآ.ات الانجيل » رقم ٤ وبآخره هذا التعليق :

« كان الفراغ من هذا الكتاب المبارك في خمسة ايام مضت من شهر حزيران المبارك سنة ستة آلاف وتسعماية وخمسة وثمانين لابينا آدم ... (١٤٧٧ م) وذلك بيد عبد المسيح الحقير في الكهنة يواكيم باسم قسيس ولابس توب التوبة ابن ابرهيم من قرية حناك وهو يومئذ ساكن في دير مار يعقوب المقطع غربي قارا ... »

٢٩
دير يُونّى (يوحنا)
بظاهر دمشق

وَهِمَ في ضبطه كل من ابن شدّاد في الاعلاق الخطيرة وياقوت في معجم البلدان وشهاب الدين العمري في مسالك الابصار ورووه في حرف الباء الموحّدة بدلًا من الياء المثنّاة المضمومة واورده ياقوت بعد دير بولس وقبل دير التجلّي ولعلّه جاء بالموحدة ايضاً في نسخ كتب الديارات للاصبهاني والخالدي وقد سقط من نسخة الشابشتي في برلين فلا يدرى كيف كان مثبتاً فيها واغفل ذكره البكري في معجم ما استعجم في جملة الديارات الكثيرة التي ضرب عنها صفحاً واللفظة رومية كما هو معلوم والدير من اديار الروم الملكيين ولا شك انه كان مبنياً على اسم يوحنا المعمدان لقول ياقوت والعمري ان الدير كان من اقدم ابنية النصارى « بني بعد المسيح عليه السلام بقليل » فلا تمكن نسبته الى يوحنا فم الذهب او يوحنا الدمشقي.

وفي ياقوت والعمري ان الدير كان بجانب غوطة دمشق في انزه مكان بين رياض مشرقة وانهار متدفقة ولا يخفى ما في هذا التحديد من الغموض والابهام وهو قد يصدق على غير موضع واحد في ظاهر دمشق ولعل الاغلب انه كان في ناحية باب الفراديس حيث تعددت الديارات والبيع وقد شهد احد شيوخ بني حمدون حين صحب المتوكل وقدموا دمشق سنة ٨٥٧/٢٤٣ انهم طافوا الموضع المعروف بالفراديس (ظاهر باب العمارة اليوم) ونزلوا منزلًا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة[١] فلا يبعد ان دير يونّى كان في جملتها وكان موضعه في زمان العمري قد تنوسي واضمحلّت معالمه ولذلك قال فيه : « هذا الدير اليوم لا وجود له وقد اقفرت الارض منه من رسم وطلل ومضى وحادث كل دير بعده جلل »[٢] وكان خرابه دون ريب بعد القرن السابع للهجرة او في اواخره . لان

١) الدر الملتقط من كل بحر وسفط خزانة بريتيش موزيوم Add. 19408 f° 126"

٢) مسالك الابصار ٣٥١

معجم البلدان شهد انه كان صغيرًا ورهبانه قليلين وحكى ان الوليد بن يزيد الخليفة الاموي اجتاز به فرأى حسنه فاقام به يوماً في لهو ومجون وشرب وقال فيه الابيات الآتية اذا صحت نسبتها اليه ولا يخفى على احد ما فيها من الغلوّ الشعري وحب الاغراب والتطرف :

حبذا ليلتي بدير بونّى حيث نُسقى شرابنا ونُغنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون اننا جُنّنّا
ومررنا بنسوة عطرات وغناء وقهوة فنزلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو سَ مجونا والمستشار يُجنّنّا
فاخذنا قربانهم ثم كفّر نا لصلبان ديرهم فكفرنا
واستهنّا بالناس فيما يقو لون اذا خُبّروا بما قد فعلنا (١

ومن البيت الرابع يستدلّ على ان رأس الدير في عهد الوليد بن يزيد كان اسمه بطرس ولعل اسم المستشار مجنّاً لم يرد معه الا لاتمام القافية او انه اشارة الى سميّ الدير ويتحصّل من ذكر « النسوة العطرات والغناء والقهوة » في البيت الثالث انه كان الى جانب الدير حانة يباع فيها الشراب كما يشهد بذلك ايضاً حديث ابن ابي اللقاء الشاعر عن عبد الملك الدمشقي الشاعر الذي رواه السيساطي في كتاب الديرة قال:

« خرجت في عصبة من اصدقائي الى دير مار يونّا فاخرج الينا قس كان فيه شراباً عتيقاً وكان معنا غلام حسن الوجه يضرب بالعود ويغني احسن غناء فجلسنا في روضة اريضة تطل على الغوطة واقمنا ثلاثة ايام وانشد فيه عبد الملك :

غليت طيب العيش في دير ياونّا بندمان صدق اكملوا الظرف والحسنا
خطبت الى قس به بنت كرمة معتقة قد صيروا خدرها دنّا
نتاهَ بها عجباً وقال بهذه نتيه على الآفاق عجباً بها منا
دفعنا اليه مهرها حين زفّها عروساً غادى في قراطقها زفنا
وقمنا الى روض اريض وشادن غضيض تحار الحور في شكله حسنا
له جيد جيداء وعين غزالة يريك اذا عاينته البدر والغصنا
يغنّي فيُغنينا بحسن غنائه عن الغانيات المحسنات اذا غنّى
وتنثني لنا الاطراب رنّات عوده اذا عوده في حجره مرّحاً رنّا

١) من الغريب ان ياقوت الرومي روى هذه الابيات في دير بونى (٢ : ٦٤٩) ونسبها للوليد بن يزيد ناسياً انه سبق ونقلها في تعريف « تل بَوَنّا » من قرى الكوفة حيث عزاها لمالك بن اسماء الفزاري (١ : ٨٦٥) وهو سهو منه ظاهر .

ويثني الى غي التصابي قلوبنا · اذا استنطق الاوتار او حرك المثنى
ويبدي لنا اللحن المليح اذا شدا · وقد أمن الاسماع ان تسمع اللحنا
خلعنا عذار اللهو عنا ولم نزل · اذا اسرف العذال في النهي اسرفنا
وهان علينا القول في طاعة الهوى · فان اكثر اللوّام في اللوم هوّنا
فسقياً لذاك العيش لو كان عائداً · علينا وكنّا فيه مثل الذي كنّا
ساشكر ما قد قلته ووصفته · من القصف والاطراب في دير باونّا (١

وقد رويت هذه الابيات في كتاب برق الشام (كذا) وهو بعض كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد في خزانة جامعة ليدن arabs. 1466 f° 62 وممن تابع ياقوت وسائر النقلة في غلط رواية اسمه وضبطه بالباء الموحدة العالم الاثري دوسّو في كتابه Topographie de la Syrie p. 297

٣٠
دير مار يونان
بدمشق

كان هذا الدير للمعاقبة بدمشق ولا يعلم موضعه وغاية ما روي من اخباره ان يعقوب احد اساقفة طبرية في القرن العاشر للميلاد كان قبلًا راهباً من دير مار يونان[١] وان سلمون مطران دمشق في منتصف القرن التاسع[٢] وتاوفيل مطرانها في اواخر القرن العاشر[٣] كانا كلاهما من رهبان هذا الدير ونظيرهما خريستودولو اسقف بعلبك اقامه البطريرك اثناسيوس بعد شهر تشرين الاول سنة ٩٨٦[٤].

---

١) تاريخ ابن عساكر المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق المجلد العاشر رقم٩ (تاريخ) الورقة ٢٦٩ ظ.

١ و٢ و٣ و٤) J. Chabot : *Les Evêques Jacobites au VIII Siècle* p. p. 20, 13, 24, 25

الاديار التي ضاعت اسماؤها ونسبت الى ما جاورها من البقاع او الى مُقطَعيها من الامراء الامويين

لُمَع من اخبارها بعد الفتح

٣١
دير أبان

دير ابان من قرى الغوطة قال ابن عساكر في تاريخه : عثمان بن أبان بن عثمان بن حرب بن عبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاصي بن اميّة كان يسكن دير أبان عند قَرَحْتا وهو منسوب الى ابيه ابان ذكره ابن ابي العجائز[1].

وتعد قرحتا اليوم من قرى المرج وهي في شرق « خيارة نوفل » وتبعد عن قرية جسرين نحو ساعتين وممن سكنها من الامويين يحيي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية[2].

٣٢
دير البالسي

ورد ذكر هذا الدير في قصيدة لمحاسن الشوّا الحلبي عدّد فيها منتزهات دمشق في ايامه وقال فيها :

بججيرا وتلفيانا ودير البا لسيّ اضحكت في اللهو سرّا[3]

ومن اخبار هذا الدير ان في سنة ٦٩٥/١٢٦١ وصل الخطيب ناصر الدين بن عبد السلام من الديار المصرية الى دمشق ... لاجل مشترى دير البالسي ظاهر دمشق للملك العادل[4].

---

١) معجم البلدان ٢ : ٦٤٩

٢) تاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٨ : ٧٤ ظ.

٣) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس

٤) تاريخ الجزري « حوادث الدهر وانبائه » ٦٧٣٩ باريس ١٧٢

٣٣ دير بجدل

كان هذا الدير من اقليم بيت الآبار في موضع منه اغفل ابن عساكر ذكره. وابن بجدل هذا هو سعيد بن مالك بن بجدل اقطعه يزيد بن معاوية هذا الدير فنُسب اليه[1] وهذا كل ما يعرف من اوصافه.

٣٤ دير سابر

قالوا: من نواحي دمشق من اقليم حرلان سكنه عمر بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وذكره ابن ابي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني امية[2] ولم يقل احد من هو سابر ولا في اي قرية من قرى دمشق كان هذا الدير.

٣٥ دير العصافير

هو اليوم اسم قرية عامرة في قضاء دومة في الجنوب الشرقي من زبدين وكان يعدّ قبلًا من منازه دمشق اشار اليه ايضاً محاسن الشوا الحلبي في قصيدته التي تغنى فيها بمواطن الانس واللهو في ضواحي دمشق وقال :

واذكرا عذربا ودير العصا فير اسمعي ان شئتما ان تسرّا[3]

ولم نعثر على ذكر له في تاريخ ابن عساكر ولا نعلم لِمَ أُطلق عليه هذا الاسم.

٣٦ دير قيس

هو ايضاً فيما ذكروا من اقليم حرلان ولكنهم اهملوا تعريف موضعه كعادتهم غالباً في التعمية والالغاز ويظهر انه كان حسن الموقع جليل العمارة واسع البقعة لان معاوية الخليفة الاموي اختصه لنفسه واعتقده في جملة ضياعه في الغوطة وممن سكنه من ذريته سعيد بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وابنه خالد بن سعيد[4] ولا ندري من هو قيس الذي عُرف به الدير.

١)
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٦ - ٦٦٧
٣) عيون التواريخ لابن شاكر ١٥٨٧ باريس
٤) معجم البلدان ٢ : ٦٦٦ وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ٥ : ١٦٤ ظ . و٧ : ١٧٢ ظ .

فهارس الكتاب

الألفاظ المولّدة المشروحة في المتن والحواشي

الأديار والأعمار والقباب والقلالي والكنائس

التي تغنّى بها الشعراء في خمريّاتهم وأشار إليها المؤرّخون في هذا الكتاب مرتّبة على حروف المعجم

الشعراء الذين استُشهد بأبياتهم وقصائدهم
في هذا الكتاب

المطبوعات والمخطوطات

التي استُشهد بها او استُند اليها في هذا الكتاب

المطبوعات

الآثار الباقية لابي الريحان البيروني. طبعة ليبسيك
اتعاظ الحنفاء باخبار الائمة والخلفاء للمقريزي . طبعة ليبسيك
احسن التقاسيم للبشاري المقدسي . طبعة ليدن
ارشاد الاريب لياقوت الرومي . مصر . مطبعة هندية
اساس البلاغة للزمخشري . طبعة الدار
الاعلاق النفيسة لابن رسته . ليدن
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني . طبعة بولاق
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني . طبعة الدار

البيان والتبيين للجاحظ . المطبعة العلمية . مصر

تاج العروس من شرح جواهر القاموس للزبيدي . المطبعة الخيرية . مصر
تاريخ ابن اياس . مصر
تاريخ ابن بطريق . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تاريخ بغداد للخطيب . مصر
تاريخ الدويهي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تاريخ الرسل والملوك للطبري . ليدن
تاريخ مصر وولاتها لابي عمرو الكندي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تهذيب ابن عساكر . دمشق

حديقة الافراح لازالة الاتراح للشرواني . مصر . بولاق
حوادث الدهور مدى الايام والشهور لابن تغري بردي . ليدن

خزانة الادب للبغدادي . مصر
الخزانة الشرقية لحبيب زيّات . الجزء الثاني . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
الخطط للمقريزي . مطبعة النيل . مصر
الخطط للمقريزي . طبعة بولاق

ديوان ابن نباتة المصري . مصر

ديوان ابي نواس . مصر
ديوان سبط ابن التعاويذي . طبعة مرجليوث
ديوان عبيد بن الابرص طبعة ليال . بيروت

رحلة ابن بطوطة . مطبعة وادي النيل . مصر
رسالة الغفران لابي العلاء المعري . مصر ، مطبعة هندية

زهر الآداب للحصري . بهامش العقد الفريد . مصر

سنن ابي داود . مصر
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم . مصر

شفاء الغليل للخفاجي . مصر

صبح الاعشى للقلقشندي . مطبعة الدار
صحيح البخاري . طبعة بولاق
صحيح البخاري . المطبعة الحسينية . مصر

العِبَر لابن خلدون . طبعة بولاق
العقد الفريد لابن عبد ربّه . المطبعة الازهرية »

فتوح البلدان للبلاذري . ليدن
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . مصر

كتاب البخلاء للجاحظ . ليدن
كتاب البلدان لابن الفقيه . ليدن
كتاب التاج للجاحظ . مطبعة الدار
كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف . المطبعة السلفية . مصر
كتاب المدخل لابن الحاج . مصر

لباب الآداب لاسامة بن منقذ . مصر
لزوميات ابي العلاء المعري . طبعة بومباي
لسان العرب لابن منظور . بولاق
لغة العرب . بغداد . ج ٦ سنة ١٩٢٧ وج ٥ سنة ١٩٣٠

مختصر كتاب الفَرق بين الفِرَق لعبد القادر البغدادي . مطبعة الهلال
المخصص في اللغة لابن سيده . بولاق
مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع . ليدن
مروج الذهب للمسعودي . بهامش نفح الطيب للمقري . مصر

مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . المجلد الاول طبع احمد زكي باشا . مصر . مطبعة الدار
مسالك الممالك للاصطخري . ليدن
معجم البلدان لياقوت الرومي . طبعة ليبسيك
معجم البلدان لياقوت الرومي . مطبعة السعادة . مصر
معجم ما استعجم للبكري . طبعة وستنفلد
مقدمة ابن خلدون . بولاق

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي . ليدن
نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي . الجزء الاول . مطبعة هندية مصر
نفح الطيب للمقري . مصر ، المطبعة الازهرية
نَكْت الهميان في نُكَت العميان للصفدي . مصر
نهاية الارب في فنون العرب لشهاب الدين النويري . طبعة الدار
النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير مصر

وفيات الاعيان لابن خلكان . بولاق

يتيمة الدهر للثعالبي . طبعة دمشق
يتيمة الدهر للثعالبي . طبعة مصر

G. Affagart, *Relation de Terre Sainte.* Paris, 1902

Henri de Beauvau, *Relation Journalière de voyage du Levant.* Nancy, 1619

P. Besson, *La Syrie et la Terre Sainte au XVII^e^ siècle.* Paris, 1862

J. Ebersolt, *Constantinople Byzantine et les voyageurs du Levant.* Paris.

B. T. A. Evetts, *The Churches and monasteries of Egypt.* Oxford, 1895

W. Heyd, *Histoire du Commerce du Levant.* Leipzig, 1885-1886

M^me^ B. de Khitrowo, *Itinéraires Russes en Orient.* Genève, 1889

H. Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem.* Paris, 1706

Carlier de Pinon, *Relation de voyage en Orient.* Paris, 1920

Fr. Eugène Roger, *La Terre Sainte.* Paris, 1664

P. Vansleb, *Nouvelle Relation de journal d'un voyage fait en Egypte en 1672-1673.* Paris, 1677

المخطوطات

برق الشام . خزانة جامعة ليدن Arabe 1466 (مختصر من كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد)

بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم . خزانة بريتيش موزيوم Add. 23354
بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ليقع التمييز بينهم وبين المسلمين وغير ذلك . لابي يعلى محمد ابن الحسين بن محمد بن الفراء . في خزانتي .

تباشير الشراب لابن المعتز . خزانة باريس ٣٢٩٩
تاريخ بغداد لابن النجار . « « ٢١٣١
تاريخ الاسلام للذهبي . خزانة اكسفرد Laud. Or. 286
تاريخ البدر العيني . خزانة بريتيش موزيوم Add. 22360
تاريخ صلاح الدين الصفدي (الجزء الرابع) رقم ١٢١٦ المكتبة الاحمدية بحلب
تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي . بريتيش موزيوم Or. 5803
التذكرة الحمدونية . باريس ٣٣٢٦

الجامع المختصر لابن الساعي . الخزانة التيمورية

خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٨

الدر الملتقط من كل بحر وسفط . بريتيش موزيوم Add. 19408
دستور المنجمين . باريس ٥٩٦٨
ديوان ابن المعتز . رواية الصولي . باريس ٣٠٨٧
ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس ٢٨٢٩–٢٨٣٠–٢٨٣١
ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . خزانة الفاتيكان ٤٥٦
ديوان البحتري . باريس ٣٠٨٦
ديوان التلعفري . خزانة الفاتيكان ٣٦٠
ديوان السري الرفاء . باريس ٣٠٩٨
ديوان الامير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي . ليدن Arabe 2038
ديوان المعاني لابي هلال العسكري . بريتيش موزيوم Add. 23443

ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالحي . الخزانة التيمورية رقم ١٤٢٢
ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨

راحة الارواح في الحشيشة والراح . لتقي الدين البدري . باريس ٣٥٤٤
روض الآداب لاحمد بن الحجازي . بريتيش موزيوم Or. 3843

زبدة الحلب في تاريخ حلب . باريس رقم ١٦٦٦

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي . باريس ١٧٢٧
سيرة احمد بن طولون للبلوي . دار الكتب الاهلية الظاهرية . دمشق ٢٤٣
سِيَر البطاركة الاقباط . باريس ٣٠٢

شفاء القلوب في مناقب بني ايوب . بريتيش موزيوم Or. 7311

الضوء اللامع للسخاوي . الخزانة التيمورية

عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي . الخزانة التيمورية
» » » خزانة باريس ٥٣٧
» » » الخزانة الظاهرية ٤٩

قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم . بريتيش موزيوم Or. 3628

كتاب الديارات للشابشتي . خزانة برلين ٨٣٢١ We. 1100
كتاب الطبيخ واصلاح الاغذية المأكولات لابي محمد المظفر بن نصر الوراق . اكسفرد Huntl. 187
كتاب من لا يحضره الفقيه . الخزانة الملوفية رقم ١٧٠٣

مجموع من القوانين البيعية . بريتيش موزيوم Or. 1331
مجموع فصول دينية للبطريرك مكاريوس (الزعيم الحلبي) . بريتيش موزيوم Add. 9965
مختار من كتاب اللهو والملاهي لابن خرداذبه . في خزانتي .
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . بريتيش موزيوم Or. 4619
مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . جزء في المتنّين والمتنّيات . باريس ٥٨٧٠
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي . الخزانة التيمورية

نزهة المتأمل ومرشد المتأهل لجلال الدين السيوطي . بريتيش موزيوم Or. 4640
النهج السديد للمفضَّل بن ابي الفضائل . باريس ٤٥٢٦
نوادر الاشراق في مكارم الاخلاق . الخزانة الملوفية ١٦٩٣

الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي . بريتيش موزيوم Add. 23358

إصلاح أغلاط الطبع

الصفحة	السطر	خطأ	صوابه
٤٦	٢٥	وقبله قال الحسن بن هانئ يعني أبا حنيفة والشافعي	وقبله قال الحسن بن هانئ يعني أبا حنيفة والشافعي. وفي رواية أنّ القائل هو ابن الروميّ:
٤٨	٢٧ حاشية ٤	للثرواني	للشرواني
٤٩	٢١	بطيرناباذ	بطيزناباذ
٥٤	٨	الأبقال	الأنقال
٦٦	١٧	حدران	جدران
٦٧	٧	مرّيان	مديان
٦٩	٢٠	بطيرناباذ	بطيزناباذ
٧٠	٢	أشموني	أشمونى
٧٢	أعلى الصفحة	دور الضيافة	حانات الديارات
٧٦	العنوان		
٧٥	١٨	بموت	يموت
٨٥	١٣	ومتى	ومَن
٨٧	٢٧ حاشية ٢	إرشاد الأديب	إرشاد الأريب
٩٤	١١	العماس	العبّاس
٩٦	١١	تلحيں	تلحين
١٠٥	٢٢ حاشية ١	F. Besson	P. Besson
١٠٩	٨	تأتي	يأتي
١٢٠	٢٢ حاشية ١	الفَرق بين الفِرَق	مختصر الفَرق بين الفِرَق

فهرس الفصول

الصفحة

تصميم الغلاف: جان قرطباوي

الطباعة : أيس ديزاين أند برنتنغ ستتر

٢٠١٠/١٠/١٥-٠,٥-١٦٣٢